طبعة
٥

وليد فكري

أيام من دم

من كربلاء إلى مذبحة القلعة



والتوزيع

أيام من دَم

وليد فكري

■ الطبعة الخامسة 2019

الغلاف: أحمد مراد

التصحيح اللغوي: محمد حمدي أبو السعود

رقم الإيداع: 2018/22342

الترقيم الدولي: 8 - 049 - 824 - 977 - 978



186 عمارات امتداد رمسيس 2 - أمام أرض المعارض - مدينة نصر

هاتف: 0220812006

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaq.Publishing

أيام من دم

من كربلاء إلى مذبحة القلعة

وليد فكري



إهداء إلى أستاذي وصديقي الدكتور أحمد **خالد توفيق** رحمه الله.

كنتُ أرجو أن تقرأ هذا الإهداء في حياتك، ولكنني أعزي النفس بأن روحك الغالية ترفرف حول تلاميذك الذين أتشرف أن أكون واحدًا منهم. علمتني الكثير، ولم أستنفد بعد كل ما علمتني، ولا أراني سأفعل.

رأيتَ فيّ كاتبًا ناجحًا للتاريخ، ولطالما أبديتُ عظيم اعتزازي بقولك إنك تحتفظ بمقالاتي التاريخية للرجوع إليها. كنتُ أرجو أن يمتد بك العمر لتفخر بي كما أفخر أنا بالتتلمذ على يديك الكريمتين، ولكن القدر كانت له تدابير أخرى.

أعزي نفسي إذًا بأنك ربما يومًا ما تشير إليّ من موقعك الذي أدعو الله أن يكون في مكان أفضل، وأنت تقول لرفقائك من المبدعين الذين سبقوك للعالم الآخر: هذا الفتى تلميذي.

فإليكَ، أهدي هذا العمل المتواضع يا أستاذي العزيز.

تلميذك وليد



مقدّمة

ـ س: لماذا الدم؟ لماذا هذا الإصرار على تناول المؤلم والدامي والقاسي مّن أحداث التاريخين العربي والإسلامي؟

ـ ج: دعني أقص عليك حكاية قصيرة: يومًا ما جمعتني مناقشة مع صديقة أكاديمية ألمانية، في سياق حديثها قالت لي: إن أكاديميًّا مصريًّا سألها «الألمان شعب قوي وأمة عظيمة، فلماذا إذًا يصرون على تسليط الضوء على القاسي والمؤلم من تاريخهم؟».

فأجابته: «هذا لأننا شعب قوي بما يكفي لأن نواجه أنفسنا بالمناطق المظلمة من تاريخنا لنتعلم من دروسها!».

ـ س: ولكن هذا ثالث تناول لك في كتاب عن تلك المناطق المظلمة، أليس في تاريخنا مناطق مضيئة تستحق إبرازها؟

ـ ج: بلى يوجد، بل إن أغلب تاريخنا العربي والإسلامي هو عبارة عن مراحل مضيئة، قدم خلالها أجدادنا للعالم دروسًا في الحضارة والثقافة والعلم، وكل ما من شأنه أن يضيف إلى الحضارة الإنسانية.

ـ س: فلماذا إذًا لا تسلط الضوء عليها؟

ـ ج: انظر في الكتابات التاريخية ـ عربية أو أجنبية ـ وقل لي: ما قدر ما اعتنى منها بإبراز تلك الإيجابيات والمراحل المضيئة، مقابل ما تناول الفترات القاسية والأحداث الدامية؟ إنه أغلبها، مقابل قلة قليلة اهتمت بموضوعات، مثل: القتل، والعنف، والصراعات

الدامية، ثم إن غيري قد تناول الجانب الحضاري الراقي من الحضارة العربية والإسلامية، ربما بأفضل مما يمكنني أن أفعل، فلماذا أكدح في الكرمة نفسها؟ أنا أحب دائمًا أن أعمل في المنطقة المهجورة التي لا يعتني الكثيرون بالبحث فيها وتحليلها.

ـ س: ألا تخشى أن تُتَّهَم بتشويه التاريخ العربي والإسلامي؟

ـ ج: لكي تشوه تاريخ أمة ما فإنك لا تكتفي بتناول جوانبها السلبية، بل إنك تقول صراحةً إن تاريخها لم يكن سوى فترة طويلة من العنف والقتل والدمار، وأنا لم ولن أقول هذا. ثم إن التاريخ العربي الإسلامي ليس حالة شاذة عن تواريخ باقي الأمم، فلكل أمة نصيبها من الدم والعنف والصراعات، وكذلك نصيبها من العطاء للحضارة الإنسانية، ومعيار تقييمها هو قدر ما قدمت من عنف مقابل ما قدمت من محتوى حضاري راقٍ، وأنا أؤمن بأن حضارتنا كعرب أو مسلمين نصيبها من الإنجازات الحضارية هو نصيب الأسد.

ـ س: ماذا تريد أن تقول إذًا بإصرارك على الكتابة عن الأحداث العنيفة الدامية؟

ـ ج: أريد أن أقول ـ بشكل غير مباشر ـ إن الموروث الحضاري العظيم الذي أورثناه الإنسانية لم يأتِ بسهولة أو يُسر كما يعتقد البعض، وإن في سبيل إنتاج هذا الموروث عانت الحضارة العربية الإسلامية أوقاتًا عصيبة وأحداثًا دامية وتحديات قاسية. أريد أن أقول كذلك إن بقاء وانتقال وتداول هذا الموروث الحضاري إلى يومنا هذا رغم ما عانته حضارتنا من أحداث قاسية، إنما هو دليل على قوة وعظمة ورقي هذه الحضارة التي لم تنهزم أمام فيضانات

الدم والعنف، بل ثابرت وعاندت وتملكتها غريزة البقاء حتى تركت للإنسانية هذا الميراث الثمين.

ـ س: ولكنها في النهاية ـ الحضارة العربية الإسلامية ـ قد سقطت وتشرذم أبناؤها واضمحلوا!!

ـ ج: مؤشر التاريخ لا يسير في خط مستقيم بل هو يصعد ويهبط، هذه سُنة الحياة، وأنا أجرؤ على القول إنني أومن بأن استعادة تلك الحضارة واستكمال مسيرتها، إنما يبدأ بمواجهة أخطاء الماضي ونوازله ومصائبه بشجاعة وموضوعية، ليس بغرض البكاء على الأطلال ولا إلصاق الأخطاء بتآمر العالم علينا كما فعل ويفعل البعض، وإنما بغرض التعلُّم من ماضينا لفهم حاضرنا وبناء مستقبل أفضل لنا. هكذا يفعل في الماضي وهذا فعل الذين سبقونا في الحاضر.

ـ س: ولكنني أعود فأقول ربما تخدم كتاباتك هذه أغراض الراغبين في تشويه تاريخنا بقولهم إنه تاريخ مظلم دامٍ.

ـ ج: وهل خلا تاريخ أمة من الدم والعنف؟ هل انفرد تاريخ العرب والمسلمين بالدم والعنف والصراع، بينما اكتفت شعوب، كالرومان والمصريين القدماء والعراق القديم وفارس واليونان وأوروبا العصور الوسطى، بتوزيع باقات الورود على بعضها؟

إن كان في تاريخنا أشخاص مثل يزيد بن معاوية والقرامطة وتيمورلنك وسليم الأول، فإن به أسماء، مثل: ابن سينا والغزالي وابن رشد وابن خلدون وعبد الرحمن الناصر والفارابي وابن الهيثم، وغيرهم ممن تضيق عن أسمائهم وأعمالهم صفحات كتب التاريخ الإنساني، ثم إن الحضارات الأخرى لها نصيب وافر من القتلة والسفاحين، أمثال: هتلر وكاليجولا ونيرون وجنكيز خان ونبوخذ

نصر وأوربان الثاني وكورتيز، وغيرهم من أعداء الحضارة؛ فهل لنا أن نختصر تواريخهم في هؤلاء؟ بالطبع لا! فقد قدموا لنا كذلك أناسًا عظماء، أمثال: أرسطو وسقراط وجاليليو وبيتهوفن وحمورابي ويوحنا بولس الثاني وتوماس مور، وآخرين يستحقون مكانًا محترمًا في ميزان الحضارة الإنسانية.

س: هل من كلمة أخيرة للقارئ قبل أن يشرع في قراءة هذا الكتاب؟

ـ ج: أجل، التاريخ غير مُطالَب بأن يجامل أحدًا، و«الشخص التاريخي» إنما هو إنسان له ما له وعليه ما عليه، فليُقرأ التاريخ إذًا بغير تمجيد ولا شيطنة، فهو في النهاية أمر واقع يجب ألا يخضع لما «يجب القارئ أن يكون»، بل لما «قد وقع بالفعل».

وأخيرًا، فإنني لا أجرؤ على ادعاء أن ما أكتب وأحلل هو «الحق الذي لا ريب فيه»، فهو مجرد اجتهاد بشري يحاول أن يجد لنفسه مكانًا بين غيره من الاجتهادات. وأنا أدعو القارئ لئلّا يكتفي بما أقدم له، بل أن يبحث في مراجع هذا العمل وأن يقرأ التاريخ بطريقته هو، وأن يكوّن نظرته الخاصة إليه، وتحليله الخاص له، حتى وإن نتج عن ذلك اختلافه معي فيما أكتب، فهكذا يُثرَى الفكر التاريخي، وهكذا تسير حركة التاريخ إلى الأمام.

I

كربلاء، مقتلة آل البيت النبوي



طريق العراق، سنة ٦١هـ/ ٦٨٠م

ابتلع الليل آخر فلول الراحلين، فالتفت الرجل إلى من بقي حوله من أنصاره، فوجدهم لا يجاوزون اثنين وسبعين بين مشاة وراكبين سوى أهل بيته.

كان قد علم خذلان أهل الكوفة إياه، فلم يشأ أن يلقي من اتبعوه إلى التهلكة، فقال لهم: «قد خذلتنا شيعتنا، فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف، ليس عليه منا ذمام»، فلم يكذبوا خبرًا وارتحلوا تاركين إياه ومن معه في العراء.

أرسل الحسين بن علي بن أبي طالب البصر يرعى نجوم السماء، وهو يسترجع بداية البدايات القريبة لقصته التي توشك أن تختم فصولها.

■ ■ ■

أبلغ الناعي موت الخليفة معاوية بن أبي سفيان، فسارع رؤوس أهل الكوفة يراسلون الحسين أن أقبل علينا فقد رفضنا بيعة يزيد وولّيناك على المسلمين، أقسموا له بطلاق نسائهم وعتق عبيدهم إنهم

له طوع، وإن بين يديه مئة ألف سيف يضربون عدوه.

في أثناء ذلك كان يزيد بن معاوية يستحث واليه على المدينة أن يأخذ له البيعة من رجالاتها ـ وعلى رأسهم الحسين ـ طوعًا أو كرهًا، فراوغ الحسين الوالي ثم تدثر بالليل منطلقًا إلى مكة توطئة للارتحال إلى الكوفة ملبيًا نداء أهلها، وقد بعث إليهم عنه ابن عمومته مسلم بن عقيل بن أبي طالب.

وفي الكوفة التجأ مسلم إلى دار هانئ بن عروة الذي جمع له رؤوس المبايعين يؤكدون وعودهم ويغلظون قسمهم إنهم مع الحسين حتى الموت.

ولكن يزيد يبلغه ما يجري من الكوفيين وتراخي واليه عليهم عنهم، فيخلعه ويستبدل به واليًا أشد صرامة هو عبيد الله بن زياد.

وإن كان عبيد الله شابًا لم يبلغ الثلاثين، وإن كانت في نطقه العربية لكنة مضحكة اكتسبها من أمه الفارسية، فإنه لم يكن بالرجل سهل المراس، فهو ابن والي العراق الرهيب «زياد بن أبيه»، مروع العراقيين وأول من ابتكر «حظر التجوال» وعاقب على مخالفته بالقتل الفوري، وقد ورث الابن قسوة أبيه وزاد عليها شراسةً وجرأة على الدم.

وقبل أن يبرد الظل قوائم راحلته، كان ابن زياد يبث عيونه في بيوت كبار الكوفة بحثًا عن مبعوث الحسين، حتى إذا بلغه، التجأ إلى دار هانئ، سارع بالقبض على هذا الأخير بينما فر ابن عقيل من رجال ابن زياد، ونادى في الناس أن انفروا نحاصر والي يزيد حتى نستخرج منه هانئ ونثور بالمدينة ثورة رجل واحد، وبالفعل يجتمع إليه أنصار الحسين ولكن الوالي الداهية يبث بينهم من يخذلونهم عن

مسلم بن عقيل، فينسحبون من حوله حتى يصير وحده فيبذل محاولة يائسة للفرار بنفسه لتحذير الحسين من خذلان شيعته، إلا أنه يسقط في براثن عبيد اللـه بن زياد الذي يقتله ويقتل هانئ بن عروة، ويسحل جثتيهما في السوق ثم يصلبهما على مشهد من الناس.

هكذا تتضح ملامح المأساة الدامية.

■ ■ ■

في أثناء ذلك كان الحسين في مكة يتجهز للخروج بأهله وأنصاره قاصدًا الكوفة.

لم يعدم الحسين من ألحوا عليه في عدم الخروج، فهذا ابن عمه عبد اللـه بن عباس يستوقفه فيلح عليه في عدم الخروج قائلاً: «أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليهم، وإن كانوا إنما قد دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر وعماله تجبي بلادهم، فإنهم إنما دعوك إلى الحرب والقتال، ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك، وأن يُستَنفَروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك! إن أهل العراق قوم غدر، فلا تقربنّهم!».

ولما وجد من الحسين إصرارًا على المسير أردف: «فإن كنت سائرًا فلا تسر بنسائك وصبيتك، فواللـه إني لخائف أن تُقتَل كما قُتِلَ عثمان، ونساؤه وولده ينظرون إليه».

ثم أضاف محنقًا من عناد محاوره: «لو أعلم أنك إذا أخذتُ بشعرك وناصيتك حتى يجتمع عليّ وعليك الناس أطعتني لفعلت ذلك!».

وهذا الفرزدق بن غالب الشاعر يأتي مكة زائرًا البيت الحرام،

فيسأله الحسين عن حال الكوفة فيجيبه: «قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بني أمية».

وابن عمه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب يبعث إليه من المدينة مع ابنيه يرجوه ألّا يُقدِم على ما فيه هلاكه: «إن هلكت اليوم أطفئ نور الأرض، فإنك علم المهتدين ورجاء المؤمنين».

أما عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فيتشبث به راجيًا إياه: «إنك تأتي بلدًا فيه عماله وأمراؤه، ومعهم بيوت الأموال، وإنما الناس عبيد لهذا الدرهم والدينار، ولا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره، ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه!».

فيجيبهم الحسين أن بني أمية غير تاركين إياه إلا أن يبايع أو أن يقتلوه، وأنه يخشى أن ينتهكوا حرمة البلدين المقدسين -مكة والمدينة- طلبًا لرأسه، فهم غير منتهين عنه، فليخرج إذًا إليهم: «فلئن قتلت خارجًا منها بشبر أحب إليّ أن أُقتَل داخلاً منها بشبر»، ويرد على من ألحوا عليه أن يعتصم بمكة أن «قال لي أبي إن بها كبشًا يستحل حرمتها، وأنا لا أريد أن أكون ذلك الكبش».

ويحمل الحسين أهله وأنصاره وأثقاله مغادرًا مكة إلى طريق العراق وهو لا يعلم بمقتل مبعوثه إلى الكوفة قبل خروجه من مكة بليلة!

وفي الطريق يلحق به عبد الله بن عمر بن الخطاب ليرجعه، فيبلغه بعد مسير ثلاث ليالٍ ويحذره مستنكرًا «أتسير إلى قوم خذلوا أباك وطعنوا أخاك؟!»، فلما استيأس من رجوعه عن قراره ضمه مودعًا وهو يقول من بين عبراته «أستودعك الله من قتيل».

ثم يلقاه رجل من عرب الصحراء فينصحه «والله لئن طلبت

ما في يدي بني أمية ليقتلنك، ولئن قتلوك لا يهابون بعد أحدًا أبدًا، والله إنها لحرمة الإسلام تُنتَهَك، وحرمة قريش وحرمة العرب، فلا تفعل ولا تأت كوفة ولا تعرض لبني أمية».

ولا يطيعهم الحسين، فسهم طلب يزيد بن معاوية بيعته أو رأسه قد انطلق، فالمواجهة إذًا مسألة وقت لا أكثر، فليختر هو إذًا شكل وموعد تلك المواجهة.

ينطلق إذًا ركْب الحسين إلى العراق، فلا يمر بماء من مياه الصحراء إلا انضم أهله إليه؛ حتى تعاظم حشده وأحس أنه لن يُهزَم عن قلة.

■ ■ ■

وبينما هو في الطريق يرسل الحسين رجلاً آخر إلى الكوفة يبلغ أهلها قدومه عليهم، فيقبض عليه أحد رجال عبيد الله بن زياد، فيأمر هذا الأخير الرسول أن «اصعد إلى القصر فأشرف على الناس والعن الكذاب بن الكذاب»، يعني الحسين بن علي. فيصعد الرسول ولكنه ينادي في الناس بمبايعة الحسين، ويلعن يزيد وابن زياد فيقذفه جند الوالي من السطح فيهوي ويتقطع جسده.

■ ■ ■

نظر ابن زياد من نافذة قصره إلى صفوف جيشه، كان قد حشد خمسة آلاف مقاتل ليخمدوا تمردًا لبعض العجم، لكنه أخّر تدبير ذلك، وقرر أن تكون وجهتهم إلى طريق الكوفة لملاقاة الحسين.

التفت إلى بعض معاونيه قائلاً: «أرسل ألفًا مع الحر بن يزيد الرياحي، ثم أربعة آلاف يوافونهم بعد ذلك مددًا».

ثم استدعى صاحب شرطته، وأمره أن يبث العيون والسرايا على طريق العراق، لاستطلاع تحرك الحسين بن علي وأنصاره.

عندما رجع إلى مجلسه وجد عمر بن سعد بن أبي وقاص في انتظاره، فجلس دون أن يحدثه بكلمة.

«أعفني من الأمر».

ابتسم ابن زياد بسخرية وأجاب: «لك هذا، لكنك تعلم الشرط».

لم يحر عمر جوابًا، فيضيف والي العراق: «قد وليناك بعض أعمالنا على أن تسمع وتطيع، فإن أبيت الخروج إلى الحسين فهلُمّ اخلع نفسك من عملنا نولِّه غيرك، لا نأخذ منك طاعة منقوصة».

أطرق ابن سعد برأسه صامتًا، فمال ابن زياد نحوه قائلاً بنبرات قاسية: «لم أسمع جوابك!».

غمغمة غير مفهومة صدرت عن الرجل فزعق به الوالي: «لا أسمعك!»، فكرر عمر بصوت متحشرج: «أنا متوجه إلى الحسين!».

فأشاح عبيد الله بيده وهو يقول كأنما يبصق: «اذهب وتجهز وانتظر أمرنا».

■ ■ ■

على الرغم من تدابير الوالي، والعسس والعيون والمأجورين، بلغت الأنباء الرهيبة مسامع الحسين، فابن عقيل كان قد استطاع قبيل مقتله أن يبعث رسولاً ينذر الحسين أن ارجع من حيث جئت فقد

مدرٍ بنا، وقبل أن يستجمع الحسين أنفاسه لاقاه فتيَان من قبيلة أسد، فأبلغاه أنهما قد رأيا بأمهات أعينهما جثتي مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة تسحلان في سوق الكوفة.

رغم عنف الصدمة تمالك الرجل نفسه، فجمع رؤوس من تبعوه من الأعراب وأطلعهم على الأمر كي لا يغشهم، لم يعد النصر في متناول اليد كما حسبوا، والسائر معه الآن إنما هو سائر إلى التهلُكة.

هكذا سرعان ما انفض الجمع الحاشد، وصار على الحسين وأتباعه القليلين أن يواجهوا مصيرهم الذي لاحت نذره في الأفق.

■ ■ ■

أحس نظرات ترمق ظهره، فالتفت ليجد رجال بيته وكبار أنصاره قد وقفوا، وقد ترددوا أن يقطعوا خلوته بنفسه، سار نحوهم بخطوات ثقيلة وبقي صامتًا ينظر إليهم.

تقدم منه بعض بني عقيل بن أبي طالب وقد استشعروا ما يدور برأسه، نظر أحدهم إلى عينيه قائلاً من بين أسنانه بتصميم: «والله لا نرجع أو نذوق ما ذاق أخونا!».

أمّن الرجال على قوله، فتنهد الحسين وأجابهم: «لا خير في العيش بعد هؤلاء».

أردف آخر: «أنت أعز على الناس من مسلم بن عقيل، فلئن قدمت عليهم لينصرنك».

هز رأسه بغير اقتناع مسلّمًا بأن من معه قد اتخذوا قرار المضي قدمًا حتى النهاية.

■ ■ ■

مضى الركب في طريقه صامتًا حتى قطعت الصمت تكبيرة عالية، التفت الحسين مستفسرًا فناداه بعض من معه: «هذه رؤوس النخل؛ قد بلغنا العراق!».

تقدم رجل على فرس وشب مضيقًا عينيه مصوبًا بصره إلى الأفق: «لا! لا نخيل بهذه الأرض» ثم انتفض صائحًا وقد تبيّن ما حسبوه نخلاً «خيل! هذه طلائع خيل!»، فأشار الحسين إلى من معه بالتوقف عن المسير والتأهب لأي طارئ.

▪ ▪ ▪

كانت هذه طليعة جيش عبيد الله بن زياد، ألف فارس على رأسهم الحر بن يزيد الرياحي.

ولدهشة أصحاب الحسين، فإنه التفت إليهم وأمرهم أن يقدموا الماء لهؤلاء الوافدين عليهم وأن يسقوا خيلهم.

ولأن آداب الضيافة معروفة عند العرب، فإن الحسين لم يسأل القوم عن شيء حتى يرتووا ومطاياهم، ثم تقدم من قائدهم الحُر وبادره ومن معه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إني لم آتكم حتى أتتني كتبكم، وقدمت عليّ رسلكم أن أقدِم علينا فإنه ليس لنا إمام، فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهون انصرفت عنكم»، ولمّا تبادلوا النظرات الصامتة ولم يجيبوه رجع عنهم، حتى إذا أُذِّنَ لصلاة الظهر أرسل إليهم: «أتصلون بجماعتكم وأصلي بجماعتي؟» فأجابه قائدهم «بل نصلي كلنا بصلاتك».

بقي الصمت متسيدًا، حتى إذا صلى الجمعان العصر وراء الحسين تقدم مجددًا من الحر ورجاله وقال: «إنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق

لأهله يكن أرضى لله، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدعين ما ليس لهم».

التفت الحر إلى المحيطين به مستدعيًا ردهم فتعالت أصواتهم تنكر إرسال أي رسائل إلى الحسين، فأشار هذا الأخير إلى بعض فتيانه فتقدم بخُرجين قلبهما أمام القوم لتسقط منهما عشرات الرسائل.

بقي الحر يتأمل كومة الرقوق ثم رفع رأسه للحسين قائلاً: «فإنا لسنا ممن أرسل إليك».

أدرك الحسين أن لا فائدة إذًا من المحاورة، فرجع إلى معسكره آمرًا فتيانه وأصحابه بالتجهز لاستكمال المسير.

فلما هموا بالتحرك وجدوا الحُر قد أمر جنده فاتخذوا مواقعهم محاصرين ركب الحسين وقاطعين عليهم الطريق، فانطلق الحسين بفرسه يواجه كبير الفرسان صائحًا به «ثكلتك أمك! ما تريد؟!».

رد الحر أسنانه كاظمًا غيظه وأجابه بأناة: «لو أن غيرك من العرب قالها ما تركت ذكر أمه كائنًا من كان، ولكن لا سبيل لذكر أمك إلا بالخير».

كرر الحسين: «ماذا تريد؟!».

- «أن تنطلق معي إلى الوالي فيرى أمرك».

- «الموت أقرب لك من ذلك!».

■ ■ ■

بقي الرجلان يتفاوضان وكلاهما متشبث بموقفه، الحسين يرغب في استكمال المسير والـحُر مُصر على اصطحابه إلى ابن زياد.

أخيرًا بعد طول محاورة توصلا لاتفاق: يمضي الحسين ومن معه إلى طريق لا يؤدي به إلى الكوفة ولا إلى المدينة، والـحُر يسير إلى جواره حارسًا ويرسل إلى والي الكوفة يسأله تخلية سبيل الحسين إلى حيث شاء من الأرض.

وبينما هو يغيّر وجهته التفت الحسين إلى مرافقي الـحُر وقال: «لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم بن عقيل، والمغرور من اغترّ بكم!»، فقال له الـحُر: «يا حسين، إني أذكرك الله في نفسك، فإني أشهد لئن قاتلت فلتقتلن!»، فأجابه الحسين مستنكرًا «أفبالموت تخوفني؟! وهل يعـدو بكم الـخطب أن تقتلوني؟!»، ثم مضى يخبر أصحابه بخط السير الجديد.

ويمضي الركبان متجاورين، وبينما هما في الطريق يلاقي الحسين رجالاً من قبيلة طيء، فيعرضون عليه أن يخلصوه ومن معه من رقابة جند ابن زياد، فيعتصم ببعض مدنهم ويكون بين يديه عشرون ألفًا يضربون عدوه، ولكنه يرفض أن ينكث بكلمته للحر بن يزيد.

▪ ▪ ▪

أدركه التعب فغفا وهو على صهوة الفرس الماشي الهوينى، ثم رفع رأسه فزعًا وهو يقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون!».

اقترب منه ابنه «عليّ الأكبر» حتى حاذاه بفرسه، «ما الأمر؟» سأله الابن فأجابه الحسين: «أدركتني غفوة فرأيت فارسًا يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم».

امتقع وجه الفتى بينما أردف الأب وهو يلتفت بوجهه عنه متمتمًا بخفوت: «فعلمت أنها أنفسنا نُعِيَت إلينا».

سعل عليّ طاردًا حشرجة من صدره ثم استجمع صرامته قائلاً: «ألسنا على الحق؟»، أجابه صمت أبيه فأردف: «نموت محقين إذًا!»، ثم تراجع بفرسه مخفيًا انفعالاته وأبوه يرقبه هامسًا: «جازاك الله خير ما جازى ابنًا عن أبيه».

■ ■ ■

أخيرًا بلغوا جوار مدينة نينوى من أرض العراق، فأبصروا غبرة تعلو في الأفق تمخضت عن فارس تقدم منهم، فلم يسلّم على الحسين وسلّم على الـحُر بن يزيد وسلمه رسالة من ابن زياد.

سرعان ما شاع محتوى الرسالة، فالوالي يأمر قائد طليعة جنده أن يحاصر الحسين ومن معه حيث هم، على ألا يكونوا في موقع يمكن أن يتحصنوا به ولا ماء يستقون منه. وأن ينتظر في اليوم التالي وصول باقي الجند على رأسهم عمر بن سعد بن أبي وقاص، وأن حامل الرسالة هو رقيب من الوالي على الـحُر بن يزيد ليستوثق من تنفيذه الأمر.

فلم يجد الـحُر بدًّا من الانصياع لما أُمِرَ به.

هكذا أدرك الحسين ومن معه أن قد حانت ساعة حسم وضع البين بين الذي عاشوه أيامًا.

■ ■ ■

قبل وصول باقي الجيش، تقدم من الحسين رجله ومناصره الزهير بن القين، فنصحه أن يبادر بقتال الحُر ورجاله قبل أن يأتيه المدد، فقتال هؤلاء أيسر من قتال من يأتون غدًا، لكن الحسين يرفض الاقتراح بصرامة، فهو لا يريد أن يكون البادئ بالقتال.

وتعلو في الأفق غبرة أربعة آلاف فارس يقودهم عمر بن سعد بن أبي وقاص.

وعمر الذي يحاول تأخير لحظة المواجهة يجمع رؤوس جنده، فيأمرهم أن يختاروا بعضهم ليتوجه رسولاً إلى الحسين ومفاوضًا له، لكنهم يطرقون برؤوسهم خجلاً، فمع الحسين كتاب من كل منهم يدعوه للخروج، وهم يستحون أن يرفعوا أعينهم إلى وجهه وقد أقسموا له بالأمس وجاءوا ليحاربوه اليوم.

غير أن رجلاً منهم كان معروفًا أنه «لا يرد وجهه شيئًا» أبدى استعدادًا للقيام بالمهمة، بل وزاد فقال: «ولئن شئت لأفتكن به!».

فبعثه عمر بن سعد إلى الحسين بن علي، لكنه حين لاقى الحسين واجه هذا الأخير بوقاحة وتحول الحوار إلى وصلة من السباب فعاد خائبًا، فأرسل ابن سعد غيره فتحدث ساعة مع الحسين وأصحابه ثم عاد بالجواب: «إن كره أهل الكوفة قدومي بعد أن أرسلوا إليّ عدت من حيث أتيت».

فبعث عمر بن سعد بذلك لابن زياد الذي قهقه بظفر مجيبًا: «الآن إذ علقت مخالبنا به يرجو النجاة!»، وأرسل إلى ابن سعد يأمره أن يخبر الحسين أن لا نجاة له إلا بمبايعة يزيد.

وختم رسالته: «حُلْ بين الحسين وأصحابه وبين الماء، ولا يذوقوا

منه قطرة كما صنع بالتقي المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان» (رغم أن الحسين كان ممن دافعوا عن عثمان ضد من حاصروه وأرادوا قتله!).

فلم يجد ابن سعد بدًّا من تنفيذ الأمر، فأرسل ٥٠٠ رجل يحولون بين الحسين ومجرى النهر اللائح في الأفق.

واستبد العطش بالحسين ومن معه فأرسل رجالاً يستقون ليلاً، إلا أن الجند قد تصدوا لهم وردوهم عن الماء.

وفي الليل خرج الحسين في عشرين فارسًا وعمر بن سعد في مثلهم، فانحاز الرجلان عن مرافقيهما وتحاورا.

عرض الحسين على عمر أن يرتحلا إلى دمشق فيلقيا يزيد بن معاوية فيحاوره الحسين مباشرة، ولكن عمر اعترض قائلاً: «إذًا يهدم ابن زياد داري».

فيجيبه الحسين: «أنا أبني لك خيرًا منها».

فيقول ابن سعد: «وتؤخذ ضياعي».

فيرد الحسين: «أنا أشتري لك خيرًا منها بمالي في الحجاز».

ولكن ابن سعد لا يريد المخاطرة بإغضاب سيده، والحسين يدرك ذلك فيعرض عليه ثلاث خصال: أن يعود الحسين ومن معه من حيث أتى، أو أن يتوجه إلى بعض ثغور المسلمين المواجهة لأعدائهم فيقضي باقي حياته في الجهاد في سبيل الله، أو أن يُبعَث إلى يزيد فينظر أمره.

فيحس عمر بن سعد بادرة انفراج في الموقف العصيب، فيرسل بتلك الاقتراحات إلى عبيد الله بن زياد.

ويترقب الجميع رد الوالي الذي ستترتب عليه أمور عظام.

▪ ▪ ▪

انتهى ابن زياد من قراءة رسالة قائد جنده فطوى الكتاب وقد بدت على وجهه أمارات الاقتناع.

نظر إلى من حوله وقال: «هذا قول ناصح لقومه يريد العافية»، فيؤمن القوم على قوله، بصرف النظر عن اقتناعهم.

لكن أحدهم يقوم، رجل أعور قاسي الملامح بوجهه أثر الجدري، إنه شِمر بن ذي الجوشن أخص خاصة عبيد الله بن زياد.

يتقدم دون وجل من الوالي الرهيب، ويقول بصرامة وهو يصوب نظرات عينه الحادة إلى عينـي ابن زيـاد: «أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك إلى جنبك؟!».

ثم يضرب كفيه مبديًا استنكاره مردفًا: «والله لإن رحل من بلدك ولم يضع يده في يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة ولتكونن أولى بالضعف والعجز».

وأخيرًا يعود لمجلسه مستطردًا: «فلا تعطه هذه المنزلة فإنها من الوهن، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه، فإن عاقبت فأنت وليّ العقوبة، وإن غفرت كان ذلك لك!».

تراجع الوالي في مقعده وهو يدير قول شمر في رأسه، تلقفت تربة عقله القاسية البذرة الدموية لمحدثه المعروف بالجلافة والتعطش الدائم للدم.

سرعان ما تمكن قول ابن ذي الجوشن من نفسه، فأشار إلى كاتبه

أن هلم بالقلم فاكتب ما يُملَى عليك جوابًا لعمر بن سعد.

■ ■ ■

«من عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد، أما بعد، فإني لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه ولا لتطاوله، ولا لتمنيه السلامة والبقاء، ولا لتقعد له عندي شافعًا، فإن نزل الحسين وأصحابه على الحكم واستسلموا، فابعث بهم إليّ سلمًا، وإنْ أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم، فإنهم لذلك مستحقون، فإن قُتِلَ الحسين فأوطئ الخيل صدره وظهره، فإنه عاق مشاق، قاطع ظلوم!».

انتهى ابن سعد من قراءة جواب ابن زياد، فرفع عينيه إلى شِمر بن ذي الجوشن الذي حملها إليه فقال له هذا بلهجة بطيئة متشمتة «إما هذا وإما أن ترد لنا عملنا وأقود أنا الجند».

لم يخبره شمر بما لم تتضمنه الرسالة: أمر ابن زياد له أن يقتل عمر بن سعد ويبعث له برأسه إن لم يمتثل للأمر.

بصق ابن سعد إلى جانبه، وقال بتحدٍّ مصوبًا نظرة بُغض لعين شمر السليمة «لا والله ولا كرامة».

ثم غادر خيمته صائحًا في رجاله: «يا خيل الله! اركبي وأبشري!».

■ ■ ■

بينما الحسين جالس محتبٍ أمام خيمته أدركته غفوة قصيرة فلم يحس اضطراب معسكره، إذ رأى الرجال ابن سعد ورجاله يتقدمون منهم حاملين نذر الشر.

نبهته أخته السيدة زينب بنت علي، فهب من جلسته على صوتها: «قد أقبل الرجال!».

بقي ينظر إلى المشهد بشرود، وقال بصوت خالٍ من الانفعالات: «رأيت رسول الله في غفوتي».

أحس قبضة أخته المتوترة على كتفه، فالتفت إليها وقال وهو يتحسس وقع كلماته: «قال لي: إنك تروح إلينا».

لطمت الأخت فمها بقبضة يدها ثم تمتمت بذعر: «يا ويلتا!».

ربت على كتفها وقال وقد شابت صوته نبرة استسلام «ليس عليك ويل يا أخيّة».

انتزع نفسه من انفعالات تعصف بنفسه كالإعصار العاتي، ونادى أخاه العباس أن لاقِ القوم فانظر ما يريدون.

■ ■ ■

على مضض، وافق عمر بن سعد على تأجيل تلقي جواب الحسين على إنذار عبيد الله بن زياد إلى الغد.

وفي الليل جمع الحسين رجاله وآل بيته، فقال لهم بحزم أن يتخذوا من الليل ستارًا فيتسللوا راحلين عن مخيمه، وليأخذ كل منهم معه بعض آل بيت الحسين فيتفرقوا في الأرض «فإن القوم إنما يطلبونني، ولو أصابوني لهَوْا عن طلب غيري».

فثارت ثائرة أصحابه وأهله، وهبّ بنو عقيل بن أبي طالب يقولون باستنكار: «ما يقول الناس؟ يقولون إنا تركنا شيخنا وسيدنا

وبني عمومتنا خير الأعمام ولم نرم معهم بسهم ولم نطعن معهم برمح ولم نضرب معهم بسيف؟! لا والله لا نفعل! ولكن تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا، فقبح الله العيش بعدك!».

وقال له أبناؤه وإخوته وأبناؤهم وأبناء عمومته: «لم نفعل ما فعلنا لنبقى بعدك! لا أرانا الله ذلك أبدًا!».

وقام بعض مناصريه فقال أحدهم: «أنحن نخلي عنك ولم نُعذَر إلى الله في أداء حقك؟! أما والله حتى أكسر في صدورهم رمحي وأضربهم بسيفي، ولو لم يكن لي سلاح لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك!».

وأضاف ثانٍ: «والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا حفظنا غيبة رسول الله فيك! والله لو علمت أن أُقتَل ثم أحيا ثم أُحرَق حيًّا يُفعَل هذا بي سبعين مرة ما فارقتك!».

وقال الزهير بن القين ـ رجله المخلص ـ: «والله لوددت أني قُتِلت ثم بعثت ثم قتلت كذا ألف مرة، والله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك!».

وتعالت الأصوات تستنكر أمره، وراح الجميع يتنافسون في ذلك حتى علم أنهم لن يخلوه ومصيره، فقام من مجلسه وهو يجول بعينيه في وجوههم وهو يقرأ فيها ملامح المأساة.

■ ■ ■

إلى جوار خيمته جلس يشحذ سيفه استعدادًا لغدٍ دامٍ. كان ابنه «علي الأصغر» (كان للحسين ابنان كلاهما اسمهما عليّ)، مريضًا

يرقد على فراشه وعمته السيدة زينب تمرضه، بين إغماءات الحُمى سمع الغلام أباه يتمتم: «يا دهر أُفَّ لك من خليل، كم لك بالإشراق والأصيل، من صاحب أو طالب قتيل، والدهر لا يقنع بالبديل، وإنما الأمر إلى الجليل، وكل حي سالك السبيل».

ولما كانت الأيام قد انتزعت الغلام بقسوتها من غفلة الطفولة، أدرك أن أباه إنما ينعى نفسه، فتكالبت الدموع على جفونه حتى حطمت باب محبسها لتسيل على وجهه الأمرد.

أدركت العمة أن الغلام قد سمع ما أبكاه، فأرهفت السمع لتتلقى أذناها كلمات أخيها الحبيب.

خرجت من الخيمة تجر ثوبها. احتضنت الحسين بعينيها وهي تقول وقد شرقت بعبراتها «وا ثكلاه، ليت الموت أعدمني الحياة. اليوم ماتت فاطمة أمي، وعلي أبي، والحسن أخي، يا خليفة الماضين وثمال الباقين. بأبي أنت وأمي يا أبا عبد الله، استقتلت نفسي فداك!».

رفع لها الحسين عينين خاويتين من التعبيرات قرأت فيهما استسلامًا للمصير، فصاحت وهي تشق جلبابها وتلطم وجهها، وهوت أرضًا وقد اجتاحتها رعدة عاتية. هب الحسين قائمًا فأسندها وصب من الماء على وجهها ويمسحه بطرف عمامته حتى فتحت عينيها بوهن فتنهد بارتياح. أجلسها وقعد إلى جوارها ثم قال وهو يحيط كتفيها بذراعه مسندًا رأسها إلى صدره: «يا أخيّة، اتقي الله وتعزي بعزاء الله، واعلمي أن أهل الأرض يموتون وأن أهل السماء لا يبقون وأن كل شيء هالك إلا وجه الله»، ثم أردف وهو يمس طرف ذقنها رافعًا رأسها إليه: «أبي خير مني، وأمي خير مني، وأخي خير مني، ولهم

ولي ولكل مسلم برسول الله أسوة»، قبّل جبهتها وأكمل: «يا أخيّة عزمت عليكِ إذا أنا هلكت ألّا تخمشي وجهًا ولا تشقي جيبًا ولا تقولي ويلاً».

ثم قام فأسندها وأدخلها الخيمة وهو يهمس لها أن تبدي التماسك، كي لا يفزع الصغار.

■ ■ ■

اطمأن الحسين على أخته وابنه المريض ثم نادى بعض رجاله وتوجهوا لمؤخرة مخيمهم، حفروا خندقًا صغيرًا ثم ألقوا فيه الحطب والقصب ليشعلوا فيها النار إذا ما داهمهم عدوهم كي لا يلتف عليهم ويداهمهم من الخلف.

ثم دخل الحسين إلى خيمة له يتطهر ويتطيب بالمسك تحسبًا للقتل في الغد، وبينما هو منشغل بذلك سمع رجلاً من أصحابه على باب الخيمة يمازح رفيقه فيقول له هذا الأخير: «دعنا منك الآن فما هذه بساعة باطل»، فيجيبه المازح: «والله لقد علم قومي أني ما أحببت الباطل شابًا ولا كهلاً، ولكني علمتُ أن ما بيننا وبين الحور العين إلا أن يميل علينا هؤلاء القوم بأسيافهم».

خرج الحسين فدعا بفرسه فامتطاه ووضع أمامه مصحفًا مفتوحًا. نظر إلى خيل عمر بن سعد وقد أشرفت على معسكره، فرفع عينيه إلى السماء، وقال: «اللهم أنت ثقتي في كل كرب، ورجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة، كم من همٍّ يضعف فيه الفؤاد وتقل فيه الحيلة ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو أنزلته بك،

وشكوته إليك، رغبة مني إليك عمن سواك ففرجته وكشفته، فأنت وليّ كل نعمة وصاحب كل حسنة ومنتهى كل رغبة».

أشار إلى بعض رجاله أن يضعوا النار بالخندق من وراء المخيم ففعلوا. فلما ارتفعت ألسنتها تقدم شمر بن ذي الجوشن من خيام الحسين خطوات بفرسه وصاح هازئًا: «يا حسين! استعجلت النار في الدنيا قبل يوم القيامة!».

فسبّه أصحاب الحسين وشتموه، وأراد بعضهم أن يرميه بسهم، فمنعهم الحسين أن يبدأوا القوم بقتال.

تحرك بجواده مقتربًا من خصومه فبدا عليهم تأهب متوتر، فأشار إليهم أنه إنما يريد أن يحدّثهم. وقف حيث يمكنهم سماعه بغير عسر. أثنى على الله وحمده، ثم قال: «انسبوني فانظروا من أنا؟ ثم ارجعوا إلى أنفسكم فعاتبوها، فانظروا، هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيكم؟ وابن وصيه وابن عمه؟ ألم يبلغكم أن رسول الله قال لي ولأخي: هذان سيدا شباب أهل الجنة؟

أفتشكّون أثرًا ما أني ابن بنت نبيكم؟ فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري منكم ولا من غيركم!

أخبروني، أتطلبونني بقتيل منكم قتلته، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص من جراحة؟».

فلم يجبه أحد منهم.

جال بعينيه في وجوه عرف أصحابها ممن أرسلوا إليه سابقًا،

فناداهم مسميًا كلاً منهم باسمه، سألهم بالله ألم ترسلوا لي؟

التفت شمر إلى المذكورين مصوبًا نظرة نذير شر، فأطرق بعضهم وسارع البعض الآخر يصيح بتكذيب الحسين وهو ينظر إلى وجهه بعينين لا تطرفان.

استيأس الحسين من يقظة ضمائرهم فلوى عنق فرسه وعاد إلى أصحابه.

في أثناء ذلك كان الحر بن يزيد يتقدم من عمر بن سعد، حاذاه بالفرس فمال عليه هامسًا: «أمقاتل أنت هذا الرجل حقًّا؟». انتفض ابن سعد وألقى نظرة حذرة على ابن ذي الجوشن الذي كان يراقبه بعين صقر، ثم قال بصوت تعمد أن يخرج عاليًا كي يسمعه رقيبه: «إي والله! قتال أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي».

جال الحُر بعينيه بين وجهي الرجلين، توترت عضلات وجهه في صراع تملك نفسه. أخيرًا حسم أمره فتحرك بفرسه رويدًا مظهرًا أنه يريد أن يسقيه من الفرات، ثم انتهز غفلة من قومه فانطلق نحو معسكر الحسين. رآه أصحاب هذا الأخير فحسبوه يهاجمهم، فلما أدرك ارتيابهم منه قلب ترسه في مواجهتهم في علامة أنه جاء منحازًا إليهم.

تقدم من الحسين والخجل يعلو وجهه، قابله الحسين بابتسامة مشجعة ونظرة متفهمة، فاستجمع شجاعته واقترب منه معتذرًا ومعاهدًا على الثبات معه حتى الموت، توبةً عن مشاركته في حصاره ومنعه الماء.

رأى كل من عمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن المشهد، فتبادلا نظرة قلقة أن يصاب بعض الجند بعدوى فعل الحُر بن يزيد، أحس عمر أن شمرًا يرتاب فيه هو نفسه أنه يتلكأ في مهاجمة الحسين وأصحابه، فما كان من ابن سعد إلا أن وضع سهمًا في قوسه وأطلقه نحو معسكر الحسين صائحًا: «اشهدوا لي أني أول من رمى!» (للمفارقة، تقول الموروثات الإسلامية إن أباه سعد بن أبي وقاص كان أول من رمى سهمًا في سبيل الله).

رأى الحسين السهم يشق السماء، فصاح بأصحابه: «قوموا يا كرام فقد أتتنا رسل القوم!».

■ ■ ■

كعادة العرب بدأت المعركة بالمبارزات، قام الشجعان من الجانبين يهوي بعضهم على بعض بالسيوف راجلين وعلى صهوات الخيل. لم يكتف جند جيش ابن سعد بمبارزات السيوف فشاركت النصال الحادة ألسنة لا تقل حدة تهوي بالسباب واللعنات. كان كل منهم يحاول شق طريقه إلى الحسين وهو يمني نفسه بقتله لينال حظوة عند الوالي، فإذا خاب مسعاه شفى صدره بسبة هنا ولعنة هناك.

صرخ به أحدهم: «يا حسين أبشر بالنار»، ورأى رجل من رجال ابن سعد أخاه يحارب في صف الحسين فيُقتَل فصاح ببغض: «يا حسين يا كذاب يا بن الكذاب؛ أضللت أخي وغررت به حتى قتلته!».

بينما يجول بينهم آخر يصيح في الجيش محرضًا: «يا قوم لا ترتابوا في قتل من مرق من الدين وخالف الإمام».

ولاحظ بعض قادة الجند أن أصحاب الحسين يستبسلون في القتال فصرخ في الرجال ألّا تبارزوهم فرادى وارموهم بالسهام، ثم اهجموا عليهم هجمة رجل واحد، فتراجع المبارزون وتقدم الرماة فصوبوا على فرسان الحسين حتى عقروا خيولهم، فصار الحسين وكل أصحابه راجلين.

هنا بان فرق القوة العددية بين خمسة آلاف فارس ونحو سبعين راجلاً، فحمل شمر بن ذي الجوشن ومعه مجموعة من الفرسان على مخيم الحسين ليحرقوا خيامه، وصار القتال داخل المعسكر بعد أن كان يدور حوله.

ضاقت الدائرة الدموية، فغرت فاها تقذف الموت وتلتهم الأحياء.

انطلق شمر بفرسه إلى خيمة نساء بيت الحسين وأطفاله صارخًا: «عليّ بالنار لأحرق هذا البيت على أهله»، فهب الحسين وعصبة من رجاله يحمون الحُرم، ولام على شمر بعض رجاله فتراجع على مضض.

توسطت الشمس السماء وقد استحر القتل في أصحاب الحسين، حانت الصلاة فنادى الحسين في جند ابن زياد أن أوقفوا القتال لنصلي، فصاحوا به: «إن صلاتكم لا تُقبَل»، فتراجع بمن معه وصلى بهم صلاة الخوف، ثم سرعان ما كرّ عليهم الجند.

ضاقت حلقة الحديد والنار على الحسين وأصحابه، فاستبسل هؤلاء وراحوا يتنافسون في التقدم للقتال بين يديه ليفدوه بدمائهم.

كأن رجال ابن زياد لم يكتفوا بما أصابوا من دماء أنصار الحسين، فراحوا يستهدفون آل بيته.

▪ ▪ ▪

كان أول قتيل من آل الحسين ابنه علي الأكبر، الذي كان يشد على القوم ببسالة، فصاح أحد جند ابن زياد: «عليّ آثام العرب إن لم أثكل أباه!»، فنادى في بعض رفاقه فالتفوا حول عليّ ومزقوه بسيوفهم.

ورأى الحسين مصرع ابنه قبل أن يستطيع إنقاذه فهرع إلى جثته، يمسح الدماء عن وجهها وهو يتمزق ألمًا ويقول ضامًّا إياه إلى صدره: «قتل الله قومًا قتلوك يا بني، ما أجرأهم على الرحمن وعلى انتهاك حرمة رسول الله! على الدنيا بعدك العفاء!».

ورمى رجل عبد الله بن مسلم بن عقيل بسهمين، أصاب أحدهما جبهته وخرق الآخر قلبه.

وضرب رجل عون بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فقتله، ولحق به أخوه محمد بن عبد الله بن جعفر بضربة من رجل آخر. وتعاون رجلان على عبد الرحمن بن عقيل بن أبي طالب فقتلاه معًا، ورمى آخر سهمًا قتل به جعفر بن عقيل.

وخرج صبي من خيمة الحسين يجري فزعًا، إنه القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فرآه بعض جند ابن زياد فقال: «لأحملن على هذا الصبي»، فداهمه بفرسه وضربه فقطع يده وأسقطه فصاح الصبي: «يا عماه»، فهرع الحسين يتلقى ابن أخيه وهو يحتضر من النزيف، وضمه العم إلى صدره، وهو يقول: «عز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك وأن يجيبك فلا ينفعك، والله قد قل ناصره وكثر

وا الرها!»، ثم وضع جثمانه مع من قُتِلوا من أهل بيته.

وانتهز أحدهم غفلة من الحسين فضربه بالسيف على رأسه ليقتله، فلم تقتله الضربة ولكنها شجت رأسه لتغرق الدماء ثيابه.

وجلس الحسين يلتقط أنفاسه وقد وُضِعَ في حجره ابن له صغير، فأبصره بعض جند ابن زياد فصوب سهمًا نحو الطفل أطلقه عليه فذبحه، فانفجرت الدماء من عنقه لتملأ كفّي أبيه.

وشد الجند على إخوة للحسين من أبيه ـ عبد الله وجعفر وعثمان ومحمد ـ فقتلوهم واحتزوا رؤوسهم لينالوا الحظوة عند قائدهم.

وخرج طفل من خيمة الحسين يتلفت مذعورًا فتلقاه بعض فرسان ابن زياد، فتوجه إليه وضربه بالسيف ليمزق جسده الصغير.

كأنها منافسة محمومة لتذبيح وإفناء آل البيت النبوي حتى الأطفال منهم، فصاروا يصوبون عليهم السهام وينهالون عليهم بالسيوف حتى قتلوا منهم ١٨ بين رجل وطفل.

واجتمع العطش مع وجعي الجسد والروح فداهموا الحسين، فانتهز غفلة من الجند ليشرب من الفرات، وما إن بردت غرفة ماء بيده فمه الجاف حتى رآه بعضهم فأطلق عليه سهمًا أصاب فمه، فتحامل على نفسه لينتزعه، فلما نزع نصله تفجر الدم ليغص به، وهو يقول: «اللهم أشكو إليك ما يُفعَل بابن بنت نبيك!».

■ ■ ■

وصكت صيحات النساء والأطفال مسامع الحسين فهرع

لنجدتهم صارخًا في شمر وجنده أن إن كنتم فجرة قتلة فكونوا أصحاب أحساب لا يهاجمون الحُرم، فضحك شمر ساخرًا وهو يقول له: «لك ذلك يا بن فاطمة». ثم تقدم بفرسه مع كوكبة من الفرسان مشكلين حلقة شبه مغلقة حول الحسين الذي أدرك أنه الآن آخر من بقي من أصحابه ورجال بيته.

وإذ أحدهم يهم بضرب الحسين اخترق الحلقة طفل من أبناء أخته زينب، يركض حاملاً عصا وهو يصرخ: «يا بن الخبيثة أنت تقتل عمي؟!»، فمال الرجل على الغلام وضربه بسيفه فقطع يده فصرخ وهو يسقط «يا أماه!»، فهرعت السيدة المكلومة إلى ابنها تحمله صارخة في عمر بن سعد بن أبي وقاص: «يا عمر! أيُقتَل أبو عبد الله وأنت تنظر؟».

هوت صرختها على عمر كصفعة عملاق عاتٍ فلم يحر جوابًا، وأشاح بوجهه وقد أغرقت دموعه لحيته.

بقي شمر ورجاله يحاصرون الحسين الذي بقي واقفًا يدور بسيفه وهو يترنح عطشًا ووجعًا.

لو أرادوا قتله لقتلوه لحينه، ولكن كلاً منهم كان ينتظر أن يبادر غيره لذلك فيحمل عنه الإثم بينما ينالون جميعًا الحظوة.

أخيرًا تململ شمر من ترددهم فصرخ فيهم أن أجهزوا عليه.

هنا فقط حسم ترددهم، فتشجع أحدهم وضربه بالسيف فأطاح يده، وحث ذلك آخر فهوى بسيفه على عاتقه فشقه.

وطعنه ثالث بحربته فسقط الحسين أرضًا.

لم يعد يميز صرخات أخته زينب من صيحات الضباع المتعطشة للدم النبيل وهي تهوي على جسده بضربات السيوف وطعنات الرماح. صار يقع فيحبو ويقوم فيكبو، وهم في عبث بجسده ضربة من هذا وطعنة من ذاك، حتى سئم شمر بن ذي الجوشن عبثهم فأشار إلى أحدهم أن أنهِ الأمر، فنزل رجل يدعى سنان بن أنس من على فرسه مشيرًا إلى رفاقه أن يفسحوا له، وبهدوء شديد قبض على رأس الحسين ومدّ نصل سيفه فذبحه وبقي يعالج العنق بالسيف غير مبالٍ بالدم الذي تفجر وأغرق ثيابه، تقدم منه بعض رفاقه ليشاركوا في التمثيل بالجسد، لكن سنانًا رفع سيفه في وجههم منذرًا من يجرؤ على مشاركته «الشرف»، ثم عاد يمزق العنق ويحطم عظامه بنصله حتى فصل الرأس ورفعه عاليًا في وجه ابن ذي الجوشن بينما ترك الجسد يهوي أرضًا.

دثّـر الصمت كل شيء، حتى زفرات أنوف الخيل اللاهثة، حتى صرخات زينب توقفت، حتى صفير الريح.

حتى قطعته صيحة انتصار وتكبير من شمر بن ذي الجوشن، وقفز الجند عن صهوات جيادهم لينتزعوا «تذكارات» النصر من الجسد المضرج، هذا ينزع عمامته، وذاك يجرده من ثيابه، وآخر يكشف عن سراويل الحسين التي ارتداها قبل المعركة خشية أن يُقتَل فتكشَف عورته.

وتركوا جسده عاريًا وقد أحصوا فيه ثلاثًا وثلاثين طعنة رمح، وثلاثين ضربة سيف سوى إصابات السهام.

واتسع الحفل الدامي ليشمل المعسكر، فهرع جند ابن زياد يداهمون خيام حريم بيت الحسين وينتزعون حليهن وحتى ثيابهن.

وبين هذا الهرج شق شمر طريقه لخيمة الحسين فوجد ابنه عليًا الأصغر راقدًا يكاد لا يفيق من المرض، فأشار إلى بعض رجاله قائلاً: «ألا تقتل هذا؟» فتدخل عمر بن سعد ومنعهما من ذلك، ولولا بقاء هذا الصبي لفني كل نسل للحسين بن علي.

■ ■ ■

وبينما عمر بن سعد يلهث انفعالاً في خيمته، صك أذنيه صوت سنان بن أنس -ذابح الحسين- يقف خارجها، وهو يصيح بفخر: «أوقر ركابي فضة وذهبًا، أنا قتلتُ الملك المحجبا، قتلت خير الناس أمًا وأبا، وخيرهم إذ ينسبون نسبا».

فكاد يطير صواب عمر من هذا الأحمق -وكان سنان معروفًا بأنه أحمق- فضربه وسبه.

ونادى ابن سعد في جنده أن من يتطوع ليدهس بسنابك فرسه جسد الحسين كما أمر عبيد الله بن زياد، فتطوع عشرة فرسان لذلك فراحوا يركضون ذهابًا وإيابًا داعسين إياه حتى تمزق وصار أشلاءً منغرسة بالأرض.

ثم كلّف عمر بن سعد رجلاً بالاحتفاظ برأس الحسين لحين عرضه على الوالي، فدخل الرجل به على زوجته فرحًا وهو يصيح بها: «جئتك بغنى الدهر! هذا رأس الحسين!»، فهبت المرأة تصيح بزوجها وتفر من بيته.

وبات الجيش «المنتصر» في كربلاء وقد كلفه نصره ثمانية وثمانين

قتيلاً من صفوفه، وراح بعض جنوده يقطفون رؤوس القتلى ليذهبوا بها من غدٍ إلى الكوفة.

■ ■ ■

وتعمد شمر بن ذي الجوشن وعمر بن سعد أن يمرا خلال رجوع الجيش إلى الكوفة بنساء الحسين وآله على موضع مصارع ذويهم، فارتفع صوت السيدة زينب تنعى قتلاها الأعزاء.

«يا محمداه! يا محمداه! صلّت عليك ملائكة السماء! هذا الحسين بالعراء! مرمل بالدماء! مقطع الأعضاء! يا محمداه وبناتك سبايا وذريتك مقتّلة! تسفي عليها الصبا!».

ومضى الجيش الظافر يسوق الركب الحزين وفي مقدمته علي بن الحسين المريض المربوط يُجَر بحبل من عنقه.

وفي جنح الليل، بعد رحيل جيش ابن زياد، تسلل بعض القوم من قبيلة بني أسد إلى كربلاء فدفنوا جثامين الحسين وأصحابه وقتلى آل بيته.

■ ■ ■

في الكوفة طافوا بالأسرى وأمامهم الرماح على أسنتها رؤوس القتلى، يتقدمهم رأس الحسين على رمح عالٍ. ثم أدخلوا الرؤوس على الوالي المنتفخ ظفرًا.

وُضِعَ رأس الحسين بيد يدي عبيد الله بن زياد فراح يضربه في فمه بعصا في يده، وتصادف دخول الصحابي زيد بن أرقم عليه، فلما

رأى عبث ابن زياد بالرأس صاح به: «أعلِ هذا القضيب عن هاتين الثنيتين، فوالله إنني قد رأيت ثنيتي رسول الله عليهما!» فهب ابن زياد وصرخ به: «لولا أنك شيخ قد خرفت لضربت عنقك!».

فخرج ابن أرقم من مجلسه يبكي ويقول: «أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم! قتلتم ابن فاطمة وأمّرتم ابن مرجانة». (أم عبيد الله بن زياد)

فلما دخل آل الحسين على ابن زياد جلست السيدة زينب بنت علي صامتة وقد أحاطت بها إماؤها، فسأل ابن زياد: «من هذه المرأة؟» فقيل له: «زينب ابنة فاطمة».

فضحك متشمتًا وقال لها: «الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم!»، فردت عليه من فورها بلهجة متحدية: «الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وطهرنا تطهيرًا، لا كما تقول أنت! إنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر!».

فابتسم بسخرية قائلاً: «فكيف رأيت فعل الله بأهل بيتك؟!»، هزّت كتفيها استهانة وقالت بترفُّع: «كُتِبَ عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجون إليه وتخاصمون عنده!».

والتفت ابن زياد إلى علي بن الحسين فسأله: «ما اسمك؟»، فأجابه: «علي بن الحسين».

فرد ابن زياد: «ألم يقتل الله علي بن الحسين؟»، فقال عليّ: «كان لي أخ يقال له أيضًا عليّ قتله الناس»، فصحح له عبيد الله: «قتله الله». فسكت الغلام ثم أجاب: «الله يتوفى الأنفس حين موتها وما كان

لنفس أن تموت إلا بإذن الله!»، فقهقه ابن زياد وصاح: «أنت والله منهم!»، ثم أشار إلى بعض رجاله: «انظر إن كان قد أدرك فإني أحسبه رجلاً»، فرفع الرجل ثياب الفتى ونظر إليه فوجده قد بلغ وأدرك، فأخبر الوالي الذي قال «إذًا فاقتله!».

لم يهتز ابن الحسين وإنما قال بهدوء: «لمن توكل هؤلاء النسوة؟»، فتعلقت زينب بابن أخيها صارخة: «يا بن زياد حسبك منا! أما رويت من دمائنا؟! أسألك الله إن كنت مؤمنًا إن قتلته أن تقتلني معه!»، فهز ابن زياد رأسه قائلاً: «عجبًا للرَّحِم... اتركوه!».

وقام عبيد الله بن زياد في مسجد الكوفة فوقف على منبره، وقال: «الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية، وقتل الكذاب بن الكذاب الحسين بن علي وشيعته!»، فهب رجل ضرير يصيح به: «يا بن مرجانة! الكذاب بن الكذاب هو أنت وأبوك والذي ولاك وأبوه! أتقتلون أبناء النبيين وتقولون أقوال الصدّيقين؟!».

فأمر به ابن زياد فقُتِل وصُلِب.

■ ■ ■

وأرسل ابن زياد آل بيت الحسين ورأس هذا الأخير إلى سيده يزيد بن معاوية في دمشق، وسبق الركب الحزين رسول يحمل «البشرى» بالنصر للخليفة.

فلما بلغ الرسول قصر يزيد دخل عليه وهو يقول متهللاً: «أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره، ورد علينا الحسين بن علي فسرنا إليهم وسألناهم أن يستسلموا أو القتال، فاختاروا القتال، فوالله

يا أمير المؤمنين ما كان إلا نومة قائل حتى أتينا على آخرهم، فهذه أجسادهم مجردة وثيابهم مرملة وخدودهم معفرة، تصرهم الشمس وتسفي عليهم الرياح!».

كأنما صُعِق يزيد فبقي لحظات مذهولاً ثم اغرورقت عيناه بالدموع، وقال: «قد كنت أرضى من طاعتكم دون قتل الحسين!». وصرف الرسول دون أن يكافئه على «بشارته».

فلما بلغ الركب وفيه بقية آل البيت باب يزيد صاح الجندي المرافق لهم -وكان اسمه محفزًا- «هذا محفز بن ثعلبة أتى أمير المؤمنين باللئام الفجرة!»، فرد يزيد: «ما ولدت أم محفز شرًّا وألأم!».

ثم دخل أهل البيت على يزيد، شاب ثلاثيني وسيم الملامح رقيقها، وقد أحاط به أشراف الشام والبيت الأموي، فلما وُضِعَ رأس الحسين بين يديه، قال: «أما والله يا حسين، لو أنا صاحبك ما قتلتك!»، ثم التفت إلى علي بن الحسين، وقال: «يا علي، أبوك الذي قطع رحمي، ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما رأيت»، فأجابه علي مقتبسًا من القرآن: «ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها»، فرد يزيد مقتبسًا بدوره: «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير».

ثم قال لمن حوله مردفًا: «أتدرون من أين أتي هذا؟ قال: أبي -يعني عليًّا- خير من أبيه -يعني معاوية- وفاطمة خير من أمه، وجدي رسول الله خير من جده، فأما قوله أبوه خير من أبي، فقد حاج أبي أباه وعلم الناس لأيهما حُكِم، وأما قوله أمي خير من أمه، فلعمري فاطمة بنت رسول الله خير من أمي، وأما قوله جدي خير من جده، فلعمري

ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا ندًّا، ولكنه إنما أُتيَ من قبل فقهه، ولم يقرأ: قل اللهم مالك المُلك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير».

ونظر إلى نساء بيت الحسين وبقية أهله وقد تشعثت مناظرهم وتهدلت ثيابهم، فقال: «قبّح الله ابن مرجانة، لو كانت بينه وبينكم رحم أو قرابة ما فعل بكم هذا ولا بعث بكم هكذا».

وقام رجل من أهل الشام إلى يزيد قائلاً وهو يشير إلى فاطمة بنت علي بن أبي طالب: «يا أمير المؤمنين، هب لي هذه!».

فهبت أختها السيدة زينب تصيح به: «كذبت والله! ما ذلك لك ولا له!»، فهب يزيد بدوره غاضبًا يجيبها وقد تملكته كبرياؤه الشهيرة: «كذبت والله! إن ذلك لي ولو شئت لفعلته!»، فجابهته متحدية: «كلا والله، وما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج عن ملتنا وتدين بغير ديننا!»، فصرخ يزيد: «إنما خرج من الدين أبوك وأخوك!».

فتقدمت منه مصوبة نيران عينيها نحو عينيه، وقالت من بين أسنانها ببطء: «بدين الله، ودين أخي، ودين أبي وجدي اهتديت أنت وأبوك وجدك!»، فارتج على يزيد وقال بصوت مهزوز: «كذبت يا عدوة الله!»، فألقت عليه نظرة ازدراء، وهي تقول: «أنت أمير مسلط، تشتم ظالمًا وتقهر بسلطانك». فارتعد يزيد وسال عرق خجله وتراجع صامتًا.

وبقي يزيد صامتًا حينًا من الوقت، ثم أمر بإسكان آل بيت الحسين في بيته وإصلاح شأنهن وأن يُعوضن ما سلب من حليهن وماهن

وثيابهن، وأدخلهن على نسائه وأمر نساء بيته أن يُقِمن الحداد ثلاثة أيام على الحسين، فأقمن النواح عليه، ثم شرع في تجهيز آل الحسين للمسير إلى المدينة.

وصار يزيد يتلطف إلى علي بن الحسين ويجلسه معه حين يوضع طعامه، ثم إذا حان موعد رحيلهم ضم عليًا إليه وقال: «لعن الله ابن مرجانة، أما والله لو أني صاحب أبيك ما سألني شيئًا إلا أعطيته له، ولدفعت الحتف عنه ولو بهلاك بعض ولدي، ولكن قضى الله ما رأيت. كاتبني يا بني بأي حاجة تكون لك».

ثم تحرك الركب إلى المدينة المنورة التي قد سبق إليها الخبر، فعمها الحزن والحداد.

وخرج أهل المدينة يستقبلون آل البيت المكلومين، وخرجت ابنة لعقيل بن أبي طالب في شوارع المدينة وسط مظاهرة حداد أثقلها الألم وهي تنوح: «ماذا تقولون إن قال النبي لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأممِ بأهل بيتي وأنصاري ومحرمتي، منهم أسارى وقتلى ضرجوا بدمِ. ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم أن تخلفوني في سوء في ذوي رحمي».

▪ ▪ ▪

وفي المدينة، عاش آل الحسين أيامًا جثم على صدورها الألم. انهمك علي بن الحسين في العبادة والتفقه في الدين حتى عُرفَ بـ«علي السَجّاد» و«علي زين العابدين».

وأما السيدة زينب أخت الحسين فلم يطب لها المقام في المدينة،

فرحلت إلى مصر حيث قضت باقي أيامها حتى انقضى عمرها ودُفنت هناك.

■ ■ ■

أشعل مقتل الحسين ندم شيعته الذين خذلوه، فهبوا بعد نحو ٤ سنوات من موقعة كربلاء بقيادة رجل يدعى سليمان بن صرد في حركة سموها «التوابين»، فزاروا كربلاء ـالتي صارت منذ ذلك اليوم مزارًا لشيعة آل البيتـ ثم هبوا يحاربون بني أمية، إلا أن سوء تجهيز هؤلاء الثائرين وضعفهم وقلة عددهم أدى بهم إلى الفناء بسيوف جيوش الأمويين.

ومن ثقيف خرج رجل انتهازي هو المختار بن عبيد الله، ادّعى الثورة نصرةً لآل البيت وأنه وكيل عنهم ـرغم أنهم لم يؤيدوا حركتهـ فاستطاع أن يحتل الكوفة، وأن يقيم لنفسه فيها دولة مختصرة لم تعمر حينًا يسيرًا حتى انهارت، بين مطرقة الأمويين وسندان جند عبد الله بن الزبير الذي تمرد بمكة والحجاز، وقُتِلَ المختار ولكن بعد أن كان قد تمكن من قتل الثلاثي القائم بمقتلة آل البيت: عبيد الله بن زياد، شمر بن ذي الجوشن، وعمر بن سعد بن أبي وقاص.

وتحولت «واقعة كربلاء» إلى نقطة محورية في التاريخ الإسلامي، تحول معها التشيع «السياسي» لآل البيت النبوي إلى تشيع ديني، فظهر المذهب «الشيعي» وتفرع عبر القرون إلى اثني عشرية وإسماعيلية وغيرها من الفرق.

وأصبحت ذكرى كربلاء ـالعاشر من شهر المحرمـ ذكرى دينية شيعية، يزور فيها معتنقو المذهب الشيعي كربلاء ـفيقال لمن زارها

منهم «كربلائي»- ويقيمون في مدنهم وأحيائهم بكائيات ذكر الواقعة ومواكب اللطميات عليها.

على أي حال، فإن الواقعة -مع تحييد التناول المذهبي لها- قد صارت من أهم وأخطر موضوعات التاريخ الإسلامي وأكثرها حساسية وثراءً.

■ ■ ■

السؤال الذي يطرحه الكثيرون: ما هو تقييم خروج الحسين على يزيد واستجابته لمراسلات الكوفيين؟

يقول رأي: إنه كان محقًّا في موقفه، فلم يكن لابن بنت رسول المسلمين أن يسكت على تحويل الخلافة من اختيار بالشورى والرضا، لُملك «هرقلي وكسروي»، فالفعل صائب بصرف النظر عن النتائج.

ويقول رأي غيره: إنه كان مخطئًا، فلم يكن من الحكمة أن يخرج بأهله وأنصاره القليلين ليواجه دولة بجيشها وولاتها وبيوت أموالها، ويمثل هذا الموقف المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون. ويضيف البعض أن لخطأ موقفه بُعدًا دينيًّا في كونه قد خرج على حاكم قد بايعه المسلمون، بصرف النظر عن كون هذه البيعة قد تمت عن رضا أو نتيجة إكراه، وهو ما يقوله ضمنيًّا القاضي أبو بكر بن العربي في كتابه «العواصم من القواصم»، حتى ليكاد يقول إن الحسين قد قُتِلَ «بشرع جده الرسول».

الواقع أن على من يقيّم موقفًا تاريخيًّا ما، أن يضع نفسه في ذات مكان صاحب ذلك الموقف، وأن يدرس ظروف وملابسات الأحداث؛ ليتمكن من تقييم الموقف بموضوعية علمية، خالية من

[تيـ]ارات التوجهات والأهواء الشخصية.

[و]بتأمل موقف الحسين، نجد أن مواجهته مع بني أمية كانت مسألة [و]قت لا أكثر، لماذا؟

أولاً: لأن بمجرد إعلان وفاة معاوية بن أبي سفيان، قام يزيد بن معاوية بحثّ واليه على المدينة بأخذ البيعة من رجالاتها، طوعًا أو كرهًا، وعلى رأسهم الحسين، بالتالي فإن هذا الأخير الذي لم يكن [لـ]يقبل بإعطاء بيعته ليزيد، كان خصمًا صريحًا للأمويين، فهو قد أعلن صراحةً عدم قبوله تسليم أخيه الحسن الخلافة لمعاوية -بعد وفاة أبيهما علي بن أبي طالب بستة أشهر- ولكنه بعد ذلك قبل على مضض، والتزم العهد ولم يخرج عنه، ولكنه ربط التزامه بحياة معاوية، فإذا مات هذا الأخير تحرر من عهده.

ثانيًا: لأن مجرد قيام رؤوس الكوفيين بمراسلة الحسين ودعوته بشكل صريح للقدوم عليهم للقيام بالأمر، يمثل تهديدًا صريحًا لملك بني أمية، حتى لو لم يكن الحسين قد استجاب لتلك الدعوات، فمجرد وجود «منافس محتمل» للأمويين يجعل من هذا المنافس هدفًا لبطشهم، خاصة أن هذا المنافس -الحسين- كان ممن رفضوا إعطاءهم بيعته.

ثالثًا: فإنه بعد خروج الحسين من مكة وتوجهه للعراق، ثم علمه بخذلان شيعته له، لم يكن له من مرجع عن مسيره، فسهم المعركة قد انطلق منذ أجاب الحسين رسائل أهل الكوفة، حتى لو رجع -فرضًا- بعد ذلك عن التوجه إليهم. فالفعل المصنف أمويًا باعتباره «خروجًا على حكمهم» قد وقع، ولا يغير من الأمر رجوع الفاعل عنه، بالنسبة

إلى طريقة تفكير الأمويين وتعاملهم مع أي تهديدات لملكهم بطريقة «من ليس معي فهو ضدي».

رابعًا: فإن مجرد قيام والي بني أمية على الكوفة -ابن زياد- بقتل مسلم بن عقيل بن أبي طالب، قد أنشأ ثأرًا بين بني هاشم وبني أمية، وما دام الحسين هو رأس البيت الهاشمي -آنذاك- فلم يكن له وفق تقاليد وضوابط هذا العصر أن يتخاذل عن طلب ثأر ابن عمه، خاصة وقد أعلن بنو عقيل أنهم لن يرجعوا عن ثأر أخيهم المقتول، فلم يكن للحسين أن يتخاذل عنهم.

أخيرًا، فإن مأساة كربلاء -على عظم خطورتها- لم تكن سوى حلقة في صراع مرير بين الأمويين والهاشميين، ترجع بدايته لما قبل الإسلام بما يزيد على قرن من الزمان. قصة هذا الصراع تبدأ -على عادة روايات الإخباريين- بـ«أسطورة» عن أن عبد مناف -جد كل من العشيرتين الأموية والهاشمية- قد وُلِدَ له ابنان توأمان، هما «عمرو» و«عبد شمس»، وكانت رجل أحدهما ملتصقة بجبهة الآخر، فلما فصلوهما بالجراحة وسال الدم، قال بعض الحاضرين «ستكون بين أبنائهما دماء»، وهي -إن صحّت الرواية- محاولة لاختراق حجب الغيب، أطلقت سهمها لتحمله رياح المصادفة إلى كبد الحقيقة. وشب كل من عمرو -الذي حمل اسم «هاشم» لتهشيمه الخبز في الثريد لضيافة الحجاج- وأخيه عبد شمس، وارتفع شأن هاشم حتى أثار حسد أمية -ابن أخيه- فدعاه للمنافرة عند بعض كهان العرب، والمنافرة هي التحاكُم للكاهن ليقضي أيهما أعظم شرفًا، فلما دخلا على الكاهن لم ينتظر أن يسمع منهما وبادرهما قائلاً: «والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، لقد سبق هاشم

أمية إلى المآثر»، فكان على الخاسر أن يجلو عن مكة عشر سنين، فتوجه أمية إلى الشام حيث بدأ عقد الروابط بين الأمويين والشاميين الذين دعموهم بكل قوتهم خلال صراعهم مع بني هاشم، وحتى سقوط الدولة الأموية.

وأُنجِبَ لهاشم «عبد المطلب» الذي أُنجِبَ له «أبو طالب»، بينما توالى نسل أمية من ابنه حرب وحفيده أبي سفيان بن حرب، وورث الأبناء صراعات الآباء.

وهكذا استمر صراع البيتين طوال تلك العقود حتى انتهى بسقوط دولة الأمويين على يد العباسيين.

وعودة لمسألة خروج الحسين على يزيد، فإن المتأمل في تصرفات الحسين يدرك أنه كان يعلم جيدًا ما الذي يفعله، فهو حين علم بخذلان أهل الكوفة له، قد أوقع الأمويين في فخ محكم، فبتخييره لهم بين تركه يرجع من حيث أتى، أو أن يتوجه للثغور للجهاد، أو أن يتفاوض مباشرة مع يزيد بن معاوية، ثم إصرار ولاتهم على قتاله وقتله، قد تسبب في «فضيحة تاريخية» لهم، تعاظمت آثارها بعد ذلك، فسببت لهم -طوال تسعين عامًا من حكمهم- ثورات واضطرابات وعدم استقرار، تعاظمت حتى ساهمت في إسقاط دولتهم، وانتزعت منهم «الحصانة الدينية» التي طالما بذلوا الجهد لإكساب حكمهم إياها.

أي أنه حين علم بكونه مقتولاً في كل الأحوال، قد تصرف بشكل يهدم المعبد على رؤوس أعدائه، ويجعل لدمه ثمنًا باهظًا، وهو ما كان. الأمر الذي ينم عن بعد نظر شديد.

الخطأ الوحيد الذي ارتكبه الحسين بن علي -من وجهة نظري- هو أنه لم يكتف بالخروج بنفسه وأنصاره، وإنما صحب آل بيته، وهو ما أدركه حين تذكر نصيحة عبد الله بن عباس له ألا يخرج بهم فيُقتَل كما قُتِلَ عثمان بن عفان، ونساؤه وأولاده ينظرون، تحديدًا عندما ناحت وبكت عليه أخته السيدة زينب في الموقف سالف الذكر، فقال الحسين: «لا أبعد الله ابن عباس»، إذ أدرك حكمة نصيحته التي لم يأخذ بها.

■ ■ ■

السؤال التالي الذي يطرح نفسه: ما مدى مسؤولية يزيد بن معاوية عن هذه المأساة؟

فيزيد قد أبدى حزنه لما جرى واستنكاره لما كان من ابن زياد، ولطالما ردد «قبح الله ابن مرجانة»، وأحسن إلى آل الحسين ولا سيما ابنه علي «زين العابدين».

الواقع أن هذا لا ينفي مسؤولية يزيد.

فمن ناحية -بديهية- هو «رسميًّا» أمير المؤمنين وخليفة المسلمين، بالتالي فإن كل ما يجري تحت إمرته وفي خلافته هو مسؤول عنه.

ومن ناحية ثانية، فإذا كان «قبح الله ابن مرجانة» فمن الذي ولّى ابن مرجانة هذا؟ أليس يزيد؟ بالمناسبة، فإن يزيد كان يبغض ابن زياد لأن أباه -زياد بن أبيه- كان ممن عارضوا توريث معاوية الحكم لابنه، ورغم ذلك فإنه -يزيد- لم يتردد في تولية عبيد الله بن زياد على الكوفة، بل وكان بعثه للكوفة أساسًا بغرض «قمع شيعة الحسين»، كما أنه فوض إليه في ذلك صلاحيات مطلقة، أفبعد ذلك يقول «قبح

الله ابن مرجانة»؟ وإن قيل «لم يكن فعل ابن زياد عن علم أو أمر من يزيد»، فهذا عذر أقبح من ذنب، فهو يعني إذًا أنه كان خليفة «الموبة»، يفعل ولاته ما يريدون دون أمر أو توجيه أو رضا منه. فضلاً عن أنه بعد أن «قبّح الله ابن مرجانة» لم يتخذ أي إجراء مع هذا الأخير، بل أقره على ولاته؛ ما يعني رضاه ضمنيًّا عن «أدائه».

جدير بالذكر أن معاوية قبل أن يموت كان قد كتب لابنه وصية يشدد فيها له على أنه إذا خرج عليه الحسين وظفر به فليعفُ عنه، «فإن له رحمًا ماسة»، وأن احقن دماء قريش ما استطعت»، وهو لم يبذل أدنى جهد في سبيل تنفيذ وصية أبيه، فإن كان يزيد قد قال بعد مقتل الحسين «قد كنت أرضى بطاعتكم بغير قتل الحسين»، فلماذا لم يأمر بهذا قبل المأساة واكتفى بالإعلان عنه بعدها، كأنما كان يريد أن يشيح بوجهه عمّا يفعل واليه ابن زياد، حتى إذا ما وقعت الواقعة غسل يزيد يديه من فعل رجاله؟

■ ■ ■

ثمة سؤال آخر يطرحه قارئ تفاصيل المأساة: كيف واتت ولاة يزيد الجرأة على ارتكاب هذه الفعلة الشنيعة بحق آل بيت نبي الدين الذي يعتنقونه؟ كيف يمكن لرجل أن يقول في صلاته «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد» ولم تجف دماء آل محمد عن سيفه بعد؟

إجابة هذا السؤال هي كلمة واحدة: التطرف!

أجل، فقد كانت الفكرة المسيطرة على الأمويين ورجالهم هي أن الحكم هو «منحة إلهية»، و«حكم إلهي في القضية بين علي بن أبي طالب وأبنائه من ناحية، ومعاوية وأبنائه من ناحية أخرى»، ومن يتحدى

هذا الحكم الإلهي هو «مارق من الدين» بل و«كافر». يبدو هذا جليًا في قول يزيد بعد مقتل الحسين إن هذا الأخير «إنما أُتِيَ من فقهه إذ لم يقرأ قل اللهم مالك المُلك» إلى آخر الآية، وكذلك في قول رجال ابن زياد لجنودهم: «لا ترتابوا في قتل من مرق من الدين وخالف الإمام».

كذلك فإن نظرتهم إلى الحسين لم تكن مثل نظرة باقي المسلمين أنه «ابن بنت رسول الله»، بما لذلك من حرمة وتبجيل، بقدر ما كانت أنه «ابن علي بن أبي طالب»، فهو في نظرهم «الكذاب بن الكذاب»، كما صاحوا في وجهه خلال موقعة كربلاء.

يجدر بي أيضًا أن أشير إلى الملاحظة المهمة التي ضمّنها المفكر عباس محمود العقاد كتابه الهامّ «الحسين أبو الشهداء»، أن ثمة اختلافًا بين عهدي كل من معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد، في أن الأول كان يحيط نفسه برجال دهاة يجيدون تدبير أمور الدولة دون سفك الدماء، بينما أحاط يزيد نفسه برجال دمويين أو كما يمكن أن أصفهم يتميزون بـ«الغشومية»، مسارعين إلى التعامل مع الأمور بالقتل والبطش. فانتهى زمن «دهاة العرب» أمثال معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، وجاء زمان غشمائهم أمثال يزيد بن معاوية وعبيد الله بن زياد وشِمر بن ذي الجوشن.

أخيرًا فإن الحسين قد مثّل لرجال يزيد «عقبة» تقف بينهم من ناحية، و«حرمة آل البيت» من ناحية أخرى، فبتحطيم تلك العقبة تتهاوى أي حصانة لأي متمرد مستقبلاً من آل البيت، فقط كان الأمر يحتاج إلى «قرار جريء وفعل شجاع» -من وجهة نظرهم- يحطم هذه الحصانة وينسف تلك الحرمة إلى الأبد، وهو ما كان كما يبدو من تاريخ

تعامل الأمويين مع ثورات بعض آل البيت بعد ذلك. وجدير بالذكر أن ذلك «الاجتراء» كان قد صدر عن أناس هم أولاً ليسوا من جيل الصحابة الذين يحتفظون بالتعظيم والاحترام لآل بيت نبيهم، وثانيًا لم يكونوا من قريش فيراعوا صلات الدم والرَّحِم وعصبة القبيلة، بل لعلهم كانوا من الناقمين على قريش تسيّدها على العرب، فلما واتتهم الفرصة لتوجيه ضربة انتقامية لأكثر بيوت قريش حرمة لم يترددوا في ذلك، وهوّ ما يفسر حالة التعطش لدم الحسين وآله وإعمال القتل فيهم بغير تمييز بين رجل وطفل، وتعمُّد إهانة نسائهم في «موكب النصر»؛ أي أن بني أمية قد استطاعوا توجيه حالة الحقد على قريش لاتجاه يجعلهم في مأمن منها من ناحية، ويحقق أغراضهم التنافسية من ناحية أخرى، وهو فعل ينطوي على مزيج من الانتهازية من ناحية، و«خيانة الروابط القبلية» من ناحية أخرى.

والواقع أن الصفحات تضيق عن الاستفاضة في تحليل واقعة كربلاء ومواقف أطرافها، فنكتفي إذًا بهذا القدر منه، ونحيل القارئ إلى المراجع والمصادر ليستزيد منها في هذا الشأن.

مصادر:

١- البداية والنهاية: ابن كثير
٢- تاريخ الأمم والملوك: الطبري
٣- الكامل في التاريخ: ابن الأثير
٤- مروج الذهب ومعادن الجوهر: المسعودي
٥- تاريخ الخلفاء: السيوطي
٦- العبر وديوان المبتدأ والخبر: ابن خلدون
٧- تاريخ الدولة الأموية: أ. د. محمد سهيل طقوش
٨- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد علي
٩- الحسين أبو الشهداء: عباس محمود العقاد
١٠- الطغاة والبغاة: د. جمال بدوي
١١- العواصم من القواصم: أبو بكر بن العربي
١٢- أهل البيت في مصر: مجموعة باحثين
١٣- سيدات بيت النبوة: د. عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ»
١٤- تاريخ العرب قبل الإسلام: أ. د. محمد سهيل طقوش
١٥- تاريخ الخلفاء الراشدين: أ. د. محمد سهيل طقوش
١٦- مقاتل الطالبيين: أبو الفرج الأصفهاني

ملاحظة: أرجو من القارئ أن يراجع الفصول؛ الثالث والرابع والخامس، من كتابي «دم الخلفاء».

II

دمــاء في مدينــة الرســول



المدينة المنوّرة، ٦٢ هـ/ ٦٨٢م

احتشد رؤوس أهـل المدينـة وقد اشرأبت أعناقهم، وتحلقت أعينهم حول عبد اللـه بن حنظلة يترقبون قوله.

دار الصحابي بعينين حادتين يجول في وجوه الناس، يستوثق من اكتمال جمع من دعاهم لأجل الأمـر الخطيـر الذي أزمعه منذ غادر دمشق، بعد اجتماعه بالخليفة يزيد بن معاوية.

فمنذ بلغ خبر موقعة كربلاء مدينة الرسول محمد، وأهلها في إرجاف بشأن يزيد. «يزيد الفجور»، «يزيد الفاسق»، «يزيد القرود»، ألقاب أطلقها الناس على الخليفة الشاب الذي ثارت عليه الأرض، فهذا عبد اللـه بن الزبير قد أعلن تمرده بمكة وما حولها، وقد رفض عرض يزيد أن يتولى مكة والحجاز باسمه، والخوارج في اليمامة والبحرين والعراق قد صاروا صداعًا في رأس الأمويين وشوكة في جنوبهم، والآن المدينة تستعد بدورها للحاق بركب الثورة.

خلع يزيد ابن عمومته عمرو بن سعيد ـ المعروف بالأناة والحكمة ـ عن ولاية المدينة، وولاها الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، الذي سار في

أهلها سيرة البطش والقمع، فلما لم يؤت ذلك الثمار المرجوة، خلعه وعيّن مكانه عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وهو صبي صغير لم تعركه الأيام، فلم يكن له من الأمر شيء، فاختلت أوضاع البلد وتصاعد الغليان بين أهله.

فلم يجد المدنيون بدًّا من إرسال وفد عنهم إلى دمشق، ولم يجدوا كفؤًا لرئاسة هذا الوفد سوى الصحابي عبد الله بن الصحابي حنظلة الغسيل، ذلك الذي استشهد في غزوة أُحُد فقال الرسول محمد عنه إنه قد غسّلته الملائكة.

توجه عبد الله بن حنظلة وأصحابه إلى الخليفة فأكرمهم وأحسن وفادتهم ووعدهم خيرًا، إلا أن الركب العائد إلى المدينة كان يحمل أخبارًا لم تزد نار الثورة إلا حطبًا ينذر بتعاظمها.

▪ ▪ ▪

«إنا قد قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر ويعزف بالطنابير ويضرب عنده القيان ويلعب بالكلاب، ويسامر الخُرّاب والفتيان!».

بهذا جلجل صوت عبد الله بن حنظلة في الحشد المجتمع، فلما وجد الجباه تقطب مؤمنة على قوله، أضاف بنبرات بطيئة وهو يستقرئ أثر القول في وجوه القوم: «وإنا نشهدكم أنا قد خلعناه!».

تبادل الحضور نظرات قلقة لخطورة ما سمعوا، تشجع أحدهم فصاح بعبد الله: «قد علمنا أنه قد أكرم وفادتك!»، فتابعه آخر: «دفع إليك مئة ألف درهم ولكل من أبنائك الثمانية عشرة آلاف سوى نفقة السفر والخدمة».

ابتسم عبد الله موافقًا ثم أشار إلى رجل يقف غير بعيد عنه، فقدم هذا ـالمنذر بن الزبيرـ وقال: «إن يزيد والله لقد أجازني بمئة ألف درهم، وإنه لا يمنعني ما صنع أن أخبركم خبره. والله إنه ليشرب الخمر، وإنه ليسكر حتى يدع الصلاة!».

التقط عبد الله بن حنظلة طرف الحديث، فقال: «قد أجازنا جميعًا بما ذكرتم، وما أخذت منه إلا لأستقوي على قتاله، ولو لم أجد سوى أبنائي هؤلاء الثمانية لقاتلته بهم!».

■ ■ ■

سرعان ما عمل قول ابن حنظلة ومن معه عمله في أهل المدينة، فصار حديثًا تتناقله البيوت ومجالس الرجال، وأسفر العصيان عن وجهه.

كانت أخبار ذلك الاجتماع قد بلغت دمشق، فدعا يزيد الصحابي النعمان بن بشير الأنصاري ـوكان أخا عبد الله بن حنظلة من أمهـ وقال له: «ائت الناس وقومك فأرجعهم عمّا يريدون، فإنهم إن لم ينهضوا في هذا الأمر لم يجترئ الناس على خلافي، وبها من عشيرتي من لا أحب أن ينهض في هذه الفتنة فيهلك».

فتوجه النعمان من فوره إلى المدينة، فجمع القوم وقام خطيبًا فيهم، فدعاهم إلى الطاعة وملازمة الجماعة وخوّفهم الفتنة.

فقام له أحد رؤوس القوم ـعبد الله بن مطيعـ فصاح به بلهجة اتهام: «ما يحملك يا نعمان على تفريق جماعتنا، وفساد ما أصلح الله من أمرنا؟!».

فرمقه النعمان بغيظ وأجابه متحديًا: «أما والله لكأني بك لو نزلت

تلك التي تدعو إليها وقامت الرجال على الركب تضرب مفارق القوم وجباههم بالسيوف، ودارت رحا الموت بين الفريقين، قد هربت على بغلتك تضرب جنبيها إلى مكة، وقد خلّفت هؤلاء المساكين يُقتَلون في سككهم ومساجدهم وعلى أبواب دورهم».

فارتفعت الأصوات وزاد اللغط حتى غطى على صوت النعمان ومن وافقه، وتسيّدت أصوات عبد الله بن حنظلة وأصحابه من الثائرين حتى لم تعد تجد ردًّا عليها.

وأعلن المدنيون بيعتهم لعبد الله بن حنظلة الغسيل واليًا عليهم.

■ ■ ■

المدينة، ٦٣هـ/ ٦٨٣م

هبت المدينة هبة رجل واحد، فتقاربت رؤوس القوم ثم تباعدت وقد اتفقت كلمتهم على حصر من يقيم بها من بني أمية ومواليهم ومن وافق رأيهم، فداهموهم وحاصروهم حتى اعتصموا في دار مروان بن الحكم تحت حصار الثائرين، وقد بلغ عدد المحاصَرين نحوًا من ألف رجل على رأسهم مروان وابنه عبد الملك وعمرو بن عثمان بن عفان، بينما راح عثمان بن محمد بن أبي سفيان ـ الوالي المخلوع ـ يدور بعينين زائغتين بين وجوه عشيرته وقد أسقط في يده.

ورغم الحصار استطاع رجلان أن يتسللا من دار مروان تحت جنح الليل حتى بلغا «ثنية الوداع» ـ أحد مداخل المدينة ـ فرفع أحدهما لثامه قائلاً لصاحبه: «معك الكتاب، وتعرف ما تفعل»، فأجابه الرجل ـ حبيب بن كرة ـ «أجل».

فقال محدثه الذي لم يكن سوى عبد الملك بن مروان بن الحكم: «قد أجلتك اثنتي عشـرة ليـلة ذاهبًا ومثلها راجعًا، فوافني لأربع وعشرين ليلة تجدني في هذا المكان جالسًا أنتظرك، إن شاء اللـه».

فقام حبيب إلى راحلته فامتطاها، وراح يضرب كبدها إلى دمشق، وعبد الملك يرقبه حتى ابتلع الليل الرسول حاملاً الاستغاثة إلى الخليفة.

■ ■ ■

«باسم اللـه الرحمن الرحيم. أما بعـد، فإنه قد حُوصِرنا في دار مروان بن الحكم، ومُنعنا الماء، ورمينا بالجبوب، فيا غوثاه يا غوثاه».

قرأ يزيد بن معاوية الكتاب للمرة العاشرة ثم طواه وهو يعدل قدميه في طسـت ماء يتبرد به من ألم النقرس، وتمتم من بين أسنانه شاردًا: «لقد بدّلوا الحلم الذي من سجيتـي، فبدلتُ قومي غلظة بليان».

ثم رفع عينيه لحبيب بن كرة سائلاً: «أما يكون بني أمية ومواليهم ألف رجل بالمدينة؟».

فأجابه حبيب: «بلى واللـه وأكثر».

فطوح يزيد الكتاب صائحًا بغيظ: «فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار؟!».

بقي حبيب صامتًا ثم قال وهو يتحسس مواقـع قوله: «يا أميـر المؤمنين، أجمع الناس كلهم عليهم، فلم يكن لهم بجمعهم طاقة».

التزم يزيد الصمت حينًا، ثم بعث يطلب عمرو بن سعيد واليه الأسبق على المدينة، فلما حضر أعطاه الكتاب. قرأ عمرو كتاب بني أمية ثم رفع عينيه إلى خليفته متسائلاً، فقال له هذا: «اجمع الناس فسر إليهم».

فتنحنح عمرو بن سعيد ثم قال بأناة: «لم يعزلني أمير المؤمنين عنها إلا وقد ضبطت له البلاد، وأحكمت له الأمر»، اعتدل في مجلسه وأضاف: «أما الآن إذ صارت، إنما هي دماء قريش تراق، فلا أحب أن أتولى أنا ذلك».

أدرك يزيد إصرار ابن سعيد على عدم المسير، فشرد ببصره قليلاً وهو يتشاغل بتدليك قدميه.

أخيرًا رفع رأسه وخرج من شروده وهو يقول بصوت حمل بارقة أمل: «إليّ بمسلم بن عقبة!».

■ ■ ■

ليس لها سوى مسلم بن عقبة، هكذا دار في رأس يزيد بن معاوية.

ومسلم بن عقبة المُرّي لم يكن بالفارس القوي الشاب، بل على العكس من ذلك، كان شيخًا مريضًا لا يقوى على الحركة، حتى إنه إذا أراد التنقل حُمِلَ على كرسيّ.

إلا أنه كان جلفًا غليظًا، فيه قسوة وبذاءة ومسارعة للبطش، وفوق ذلك هو معروف ببغضه لقريش؛ فهو إذًا الرجل المناسب للمهمة القاسية: قمع أهل المدينة.

مثل مسلم بين يديّ يزيد، فأقرأه كتاب بني أمية، فالتفت مسلم

إلى حبيب بن كرة وسأله: «ألا يكونون ألفًا؟»، فأجابه كما سبق أن أجاب يزيد: «بلى وأكثر».

لوى ابن عقبة شفتيه بازدراء وقال كأنما يبصق: «فما استطاعوا أن يحاربوا عدوهم ساعة من نهار؟»، ثم توجه إلى يزيد فأردف: «يا أمير المؤمنين، لا تنصر هؤلاء فإنهم الأذلاء! أما استطاعوا أن يقاتلوا يومًا واحدًا أو شطره أو ساعة منه؟»، ثم أشاح بيده مستطردًا باشمئزاز: «دعهم يا أمير المؤمنين حتى يجهدوا أنفسهم في قتال عدوهم وعز سلطانهم، حتى يتبين لك من يقاتل منهم على طاعتك ويصبر عليها أو يستسلم!».

زفر يزيد بسخط وأجابه: «ويحك! لا خير في العيش بعدهم!».

فأطرق مسلم بن عقبة وقد أخفى ابتسامة ازدراء اعتملت في نفسه، ثم أجاب خليفته بالطاعة لأمره.

▪ ▪ ▪

دار المنادون في أهل الشام أن «سيروا إلى الحجاز على أخذ أعطيتكم ومعونة مئة دينار توضع في يد الرجل منكم لساعته».

فانتُدب من أهل الشام اثنا عشر ألفًا للخروج.

وأراد يزيد أن يوقع عدوه بين فكي الأسد، فأرسل إلى واليه على الكوفة عبد الله بن زياد أن اجمع جيشك، فاغز عبد الله بن الزبير في مكة.

يريد أن تكون ضربته لأهل الحجاز ضربة واحدة متزامنة.

فلما بلغ الكتاب ابن زياد ألقاه جانبًا، وتمتم بسخط: «لا أجمعهما

للفاسق أبدًا. أقتل ابن بنت رسول الله وأغزو الكعبة؟!»، وأرسل يعتذر للخليفة بانشغاله في ضبط البلاد.

فأمر يزيد قائده مسلم بن عقبة أن يخرج لقمع أهل المدينة، حتى إذا ما فرغ من أمرهم، توجه إلى مكة لمحاربة ابن الزبير، ولما كان مسلم رجلاً مريضًا واهنًا يسير حثيثًا إلى القبر، فقد أمر يزيد أن إذا أصاب مسلم بن عقبة شيئًا، فليخلفه الحصين بن نمير السكوني قائدًا على الجيش.

وحاول بعض العقلاء أن يرجعوا يزيد عمّا أزمع من البطش، فرجاه النعمان بن بشير قائلاً: «ولني عليهم أكفِك أمرهم»، فأجابه يزيد وقد احمرت عيناه غضبًا: «لا! ليس لهم إلا هذه الغشمة! والله لأقتلنهم بعد إحساني إليهم وعفوي عنهم مرة بعد مرة!»، فقال النعمان: «يا أمير المؤمنين، أنشدك الله في عشيرتك وفي أنصار رسول الله»، فلم يقبل منه.

وبذل عبد الله بن جعفر بن أبي طالب مساعيه حتى إذا وجد آذانًا صمّاء استيأس، فسأل يزيد: «فإذا رجعوا إلى طاعتك»، فأجابه: «إذا رجعوا إلى الطاعة فلا سبيل عليهم».

وصار يزيد يستعرض جنده وهو يقول: «أجمع سكران من القوم ترى؟ أم جمع يقظان نفى عنه الكرى؟ يا عجبا من ملحد، يا عجبا مخادع في الدين يقفو بالعرى!».

ثم أمر مسلم بن عقبة: «ادعُ القوم ثلاثًا، فإن هم أجابوك وإلا قاتلهم، فإذا ظهرت عليهم فأبح المدينة ثلاثًا، فما فيها من مال أو سلاح أو طعام أو دواب فهو للجند، فإذا مضت ثلاث فاكفف عن

الناس، وانظر علي بن الحسين، فاكفف عنه، واستوص به خيرًا، فإنه لم يدخل في شيء مما دخلوا فيه!».

وكان علي بن الحسين وكل بني عبد المطلب وبني عمر بن الخطاب، لم يدخلوا في الثورة على يزيد؛ ورأوا فيها شرًّا وحماقة منذرة بالويل.

في أثناء ذلك، كان حبيب بن كرة يشتد في المسير عائدًا إلى المدينة، مبشرًا بني أمية المحصورين بها أن قد جاءكم الفرج، فتصاعدت أصواتهم يحمدون الله وهم يتنفسون الصعداء.

■ ■ ■

وبلغ ثوار المدينة خبر تقدم جيش مسلم بن عقبة، فوثبوا يشددون حصارهم على الأمويين ومواليهم، وهم يقولون لهم: «والله لا نكف عنكم حتى نستنزلكم ونضرب أعناقكم! أو تعطونا عهد الله وميثاقه ألا تغدروا بنا ولا تدلوا عدونا على عورة لنا ولا تظاهروه علينا! فنكف عنكم ونخرجكم عنا».

فأعطاهم بنو أمية المواثيق المغلظة أنهم لا يغدرون بهم ولا يعينون عدوهم عليهم، فخلى أهل المدينة سبيل المحاصَرين، فتوجه بنو أمية إلى الشام حاملين نساءهم وأثقالهم.

وكلّم مروان بن الحكم عبد الله بن عمر أن يؤوي نساءه وحرمه فأبى ذلك، فكلّم عليّ بن الحسين فقبل ذلك وأرسل امرأة مروان مع ابنه عبد الله بن علي إلى الطائف.

والتقت فلول بني أمية بجيش مسلم بن عقبة في وادي القرى على طريق الشام، فاستقبلهم مسلم ودعا عمرو بن عثمان بن عفان، فقال له: «أخبرني عمن وراءك وأشر عليّ»، فأجابه عمرو: «لا أستطيع أن

أخبرك فقد أعطيناهم المواثيق»، فنهره ابن عقبة وسبه وهو يقول: «أما لولا أنك ابن عثمان لضربت عنقك! والله لا أقيل عثرة قرشي بعدها أبدًا!».

وأقبل عليه مروان بن الحكم وابنه عبد الملك، فقال مروان لابنه أن يتقدمه فيدخل أولاً على مسلم، فلما دخل عليه سأله مسلم المشورة، فقال عبد الملك: «أرى أن تسير فتأخذ هذا الطريق إلى المدينة، حتى إذا انتهيت إلى أدنى نخل بها، نزلت به، فتستظلون به وتأكلون من ثمره، ثم تبث الحرس في الليل، ثم إذا أصبحت تحركت فجعلت المدينة إلى يسارك حتى تدخلها من شرقها، فتشرق الشمس من وراء ظهرك فلا تؤذيك، وتشرق في وجوه عدوك فيؤذيهم حرها»، التقط أنفاسه ثم أضاف: «ثم قاتلهم واستعن بالله عليهم، فإن الله ناصرك، إذ خالفوا الإمام وخرجوا على الجماعة!»، فأثنى عليه مسلم وأكرمه وأكرم أباه.

وفعل مسلم بن عقبة ما أشار به عبد الملك بن مروان، فأشرف على المدينة من جهة تُدعَى «الحَرّة»، والحرّة هي الحجارة البركانية السوداء التي عُرِفَت بها المدينة.

■ ■ ■

في أثناء ذلك كان المدنيون منهمكين في تحصين مدينتهم، فجعلوا خندقًا في جانب من جوانبها جعلوا عليه جمعًا منهم، قاده عبد الرحمن بن زهير بن عوف، وقسموا مقاتليهم، فجعلوا عبد الله بن مطيع قائدًا على القرشيين من أهل المدينة، ومعقل بن سنان الأشجعي على المهاجرين، وعبد الله بن حنظلة على الأنصار.

وسكب أهل المدينة القطران في الآبار الواقعة على طريقهم؛ كي لا يستقي منها جيش يزيد، ولكن الأمطار هطلت فلم تفلح تلك الحيلة.

وعندما بلغ جيش مسلم بن عقبة الحرة أرسل إلى الثائرين يفاوضهم، فقال لهم: «يا أهل المدينة إن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية يزعم أنكم الأصل، وإني أكره إراقة دمائكم، وإني أؤجلكم ثلاثًا، فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه، وانصرفت عنكم، وسرت إلى ذلك الملحد الذي بمكة -يعني عبد الله بن الزبير- وإن أبيتم كنا قد أعذرنا إليكم!».

فلم يجيبوه.

فلما انقضت المهلة، بعث إليهم قائلاً: «يا أهل المدينة قد انقضت الأيام الثلاثة، فما تصنعون؟ أتسالمون أم تحاربون؟».

فأجابوه: «بل نحارب».

فأجابهم: «لا تفعلوا! بل ادخلوا في الطاعة ونجعل حدنا وشوكتنا على هذا الملحد الذي قد جمع إليه بمكة المراق والفساق من كل أوب!».

فردوا عليه: «يا أعداء الله! والله لو أردتم أن تجوزوا إليهم ما تركناكم حتى نقاتلكم! أنحن ندعكم أن تأتوا بيت الله الحرام وتخيفوا أهله وتلحدوا فيه وتستحلوا حرمته؟! والله لا نفعل!».

فلم يكن بد من القتال إذًا!

▪ ▪ ▪

ووجه مسلم بن عقبة خيله تداهم المدينة من جهة الحرة، فصمد لهم المقاتلون يقودهم عبد الله بن حنظلة. حتى ردوا فرسان بن عقبة على أعقابهم، فقام مسلم وصاح في رجاله يزجرهم ويتوعدهم، فارتدوا يشتدون في قتال ابن حنظلة ومن معه.

وأقبل الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، في عشرين فارسًا، يريد مداهمة معسكر مسلم بن عقبة ليقتله، ثم رجع إلى رفقائه فنادى فيهم أن احملوا معي على عدوكم فلأقتلنه أو أموت دونه.

فكانت هجمتهم كاسحة أزاحت فرسان الشام عن مواقعهم، حتى انتهى المهاجِمون إلى فسطاط ابن عقبة فوجدوه محاطًا بخمسمئة محارب، راكعين على ركبهم وقد رفعوا الرماح في وجوه الخيل. فالتحم الجمعان، واستطاع الفضل أن يشق ثغرة في دفاع الشاميين عن قائدهم، فوجد رجلاً يحمل راية يزيد فضربه بالسيف وقتله، وصاح: «قتلت طاغية القوم ورب الكعبة!».

وبينما هو يرفع سيفه المضرج بالدم متهللاً، صك صوت مسلم بن عقبة أذنيه يصيح به ساخرًا: «أخطأت إستك الحفرة! إنما هو غلام رومي لي!».

ورأى مسلم انكشاف جنده عنه فتحامل على نفسه وقام عن كرسيه منتزعًا الراية من جثة غلامه القتيل، وصار يلوح بها وهو يصرخ في رجاله: «يا أهل الشام! أهذا القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا عن دينهم وأن يعزوا به نصر إمامهم؟! قبّح الله قتالكم منذ اليوم! ما أوجعه لقلبي وأغيظه لنفسه!»، وتقدم موقفًا أحد الفارين صافعًا إياه على وجهه صارخًا بمن حوله: «أما والله ما جزاؤكم إلا

أن الزموا العطاء وترسَلوا إلى أقاصي الثغور!».

رأى أحد قادته ترنح جسده الهزيل، فحاول إعادته لمقعده فلكمه بالمل وهو يزيحه مشرفًا على جنوده رافعًا رايته: «شدّوا مع هذه الراية! ترّح الله وجوهكم إن لم تفعلوا!».

فاجتمعت فلول الفارين في هجمة كرّوا بها على الفضل بن عباس ومن معه حتى قتلوه وقتلوا أكثر رجاله، وما بينهم وبين مسلم بن عقبة إلا عشر أذرع.

ثم أمر مسلم بوضع سرير له بين صفوف جنده، فجلس عليه وصاح بهم: «قاتلوا عن أميركم أو دعوه!» فاشتعلت حماسة الجند فهبوا في هجمات على فرق جيش المدينة، فصاروا يردونها ويجبرونها على التقهقر.

فلما رأى ابن عقبة تقدم جنده وتراجع عدوه دعا بفرس، فتحامل على وجعه ووهن جسده وركبه وراح يجول بين صفوف الرجال صائحًا: «يا أهل الشام! إنكم لستم بأفضل العرب في أحسابها ولا أنسابها، ولا أكثرها عددًا، ولا أوسعها بلدًا، ولم يخصصكم الله بالذي خصكم به من النصر على عدوكم وحسن المنزلة عند أئمتكم، إلا بطاعتكم واستقامتكم! وإن هؤلاء القوم وأشباههم من العرب قد غيّروا فغيّر الله بهم! فتمّوا على أحسن ما كنتم عليه من الطاعة يتمم الله لكم أحسن ما ينيلكم من النصر!».

ثم أمر خيله أن تتقدم نحو فرقة عبد الله بن حنظلة من مقاتلي المدينة، فردهم هؤلاء الآخرون بضرب الرماح في وجوه الخيل، فصرخ بهم مسلم بن عقبة: «يا أهل الشام ما أولى بالأرض بكم»،

فنزلوا عن خيلهم وراحوا يقاتلون مترجلين كي يفقدوا عدوهم ميزة إفزاع الخيل.

وقام عبد الله بن حنظلة الغسيل يحرض أصحابه على الثبات، صائحًا: «يا هؤلاء، إن عدوكم قد أصابوا وجه القتال الذي كان يجب أن تقاتلوهم به! وإني قد ظننت ألا تلبثوا إلا ساعة حتى يفصل الله بينكم وبينهم! أما إنكم أهل البصيرة ودار الهجرة! والله ما أظن ربكم أصبح به أهل بلد من بلدان المسلمين بأرضى منه عنكم! ولا على أهل بلد من بلدان العرب بأسخط منه على هؤلاء!».

ثم اشتد في السير يتقدم الصفوف مضيفًا: «والله ما من ميتة بأفضل من ميتة الشهادة! وقد ساقها الله إليكم فاغتنموها!».

واشتد القتال وكلا القائدين يصيح برجاله ويثير فيهم الحمية، حتى إذا استحر القتل أشار مسلم بن عقبة إلى جنده المشاة بالتراجع، وأمر رماته فتقدم خمسمئة منهم فراحوا يطلقون وابلاً من السهام على عبد الله بن حنظلة ومن معه.

ورأى حنظلة رسل الموت تتخطف أصحابه، فرفع رايته عالية وصاح بهم: «من أراد الشهادة فليلزم هذه الراية»، ثم اندفع ومن معه يجتاحون من أمامهم صارخين وقد بايعوا الموت.

وأحاط جند ابن عقبة بابن حنظلة وجنوده، وتقدم أبناء عبد الله بن حنظلة الثمانية يقاتلون بين يديه، وصار يقول وهو يضرب عدوه بسيفه مستبسلاً: «بُعدًا لمن رام الفساد وطغى، وجانب الحق وآيات الهدى، لا يُبعِد الرحمن إلا من عصى».

ورأى عبد الله بنيه يسقطون واحدًا تلو الآخر فاندفع يضرب

بسيفه يمينًا ويسارًا وهو يزأر كأسـد جريح، فحمل عليه جمع من عدوه ونهشوه بسيوفهم حتى قُتِل، وقُتِلَ معه كل من أخيه لأمه الصحابي محمد بن ثابت بن قيس، والصحابي محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري.

وتهاوت قوة أهل المدينة بمقتل قائدهم عبد الله بن حنظلة، فبذل محمد بن سعد بن أبي وقاص محاولة يائسة للتصدي لجند مسلم بن عقبة، إلا أنّ هؤلاء الآخرين دهموه ومن معه بكثرتهم فأجبروهم على الفرار.

وتصاعدت صرخات النساء من بيوت المدينة تمتزج بتكبير تردده حناجر وحشية، فاستطلع المقاتلون الأمر ليفاجأوا بأن بني حارثة من أهل المدينة قد أدخلوا جيش الشام إليها من ناحيتهم، فحوصر المدافعون عن المدينة بين جانبي الجيش من أمامهم ومن ورائهم، وكانت الكارثة الكبرى عند الخندق الذي حفروه لتحصين مدينتهم؛ حيث حصر المتمركزون عنده بينه من ناحية وعدوهم المقتحم للمدينة من ناحية أخرى، فسقط منهم عدد كبير.

ودخل مسلم بن عقبة المدينة محمولاً على كرسيه صفوف تحوطه جنده المظفرين. وراح يلقي نظرات الشماتة على الوجوه الوجلة للمدنيين ثم أعلن إباحة المدينة المنهزمة التي أسماها «الخبيثة» لجنده ثلاثة أيام، فانطلق جند الشام يعيثون فيها فسادًا، وراحوا يجولون في سككها ومساجدها يقتلون من يجدونه من أنصارها ومهاجريها وأبنائهم ومواليهم، كما تنبأ بذلك النعمان بن بشير الأنصاري.

■ ■ ■

لم تشبع السيوف من مارة الشوارع فاجتيجت البيوت، تُكسَر أبوابها على أهلها وتُنهَب عن آخرها، ومن حاول أن يقاوم عبثًا كان السيف مصافحًا عنقه، واقتحم بعض الجند على امرأة بيتها ورضيعها على صدرها، فلما صاحت به انتـزع الرضيع فضرب برأسـه الحائط حتى تناثر دماغه.

ولم تراع حتى حرمة النساء، فقيل إن نحو ألف امرأة قد حملت من مغتصبها (وإن كان هذا القول غير مؤكد، ولكن ثمة انتهاكات وقعت بالفعل بحق النساء).

وقُتِلَ من أهل المدينة آلاف قيل إنهم عشرة آلاف، منهم سبعمئة من قراء القرآن المتفقهين فيه. وفي رواية أخرى أن قُتِلَ من الصحابة وأبنائهم سبعمئة ومن الموالي عشرة آلاف.

وروِّعَ الناس حتى هرب بعضهم من مدينتهم، ففر الصحابي جابر بن عبد الله، ولجأ الصحابي أبو سعيد الخدري إلى كهف فداهمه رجل من جند يزيد حاملاً سيفه، فلما أحجم الصحابي عن مقاتلته سأله: «من أنت؟»، فأجـاب: «أنا أبو سعيد الـخدري»، فقال: «صاحب رسول الله؟!»، ثم رجع عنه.

وسيق سعيد بن المسيب ـالملقب بسيد تابعي زمانهـ إلى ابن عقبة، فلما قال إنه يبايـع على كتـاب اللـه وسـنة نبيه، أمر بقتـله، لولا أن تدخل البعض وشهدوا أنه مجنون لينقذوه من القتل.

وسارعت امرأة من بني مرّة ـعشيرة مسلم بن عقبةـ تستغيث به، وتستجير، وتطلب أن يأمر جنده ألا يسلبوا إبلها ومالها، فضحك هازئًا، وقال: «بإبلها ومالها فابدأوا!»، واستجارت أخرى لابن لها

أسره ابن عقبة، فأمر به فضرب عنقه وأعطى أمه رأسه.

وقُتل ابنان لعبد الله بن جعفر بن عبد المطلب الذي كان يبذل قصارى جهده لمنع المأساة من الوقوع.

واستبيحت المدينة -حرفيًا- لجند جيش يزيد، يسلبون أموال أهلها ويسوقون دوابهم وينهبون طعامهم ويلعبون بالسيوف في أعناقهم وصدورهم.

وجلس مسلم بن عقبة يستقبل زعماء أهل المدينة؛ وقد جاءوا يطلبون الأمان لبلدهم ويعرضون البيعة ليزيد.

ودخل عليه رجلان من قريش يستأمنان، فقال لهما: «بايعا!».

فقالا: «نبايعك على كتاب الله وسنة نبيه».

فأجابهما: «لا أقبل منكما هذا أبدًا»، فأمر بضرب عنقيهما. فصاح به مروان بن الحكم: «سبحان الله، أتقتل رجلين من قريش أتياك يستأمناك؟!»، فضربه بعصا في يده، وقال له: «أنت إن قلت مقالتهما لقتلتك!».

وأتاه رجل قال له «أبايعك على سُنة عمر بن الخطاب»، فأمر ابن عقبة أن اقتلوه، فصاح الرجل «أنا أبايع»، فتضاحك مسلم بن عقبة وقال: «والله لا أقيل عثرتك! اقتلوه».

ولما اعترض مروان مجددًا أمر مسلم رجاله فضربوه.

ودخل عليه معقل بن سنان -أحد قادة الثائرين- فابتسم مسلم متهكمًا، -وكان معقل صديقًا له في السابق- وقال: «مرحبًا أبا محمد!»، ثم التفت إلى رجل بجواره قائلاً «اسقوه».

فلما ارتوى معقل مال مسلم عليه وقال من بين أسنانه: «أما وقد شربت لا تبولها أبدًا ولا تشرب بعدها إلا من حميم جهنم! أما ذكرت إذ لقيتني في طبرية يوم كذا، فقلت لي هلم إلى المدينة نخلع هذا الفاسق ونولِّ بعض أبناء المهاجرين؟!».

ثم أشار إلى بعض جنده قائلاً ببساطة: «اضربوا عنقه!».

وأشرف مسلم بن عقبة على كبار أهل المدينة فقال لهم: «لا أرفع عنكم السيف إلا أن تبايعوا على أنكم خولٌ (عبيد) لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية، يحكم بما شاء في دمائكم وأموالكم!».

وأتى مروان بن الحكم بعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب مستأمنًا له. فلما قُدِّمَ الماء لمروان، أعطاه لعلي ليستأمن به ـ وكان شرب ماء رجل يعني أخذ الأمان منه ـ فلما هم بالشرب صاح به مسلم: «لا تشرب من شرابنا»، ثم أردف: «لو كان هذا الأمر لي لقتلتك! لكن أمير المؤمنين أوصاني بك خيرًا»، ثم أعطاه الأمان.

وجيء لابن عقبة بعمرو بن عثمان بن عفان، فأشار مسلم إليه قائلاً لمن حوله: «يا أهل الشام، تعرفون من هذا؟ هذا الخبيث ابن الطيب! هذا عمرو بن عثمان بن عفان».

ثم أردف ناظرًا إلى عمرو بازدراء: «هيه يا عمرو! إذا ظهر أهل المدينة قلت أنا رجل منكم، وإذا ظهر أهل الشام قلت أنا ابن أمير المؤمنين؟!».

ثم أمر به فنُتِفَت لحيته وأهين وطُرِد.

■ ■ ■

وبعد أن احتفل «المنتصرون» وخضبوا سيوفهم بدماء أهل المدينة، أدرك الجيش متوجهًا إلى مكة لتنال نصيبها من طاعتهم خليفتهم.

وفي الطريق تزايدت وطأة المرض على مسلم بن عقبة الذي حمل من هذا اليوم لقب «مسرف بن عقبة»؛ لإسرافه في القتل.

ولما أدرك أنه يحتضر، استدعى الحصين بن نمير السكوني -ذلك الذي عينه يزيد خلفًا لمسلم إذا أصابه شيء- فلما دخل عليه نظر إليه بازدراء من بين أجفان تكاد تتهاوى، وكان يبغضه ويستصغر أمره.

بقي يتأمله بزراية ثم قال: «أقبل يا بن برذعة الحمار! إن أمير المؤمنين عهد إليّ إن حدث بي حدث الموت أن تخلفني، والله لو كان الأمر إليّ ما فعلت! ولكني أكره أن أعصى أمر أمير المؤمنين عند الموت!».

استجمع أنفاسه المتلاحقة، وتمتم: «اللهم إني لم أعمل عملاً قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، أحبّ إليّ من قتل أهل المدينة، ولا أرجى منه عندي في الآخرة».

وأردف: «لو عذبني الله بعد أن أطعت أمير المؤمنين إنني لشقيّ».

ثم أسبل جفنيه وسرعان ما توقف تردد أنفاسه.

■ ■ ■

بعد أن انتهوا من دفن مسلم بن عقبة، توجه الحصين وجنده إلى مكة فتمركزوا على مرتفعاتها وحاولوا إسقاط البلد المقدس، إلا أن مقاومة عبد الله بن زبير ومن انضموا إليه من معارضي الأمويين وفلول الفارين من ثوار المدينة قد حالت دون ذلك.

وفي أثناء العمليات الحربية بلغت الحصين بن نمير أنباء وفاة يزيد بن معاوية، فتراجع بجنده وبقي يقيّم الموقف في ظل فوضى الحكم في دمشق.

وكان على مكة أن تنتظر سنوات حتى يتولى عبد الملك بن مروان بن الحكم الخلافة، فيبعث إليها الحجاج بن يوسف الثقفي فيضربها بالمنجنيق ويقتل عبد الله بن الزبير ويقضي على حركته، ولتضاف موقعة الحرة وواقعة ضرب الكعبة بالمنجنيق إلى الرصيد الثقيل لبني أمية.

■ ■ ■

إن القارئ لأحداث موقعة الحرّة لا يكاد يلتقط أنفاسه من أحداث كربلاء، حتى تروعه مقتلة أهل المدينة.

وقبل أن يطرح القارئ السؤال: كيف واتت يزيد بن معاوية وجنوده الجرأة على ذلك الفعل، أسارع فأكرر ردي في الفصل السابق: التطرف.

فالقارئ لخطاب مسلم بن عقبة في جنوده وهو يحرضهم على أهل المدينة، يستخلص تلك الإجابة بسهولة. ففي فكرهم وفكر سادتهم الأمويين يكون التمرد أو الاعتراض على الحاكم خروجًا على الجماعة مستحقًا القتل والتنكيل، ولو لاذ الخارج عليه بأقدس أقداس المسلمين. ولنا في مجاهرة يزيد برغبته في قتل أهل المدينة والسير فيهم بـ«الغشمة» بينة على ذلك.

وتأمل قول مسلم بن عقبة أنه لا يرجو في الآخرة خيرًا من قتله أهل المدينة! إنه قول يخرج من إنسان تملّكه التعصب لمعسكره،

حتى ليبذل في سبيله كل ضروب الوحشية والدموية.

ولم يختلف الخوارج عن الأمويين في ذلك، فصار الناس بين مطرقة بني أمية وسندان الخوارج، وصار الدم والعنف هما سيدا الموقف.

ونلاحظ أن بني أمية قد كرروا لعبتهم، فاستغلوا حالة الكراهية والحسد تجاه قريش خاصة، وأهل المدينتين مكة والمدينة عامةً، وصوبوها سهمًا إلى ثوار المدينة في هيئة مبغض عتيد للقرشيين هو مسلم بن عقبة المري، وسيستمر الأمويون في ممارسة تلك اللعبة الخطرة -لعبة العصبيات القبلية- التي انقلبت فيما بعد عليهم عند ثورة العباسيين ومواليهم على الحكم الأموي، وانحياز بعض تلك العصبيات إلى جانبهم وتخلي الجميع عن بني أمية.

ومسلم بن عقبة المُرّي شخصية تستحق منا وقفة، فالمراقب لأفعال هذا الرجل يشعر بأنه إنما تحركه رغبة محمومة في إثبات أنه لا يقيم وزنًا لشيء؛ لا لحرمة دم، ولا لقدسية بلد، ولا لمكانة قبلية أو عشائرية، ولا لصداقة سابقة ولا حتى لقرابة بعض من تعرضوا لانتهاكات جنده. لا تعرف إن كان هذا عن رغبة في إظهار مدى طاعته سادته الأمويين أم أنها عقدة نفسية، ما يجعل المرء يشعر بضعف الثقة بالنفس -ربما لوضاعة أصله مقارنة بأقرانه أو لشيخوخته وضعفه- فيعوضه بإظهار قسوة مبالغ فيها ليكتسي بها قوة زائفة.

أما عن أهل المدينة، فإن ثورتهم إن كانت قد أخذت بُعدًا دينيًا فإن أسبابها الواقعية لم تقتصر على ذلك.

فثمة بعد سياسي اجتماعي، تمثل في تراجع مكانة المدينة منذ نقل الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب مركز الخلافة إلى الكوفة،

ثم حين تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة جعله في دمشق، فنتج عن ذلك أن ضعفت قوتها السياسية وأثرها في صناعة القرار، ما خلق وحشة بينها من ناحية وبين خلفاء بني أمية من ناحية أخرى.

وثمة بعد أمني تمثل في حالة التشرذم والتمزق في الدولة الإسلامية، بين الأمويين والخوارج وشيعة علي بن أبي طالب وآله وأنصار عبد الله بن الزبير، ما أطمع كل متمرد في الظفر بقطعة من الدولة، توطئة لأن يتوسع فيبتلع الدولة كلها فيما بعد حال نجاح مسعاه.

لا أجد ريبًا في أن موقف ثوار المدينة على المستوى العملي كان خاطئًا، فبكل المقاييس لم يكن من التعقل في شيء أن يواجهوا دولة قوية قد سنت مخالبها وتربصت بكل معارض، ولا أن يتحركوا منفردين دون تنسيق مع حليف من المتمردين على سلطة دمشق، إلا أن هذا لا يبرر بالطبع ما قام به الجيش الأموي من فظائع. كأن الأمويين يريدون أن يقولوا ضمنيًا لمعارضيهم، أن لا قدسية ولا حصانة لثائر عندهم، وأن لا سقف لما قد يتخذ بنو أمية من إجراءات وتحركات لضرب أي تحرك ضدهم، وهو ما أثبتته وقائع تاريخهم طوال فترة قيام دولتهم التي لا تعتبر طويلة العمر قياسًا بسواها من دول العرب والمسلمين.

مصادر:

١- البداية والنهاية: ابن كثير
٢- تاريخ الأمم والملوك: الطبري
٣- تاريخ الخلفاء: السيوطي
٤- مقاتل الطالبيين: أبو الفرج الأصفهاني
٥- تاريخ الدولة الأموية: أ. د. محمد سهيل طقوش
٦- مروج الذهب ومعادن الجوهر: المسعودي
٧- أسد الغابة في معرفة الصحابة: ابن الأثير
٨- سير أعلام النبلاء: الذهبي
٩- الكامل في التاريخ: ابن الأثير
١٠- معجم البلدان: ياقوت الحموي
١١- أطلس تاريخ الإسلام: د. حسين مؤنس

ملاحظات: أنصح بمراجعة الفصل السادس من كتابي «دم الخلفاء»، للمزيد عن مقتل عبد الله بن الزبير.



III

وليمة على أجساد أموية



العراق، ضفة نهر الزاب من أفرع نهر دجلة، معسكر الخليفة الأموي مروان بن محمد، ١٣٢هـ/ ٧٥٠م.

العالم يتهاوى، الجسد الأموي يترنح وطير الشؤم تحوم حوله منتظرة أن يلفظ النفس الأخير لتحظى بوليمتها.

منذ وفاة الخليفة الأسبق هشام بن عبد الملك بن مروان، توالت الخطوب على كرسي الحكم الأموي، تولى الوليد بن يزيد الخلافة فثار ضده بنو عمومته وبعض إخوته حتى قتلوه، ورث الحكم ابن عمه المنتصر اليزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، لكنه قضاه في فض اشتباكات وثورات البيت الأموي، وعلى رأسها ثورة مروان بن محمد بن مروان بن الحكم. أخيرًا جلس على العرش مروان الملقب بـ«الحمار»؛ لعناده الشهير وما عُرِفَ من طول صبره على المكاره، ولكنه لم يكد يلتقط أنفاسه حتى تكالبت عليه الكروب من ثورات الخوارج والعلويين، وكل طامع في الحكم من بني أمية، فضلاً عن تمردات أهالي المدن، ثم داهمته الطامة الكبرى: بنو العباس بن عبد المطلب ومواليهم من الفُرس ودعاتهم المنتشرين في الأرض يدعون إلى «الرضا من آل محمد» وإلى إمام من آل البيت النبوي.

في البداية لم يلتفت الخليفة إلى نداءات واليه على خراسان نصر بن سيّار، أن أرسل إليّ المدد فقد تعاظم خطب دعاة الثورة في البلاد، ثم راح يصبر الوالي بالوعود والنصائح وهو عاجز عن فتح جبهة جديدة.

وهكذا راحت نداءات نصر بن سيار أدراج الرياح، وأدرك الدعاة العباسيون ضعف حزم السلطة الأموية فجاهروا في العام ١٢٩هـ/ ٧٤٧م بثورتهم وراحوا يزحفون على البلاد وقد ارتدوا السواد شعارًا لهم فُعرِفوا بـ«المُسَوِّدَة».

وسيطر أبو مسلم الخراساني -كبير قادة موالي بني العباس- على خراسان، فانسحب نصر ومن معه من العرب وموالي بني أمية إلى نيسابور ثم إلى الريّ، وهنا أفاق الأمويون من غفلتهم فبعثوا إليه مددًا، لكن جيشهم لاقى هزيمة ثقيلة عند أصفهان التي شهدت موت نصر بن سيار كمدًا من الهزيمة وخذلان سادته.

وتقدمت جيوش الثورة تجتاح العراق، وصولاً إلى الكوفة التي بويع فيها عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، ليصبح أول خليفة عباسي.

وراحت جيوش عبد الله العباسي الملقب بـ«السفاح» تبتلع مدن العراق واحدة تلو الأخرى، وأهالي تلك المدن يستقبلون الجيوش المنتصرة بالمبايعة ولبس السواد إعلانًا للولاء. حتى جاءت لحظة اللقاء المرتقب بين الجيشين، العباسي -بقيادة عبد الله بن عليّ عم «السفاح»- والأموي -بقيادة مروان بن محمد- عند نهر الزاب.

■ ■ ■

بعد أحد عشـر يومًا من القتـال، كان جند مروان منهكين وقد أصابهم الملل من مساندة قضية بدا للجميع -عدا قائدهم العنيد- أنها خاسرة.

وعلى الرغم من نصح قادته له، أصر مروان على عبور النهر لملاقاة عدوه؛ بحيث يصبح العدو أمامه والنهر من خلفه.

تواجه الجيشان وقد ران الصمت عليهما، ستون ألفًا مع مروان وعشرون ألفًا مع عبد اللـه بن عليّ.

شد مروان قامة جسده الستيني يتأمل صفوف عدوه ومال على ابن عمومته عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، قائلاً: «إن زالت الشمس ولم يقاتلونا كنا الذين يدفعون هذا الأمر لعيسى بن مريم -يعني أن يستمر ملكهم أبدًا- وإن قاتلونا فأقبل الزوال، فإنا للـه وإنا إليه راجعون».

وبقي آخر خلفاء الأمويين يترقب وقد أمر قادته ألا يبدأوا القوم بالقتال، ولكن بعضهم خالفه فاندفع الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم يهاجم جيش العباسيين، فاندلعت المعركة قبل الزوال على غير ما خطط له مروان.

واستحال الصمت إلى صـوت رحـى طاحنة لا يُسـمَع فيها إلا ضرب السيوف وصرخات الحماسة، وتقهقرت ميمنة العباسيين، فصاح قائدهم في رجاله فنزلوا عن خيلهم وركعوا مشرعين الرماح نحو فرسان عدوهم، فأوقفوا تقدمهم ودفعوهم للتراجع.

وتقدم عبد اللـه بـن علي إلى الصـفوف الأولى وهـو ينـادي:

«يا رب، إلى متى نُقتَل فيك؟!»، ثم صرخ برجاله: «يا أهل خراسان! يا لثارات إبراهيم (يعني إمام العباسيين الذي قبض عليه مروان وقتله) يا محمد! يا منصور!»، وكان هذا شعارهم، فتعالت صيحات الحماس بين مقاتليه واستماتوا واستبسلوا فراحوا يكشطون جند بني أمية عن الأرض كشطًا.

وصار مروان ينظر بعينين زائغتين إلى جنوده، وهم يفرون عن أرض المعركة، فهرع إلى جند حلفائه من القبائل الذين وقفوا ينظرون إلى القتال بلا مبالاة صادمة، يستحثهم على الإقدام لنجدته.

لكنه فوجئ بهم يرفعون أيديهم عنه، فحين قال لقبيلة قضاعة «انزلوا»، أجابوه بازدراء: «قل لبني سليم أن ينزلوا أولاً»، وحين هرع إلى السكاسك أن احملوا على العدو، اعتذروا وقالوا: «قل لبني عامر فليقدموا»، ولما فزع إلى السكونيين أن هلموا، أجابوه وهم يشيحون بوجوههم أن «قل لغطفان فليحاربوا». حتى قائد شرطته حين أمره «انزل»، أجابه بصراحة صادمة: «ما كنت لأجعل نفسي هدفًا!»، فلما هدده بالبطش أجابه مستهترًا بأمره: «وددت والله لو أنك تقدر على ذلك!».

وحين فتح خزائن أمواله التي كان قد وضعها في مؤخرة الجيش ليغري جنده على الإقدام طمعًا في المكافأة، هرعوا ينهبونها وتركوا القتال، فأمر ابنه عبد الله أن يقتل الناهبين، فلما توجه عبد الله إليهم كان يحمل لواء أبيه، فرأى من ثبتوا في القتال لواء الخليفة يتقهقر فظنوه الانسحاب فانسحبوا.

فرأى جند بني العباس ذلك، فاندفعوا يكتسحون جيش الأمويين وهم يلعبون فيهم بالسيوف، حتى انتهى المنسحبون إلى النهر فحاولوا

بوره عومًا فغرق منهم أكثر ممن قُتِلَ في المعركة!

وهكذا كانت هزيمة ـ أو لنقل خيبة ـ جيش الأمويين عند نهر الزاب.

■ ■ ■

انتهى الجند من انتشال جثث قتلى الجيش الأموي من النهر، فلما رآها عبد الله بن علي ابتسم في صمت ثم قال مقتبسًا من القرآن: «وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون».

وراح جنده يحملون إليه ما غنموا من معسكر مروان بن محمد، وجدوا مالاً وسلاحًا كثيرًا، فبعث القائد رسولاً بأنباء النصر إلى ابن أخيه وخليفته المقيم بالكوفة، وأمر الجيش أن يستريح استعدادًا لاستكمال الزحف على باقي فلول الأمويين.

■ ■ ■

في ذلك الوقت كان مروان بن محمد وفلول الهاربين معه يتراجعون فارين من «المسوّدة» الناهضين لمطاردتهم، ومن خلف مروان تذيع أبيات سخرية بعض بني عمته به:

«لجّ الفرار بمروان، فقلت له: عاد الظلوم ظليمًا همه الهرب

أين الفرار وترك المُلك إذ ذهبت عنك الهوينى فلا دين ولا حسب

فراشة الحلم فرعون العقاب وإن تطلب نداء فكلب دونه كلب».

وحاول مروان أن يدخل إلى الموصل، فأغلق أهلها أبوابها في وجهه وصاحوا به من فوق أسوارها: «الحمد لله الذي أزال

في أثناء ذلك كانت البصرة تشهد مذبحة مماثلة للأمويين، فقد قتل العباسيون منهم جماعة من الرجال وأمروا بجثثهم فسُحِلَت ثم ألقيت لتأكلها كلاب الطرقات.

واستحرّ القتل في أهل دمشق حتى سقط منهم الآلاف، وقيل قُتِلَ منهم خمسون ألفًا في ثلاث ساعات فقط.

■ ■ ■

نهر أبي فطرس، الرملة من أرض فلسطين، معسكر عبد الله بن علي العباسي.

اثنان وتسعون رجلاً من أمراء بني أمية كانوا... قيل لهم اجلسوا فجلسوا وقد حف بهم جند عم الخليفة.

وُضِعَت أمامهم صحاف الطعام، فتبادلوا نظرات قطع ترددها عبد الله بن علي وهو يقول جالسًا إلى مائدته: «هلموا، ألم أعطكم أمان الله وخليفته؟».

مد يده إلى طبقه مردفًا: «كلوا باسم الله».

امتدت أيادٍ مرتعدة إلى طعام غص به أكثر الحاضرين، إذ رأوا الشاعر شبل بن عبد الله ـمولى بني هاشم ومبغض الأمويين- يتخذ مجلسه قرب القائد الذي رحب به وأدناه منه. لاحظوا أن عبد الله لا يأكل سوى لقيمات بينما يجيل في وجوههم نظرات أطل منها الشر.

لم تمر لحظات إلا وارتفع صوت الشاعر ينشد:

«أصبح المُلك ثابت الأساسِ بالبهاليل من بني العباسِ

«طلبوا وتـر هـاشـم فشفوها بعـد ميـلٍ مـن الزمـانِ وياسِ».

ثم أردف مشيرًا إلى الأسرى الجالسين:

«لا تقيلـن عبـد شمسٍ عثـارًا واقطعـن كل رقلـة وغراسِ».

فتوقف الأمويون عن البلع والمضغ ولفظ بعضهم لقيمات من فمه المرتجف.

بينما الشاعر يكمل مشيحًا بيده بازدراء:

«ذلـهـا أظـهـر الـتــودد منها وبـهـا منكم كـحَـدِّ المَواسـي»،

ثم مال على عبد الله مستطردًا:

«ولقد غاظني وغـاظ سوائي قربهم مـن نمـارق وكراسي».

وراحت يداه تشيران بالذبح وقد علا صوته:

«أنزلوهـا بحيـث أنزلهـا اللـه بـدار الـهـوانِ والإتـعـاسِ».

ساد صمت ثقيل قطعه عبد الله بن علي مصفقًا بكفيه وقد بدا عليه الطرب، أطـرق حينًا ثم رفـع رأسـه متمتمًا ببغض: «صدقت والله!».

ثم أشار إلى الجند الذين كانوا قد ضيقوا حلقتهم على الجلوس وقد أشهر كل منهم هراوة ثقيلة متعطشة لتكمل عمل اللسان.

وارتفعت الهراوات، ونزلت، ثم ارتفعت ونزلت. ومع كل نزول نسمع قرقعة جمجمة أو تحطم عظم.

ومع كل ارتفاع تتناثر قطرات دم كثيف.

وارتفعت الصيحات بينمـا الشاعـر يكمل بجذل إنشادًا أخفت مقاطعه صرخات الموت.

حتى إذا ما انتهى الجند من عملهم أشار إليهم قائدهم أن يسحبوا الأجساد المحطمة التي لم يُرِح الموت بعض أصحابها، حتى إذا ما صفوها مرصوصة أمر فحُمِلَت مائدته فوُضِعَت فوقها.

وخطا قائد جيش العباسيين على الأجساد وهو يسمع من تحت نعله قرقعة هنا وتكسّرًا هناك، حتى إذا ما انتهى إلى مجلسه فوقها، مد يده إلى طعامه فأكل منه وهو يسمع أنين المحتضرين من تحته، ثم تلمظ وقال بنشوة كبيرة: «بالله! ما أشهاه من طعام!».

▪ ▪ ▪

ومض الوحش العباسي يفغر فاه فيلتقم البلاد واحدة تلو الأخرى، حتى بلغ مصر فراح جنوده يفتشون جنباتها بحثًا عن الخليفة الأموي الأخير الهارب.

وأخيرًا وجدوه مختبئًا ببعض أديرة «بوصير»، فدارت هناك معركة مختصرة انتهت برأسه تُضرب به أكباد المطايا إلى الخليفة أبي العباس السفاح.

وبينما رحى المقتلة العباسية للأمويين تدور في العراق والشام، كان شاب أموي يفر من أمام جنود السفاح، تلفظه فلسطين ويفقد فيها أخوه الأصغر حياته فيهرب إلى مصر التي لا يأمن فيها على نفسه، فيهرع إلى شمالي إفريقيا يصحبه خادمه المدعو بدرًا.

ومن هناك يلجأ لأخواله من بعض قبائل البربر فيؤوونه، ولو اخترقوا حجب الغيب لعلموا أي مستقبل خطير هذا الذي ينتظره، ثم يراسل الشاب فلول وموالي بني أمية في الأندلس الضاربة فيها

والفرقة أطنابها، فيلبونه دعوته إياهم الالتفاف حوله، فيعبر البحر إليهم ليحمل ذلك اللقب الذي سيرتبط به دومًا «عبد الرحمن الداخل»، وليؤسس هناك مُلكًا جديدًا لبني أمية ينتزعه من براثن الأعداء انتزاعًا حتى يطلق عليه عدوه أبو جعفر المنصور -ثاني خلفاء العباسيين- لقب «صقر قريش». هكذا تنتهي قصة بني أمية في الشرق بمذلة، وتبدأ في الغرب بعبور شاب منفرد عباب البحر.

أما عبد الله بن علي، فقد انهمك في توطئة البلاد لابن أخيه، والقضاء على انتفاضات بعض المدن التي راعتها وحشية العباسيين مع أعدائهم، فلما مات ابن الأخ انتظر العم أن ينال مكافأته وهي أن يخلفه على كرسيه، ولكن الكرسي كان من نصيب أبي جعفر المنصور -أخي الخليفة المتوفى- والذي حبس عمه في بيت، ثم أجرى الماء في أساس هذا البيت فهُدِمَ على القائد السجين الذي قضى تحت الركام في نهاية دامية تناسب رجلاً امتلأ سجل أعماله بالدم.

■ ■ ■

يعلمنا التاريخ دومًا أن الدول لا تُقتَل بل تنتحر.

ولقد انتحرت دولة بني أمية قبل هذا اليوم بكثير، انتحرت يوم أن قررت اتخاذ السيف منهجًا، ومن يعش بالسيف يمت به، غالبًا وليس دائمًا، وحظهم أنهم كانوا من فئة «غالبًا».

انتحرت كذلك يوم قرر خلفاؤها وولاتها أن يخلقوا من رعيتهم طبقتين: العرب والموالي، فالعرب لهم الامتيازات وفرص الترقي والإثراء، بينما الموالي من غير العرب يشاركون في القتال والحروب التوسعية والدفاعية، ولا ينالون سوى الفتات قياسًا بأقرانهم من

العرب. فكان أمرًا طبيعيًا أن يهرع الموالي لمساندة أي دعوة تلوّح لهم بالمساواة مع العرب كدعوة بني العباس.

كُتِبَت شهادة وفاة دولة بني أمية يوم قرروا أن يعبثوا بعصبيات القبائل، ويدفعوا بعضها على بعض، ليوطدوا ملكهم على حساب تلك الفُرقة التي انقلبت عليهم فضربتهم في مقتل.

ولم يكفهم ذلك فراحوا يكتسبون كل يوم مزيدًا من الأعداء من شيعة آل البيت، والخوارج، إلى حد أن كثيرًا ممن انضموا إلى هؤلاء أو هؤلاء إنما فعلوا ذلك نكاية في الأمويين، لا اعتناقًا لفكر أو مذهب أو توجه شيعي أو خارجي.

وكانت الضربة القاضية يوم التفتت سيوف الأمويين بعضها إلى بعض، فراحوا يتحاربون على الحكم حتى داهمهم عدوهم فكنسهم جميعًا، ووضع لهم تلك النهاية الدامية التي من المؤكد أن أكثر من دفع ثمنها هم من الأبرياء، الذين وقعوا بين مطرقة فساد أمرائهم وسندان شهوة الدم لدى عدوهم.

■ ■ ■

ولا يخطئن القارئ فيحسب أن الدولة الأموية لم تكن أيامها سوى أيام دم، وأنها افتقرت إلى أي حسنات، فلم توجد دولة في التاريخ لم تكن لها حسنات وأعمال عظيمة تستحق الاحترام، كان فيها تأسيس إمبراطورية إسلامية عظيمة، وكانت فيها أولى حركات ترجمة موروثات الأمم السابقة، وكانت لها فنون، من بناء وتشييد، ما زالت آثارها باقية إلى يومنا هذا، وآداب من شعر ورسائل متوارثة حتى الآن.

ولكن بقاء الدول إنما يكون باستثمارها مميزاتها ومحاربتها عيوبها، [illegible] إهمل، فإن المميزات تبقى في تناقص والعيوب تصير إلى تعاظم، حتى تبتلع الأخرى الأولى وتحتضر الدولة، فلا يصير قيام الناعي [illegible] خبر موتها إلا مسألة وقت.

■ ■ ■

المصادر:

١- البداية والنهاية: ابن كثير
٢- الكامل في التاريخ: ابن الأثير
٣- إمبراطورية العرب: جون جلوب
٤- حضارة العرب: جوستاف لوبون
٥- تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان
٦- تاريخ الأمم والملوك: الطبري
٧- تاريخ الدولة الأموية: أ. د. محمد سهيل طقوش
٨- تاريخ الخلفاء: السيوطي
٩- مروج الذهب ومعادن الجوهر: المسعودي
١٠- العبر وديوان المبتدأ والخبر: ابن خلدون
١١- بلاط الخلفاء: هيو كينيدي
١٢- أطلس تاريخ الإسلام: د. حسين مؤنس

ملاحظات: أنصح القارئ أن يراجع الفصلين الثامن والتاسع، من كتابي «دم الخلفاء».

IV

صاحب الزنج.. سفاح أهل البصرة



العراق، محيط البصرة، ٢٥٧ هـ/ ٨٧١م

شد قامته على صهوة فرسه وقد حف به قادته وكبار رجاله، ضيّق عينين أغشاهما نور شمس الصباح، مستطلعًا رؤوس النخيل العالي الذي يميز بانتشاره البصرة ومحيطها. آه يا بصرة، يومك مني طويل. هكذا قال في قرارة نفسه وقد استحالت نظراته لهبًا يكاد يحرق المدينة المغضوب عليها.

«الخبيث، الخائن، عدو الله، الفاسق»، ألقاب اعتاد البصريون إطلاقها عليه، ولكن لقبًا آخر له كانوا يرددونه برعب: صاحب الزنج.

■ ■ ■

لم يكن طموح علي بن محمد يقف عند أن يكون مجرد «صاحب الزنج»، كان يرى لنفسه مكانًا أعلى، أعلى من قائد جحافل العبيد السود المتمردين على سادتهم وملاكهم في البصرة ومستنقعاتها وأحراشها وغابات نخيلها، أعلى من ولاة المدن، أعلى حتى من ذلك الخليفة العباسي ـ ألعوبة القادة الأتراك ـ القابع على كرسيه في سامراء،

عاصمة الخلافة آنذاك. كان يرى نفسه إمام هذا الزمان أو مهدي آخر الأيام. ليس من المهم أن يكون زعمه هذا حقيقيًا ولكن ما يهم هو أن يصدق الناس ذلك.

لم يُستَقَر له على نَسَب معروف، قال البعض إنه رجل من قبيلة عبد قيس، كان جده قد شارك في بعض ثورات أحفاد علي بن أبي طالب على واحد من خلفاء الأمويين الغابرين، حتى إذا ما قُتِلَ الثائر فر الجد إلى بعض مدن فارس، حيث أنجبت له جارية سندية محمدًا أبا علي، قال غيرهم إنه مجرد أجير أو مولى لعبد قيس، وليس صريحًا منهم، آخرون ادعوا أنه فارسي الأصل وأن اسمه الحقيقي «بهبوذ».

هو نفسه لم يقدم للناس قصة واضحة عن أصله طوال رحلته، تابع طموحه العريض وتعطشه للسيادة والمُلك. كان قد بدأ حياته يعيش على هامش بلاط بعض القادة الأتراك في سامراء، يتعيش من إحساناتهم تارة لقاء أبيات من الشعر يلقيها في مدح هذا القائد أو ذاك، وتارة أخرى يكون معيشه من تعليمه الصبيان الخط والنحو وعلوم النجوم. لم يكن ذا شأن يُذكَر بينهم، ولا ذا خطر يُحسَب حسابه، فكانوا يحدثون بعضهم بعضًا أمامه بأخطر أخبار الدولة وصراعات الحكم، وكان هو يدعي الغفلة والخنوع، بينما عقله اليقظ يسجل كل ما يسمع؛ تحسبًا ليوم يحتاج فيه إلى استحضار الضروري مما جاء بتلك الأحاديث.

أخيرًا شعر بأن عليه أن يلبي ذلك النداء المُلِح للارتحال بحثًا عن آماله العراض. فارتحل في العام ٢٤٩هـ/ ٨٦٣م إلى البحرين متخيرًا هذه البقعة من الأرض لبعدها عن يد السلطة، ولأنه قد علم أن أهلها هم من الأعراب والبسطاء من الموالي وأصحاب الحرف، الذين

يسهل عليه التلاعب بعقولهم، أو هكذا كان يحسب.

في البحرين استغل فصاحة لسانه وموهبته في اكتساب ثقة وحب الناس، فادعى أنه علي بن محمد بن الفضل بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب. بدأ دعوته في مدينة «هجر»، ودعا الناس إلى طاعته والانضمام إليه؛ لإقامة دولة تقوم على العدل والمساواة وإصلاح ما فسد من أمر الأمة، وبالفعل اتبعته جماعة، ولكن جماعة أخرى رفضته، فوقع الاقتتال بين الجماعتين وسُفِكَت الدماء، فلما رأى الغلبة لمن هم ضده غادر هجر إلى «الأحساء».

في هجر لاقت دعوته هوى لدى قبيلتين، هما بنو تميم وبنو سعد الأقوى بين قبائل البلد ـ فحظي بالمساندة والدعم، وكان فيهما كالنبي بين المسلمين الأوائل، أمره نافذ والخِراج يُجمَع باسمه، ولكن يبدو أن بعض أحكامه كانت قاسية نتج عنها أن تململ أهل هجر منه، فارتحل منها إلى البادية وقد صاحبه ستة من أهل البلد ومواليها صاروا فيما بعد أبرز قادته.

وفي البادية قدم علي بن محمد نفسه للأعراب بأنه تناسخ لروح أحد ثوار العلويين ـ والذي كان قد قُتِلَ قرب الكوفة ـ وأنه قد عاد في جسد جديد ليمارس دور المهدي المنتظر، وأضاف إلى ادعائه أنه صاحب خوارق وآيات من السماء، وأن لسانه يجري بسور من القرآن لم يكن يحفظها، وأن الله قد علمه منطق الطير، فانخدع بذلك بعض الأعراب وتابعوه، فقادهم لغزو أهل البحرين عقابًا لهم على سابق

خلعهم طاعته، ولما انهزمت جماعته انكشف كذبه للأعراب فانفضوا من حوله. فرحـل عنهم ومعه أتباعـه الستة سالفو الذكر، وأسرته الصغيرة، بعد أن أنفق خمس سنوات في تجاربه تلك.

من هنا بدأت قصته مع البصرة، وقصة البصرة معه.

■ ■ ■

«إني لقيت نفسي على فراشي، فجعلتُ أفكر في الموضع الذي أقصده وأجعل مقامـي بـه، فأظلتني سحابـة، فبرقت وأرعدت، واتصل صوت الرعد منها بسمعي فخوطبت منه، فقيل لي: اقصد البصرة! فقلت لأصحابي: إني أُمِرتُ بصوت هذا الرعد بالمسير إلى البصرة!».

هكذا قال علي بن محمد مفسرًا اختياره البصرة مستقرًا له، هل صدقه أصحابه؟ لا يهم، المهم أنهم قد تابعوه إما معتقدين في مهديته وإما طامعين في نصيب مما قد يغنم من مغامرته.

■ ■ ■

الأرجح أن اختياره البصرة لم يكن مجرد مصادفة أو نتاج فكرة عابرة، بل كانت بمثابة الخطة الاحتياطية التي أزمع تنفيذها إذا ما فشلت محاولته في البحرين والبادية.

ففي ذلك الوقت، كانت ظروف البصرة ومحيطها أشبه ببرميل نفط ينتظر من يلقي فيه بجذوة نار.

فالمدينة كانت تتمزق تصارعًا بين فئتين من الجُند، هما «البلالية» الأتراك و«السعديون»، العرب من ناحية، ومن ناحية أخرى بين

السعديين كمعتنقين للمذهب السُّنّي والربعيين الشيعة. وكانت الفتن بين الفرق والمذاهب والتحزبات تصل إلى حد إشاعة الفوضى وفتح السجون ونهب البيوت.

ومن الناحية الطبقية كانت البصرة منقسمة بين سادة يملكون مزارع النخيل وأعمال استخراج الملح والسباخ، وعبيد سود جيء بهم من شرق إفريقيا ليشتغلوا لسادتهم مقابل حفنة تمر أو قبضة دقيق لكل منهم، ويعيشون في عزوبية صارمة ومساكن طينية رثة. وبين السادة والعبيد كان الفلاحون الفقراء والأعراب المُهمَلون.

ومن البديهي أن رجلاً كان يعيش في مراكز صنع القرار في سامراء، كان يلتقط كلمة من هنا وخبرًا من هناك حول الأوضاع في هذه المدينة أو تلك.

دخل علي بن محمد البصرة في العام ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م يصحبه أتباعه، ولما صادف ذلك وقوع اقتتال بين البلاليين والسعديين حاول استغلال الوضع وأمر أصحابه بالدعوة إلى طاعته من مسجد المدينة، ولكن محاولته باءت بالفشل وطارده جنود الوالي ليقبض على أسرته وأتباعه، عدا أربعة منهم فروا معه إلى بغداد، ولكن بعد أن كان قد استطاع أن يستقطب بعض «آل المهلب» من المقيمين بالبصرة، والذين كانوا ينقمون على العباسيين انتزاع أملاكهم منهم.

في بغداد عاش عامًا كاملاً تحت جناح السرية والتكتم والتزام الحذر، وهناك اصطنع لنفسه نسبًا علويًا جديدًا ـ الثالث له ـ فانتسب لأحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وادعى علم الغيب وقراءة ما في الصدور، وأنه قد سأل الله آية منه أنه يخاطبه فرأى رسالة من الله تُكتَب له على الحائط دون أن يرى

كاتبها. وتابعه على ذلك بعض الناس. حتى إذا ما علم أن فتنة جديدة قد نشبت بالبصرة أدت إلى فتح السجون وتخليص المساجين ـ ومنهم أسرته وأتباعه ـ قرر أن يعود إليها.

▪ ▪ ▪

حين رجع إلى البصرة لم يبادر إلى المجاهرة بدعوته، بل قرر أن يعطيها شكلاً جديدًا، فعاش على أطراف المدينة وقدم نفسه للناس على اعتباره وكيلاً لبعض أبناء الخلفاء العباسيين، وبحكم ذلك راح يتواصل مع العبيد السود وأصحاب الأشغال ليقف على الأوضاع منتظرًا اللحظة المناسبة.

وفي سرية تامة وتأنٍّ شديد راح يستقطب العبيد «الزنج» الذين تنوعت أصولهم بين نوبيين وسودان وغيرهم، وتباين مدى فهمهم للعربية بين متقن لها وركيك الحديث بها ومن لا يفهمها إلا بالترجمان. وصار يبدي لهم تعاطفه معهم ونقمته على ما يلاقون من عسف السادة وضيق العيش، ويعدهم بالتحرر بل وبالقيادة والسيادة وتَمَلُّك العبيد. وكان يعمل في البداية بطريقة «الخلايا»، فهو يستقطب مجموعة من العبيد ثم يعد كلاً منهم بتعيينه قائدًا على من يجلبهم، فيجلب عددًا ممن استهوتهم الدعوة الجديدة، فيكرر وعده لكل منهم، فيحضر كل منهم حشدًا من رفاقه، وهكذا راح يجتمع بهم سرًّا حتى تكاملت لديه أعداد كبيرة من الأتباع، فقرر أن يجاهر بدعوته في العام ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م، فأمر بإحضار قماشة حريرية كتب عليها باللونين الأخضر والأحمر، الآية «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يُقاتلون في سبيل الله»، واتخذها راية

ولواء له وقد انتسب ـكعادته ـ للإمام زيد بن علي زين العابدين.

راح علي بن محمد وأتباعه يداهمون المزارع وأراضي جمع الملح والسباخ، ويقبضون على من بها من العبيد ثم يحررونهم وقد ضموهم إلى حركتهم بعد أن أخبروهم أنهم إنما جاءوا لتحريرهم.

وحين توجه وكلاء مُلاك هؤلاء العبيد إلى «صاحب الزنج» يطالبونه برد أولئك «الآبقين» ويغرونه بالمال إذا ردهم لسادتهم، أمر العبيد أن يبطحوا هؤلاء على بطونهم وأن يجلدوا كلاً منهم خمسمئة جلدة بجريد النخل.

وكان هذا أول انتقام للعبيد من السادة.

■ ■ ■

كانت مشكلة الزنج (أستخدم مصطلح الزنج هنا لمجرد أنه المصطلح الشائع، مع رفضي الاستخدام العنصري له ضد أصحاب البشرة السمراء) وقائدهم هي الافتقار إلى السلاح والمال، فقام صاحبهم بتقسيمهم إلى فرق وتشكيلات، وبدأ يهاجم بهم المدن والقرى، ليضع يده على ما بها من عتاد وسلاح وثروة من ناحية، وليضعها تحت «حكمه» من ناحية أخرى.

وانضم إليه بعض الأعراب من الناقمين على العباسيين، إضافة إلى من معه من آل المهلب وعلى رأسهم «علي بن أبان» الذي صار رأس قادته ويده الباطشة.

وبالفعل راحت غارات المتمردين تضرب مدن وقرى محيط البصرة، وراح مخزونهم من السلاح يزيد حتى أصبحوا صداعًا في

رؤوس السادة البصريين، الذين كان علي بن محمد يشير إليهم، ويعد أتباعه أن يصبحوا هم يومًا ما مالكين لهؤلاء السادة الذين سيصيرون بدورهم عبيدًا لهم!

ولأن الخلافة في سامراء كانت منشغلة في صراعات القادة الترك للسيطرة على الخليفة الذي ليس له من الأمر شيء، فقد كان على أهل البصرة أن يتولوا التعامل مع تلك المشكلة بأنفسهم. فقام البصريون بتشكيل جيوش من المتطوعة والحاميات المقيمة بالمدينة يقودها بعض القادة الترك والعرب، ولكن كان الزنج متفوقين عليهم بأنهم كانوا أعلم بجغرافية المكان وما فيه من المستنقعات والأنهار ودهاليز الأحراش. وبينما كان جيش البصرة يحارب بالأسلوب النظامي، كان جيش الزنج يستخدم أسلوب «حرب العصابات والكمائن»، فراح يكيل للجند الآتي من البصرة الهزيمة تلو الأخرى.

ورغم تفوقه عليهم، راح صدر علي بن محمد يضيق ببغض البصريين الذين جعلوا مدينتهم شوكة في حلقه تقف حائلاً دون أن يبتلع المنطقة. وزاد من كراهيته لهم أنهم قتلوا رسولاً بعثه إليهم يدعوهم لطاعته قبل قتالهم، فلما علم بذلك نعاه بعد صلاة العصر وقال لأتباعه: «غدًا تقتلون منهم به عشرة آلاف».

وفي الغد تلاقى الجيشان واستبسل كلا الجانبين في القتال، ولكن الدائرة دارت على أهل البصرة فقُتِلَ منهم جمع كبير، على رأسهم أناس من بني هاشم، وأربعون رجلاً من أشهر رماة الجيش.

وجمع علي بن محمد جثث قتلى عدوه فقطف رؤوسها، ووضعها

إلى مركب سيّره مع النهر لتحمله المياه إلى المدينة المكلومة في مقاتليها.

وهرع الأهالي المفزوعون من هذا الشيطان يرسلون استغاثاتهم إلى السلطة في سامراء، لتنقذهم من عدوهم.

■ ■ ■

لم يُجدِ التدخل الأول للسلطة العباسية نفعًا، فقائد الجند المبعوث من سامراء -جعلان التركي- اكتفى بالتمركز على بعد ثلاثة أميال من معسكر علي بن محمد وأتباعه، وبقي على هذا الوضع ستة أشهر حتى داهمه صاحب الزنج وطرده من موقعه، فرجع متقهقرًا إلى البصرة يحمل خيبته، وسارعت سامراء لخلعه من قيادته واستبدلت به القائد «سعيد الحاجب».

في ذلك الوقت كان علي بن محمد قد انتقل من مرحلة الغارات على البلدان إلى مرحلة توسيع رقعة سطوته، فداهم ميناء «الأُبُلّة» على الخليج العربي -برًّا وبحرًا- وبسهولة شديدة اقتحم أتباعه المدينة، وراحوا يُذَبِّحون أهلها ويسبون نساءها، ثم استولوا على كثير من السلاح، وأخيرًا أشعلوا النار في المدينة برمتها!

ثم توجه الزنج إلى ثغر «عبادان» الذي كانت أخبار مذبحة «الأُبُلّة» قد بلغت أهله، ففتحوا الأبواب للغزاة وأذعنوا لهم بالطاعة.

بعدها كانت الضربة القاسية باستيلاء حشود المتمردين على إقليم الأهواز وما فيه من أموال وسلاح، لتصبح بذلك منطقة مصب نهر دجلة ومنفذ الدولة على البحر في قبضتهم.

رغم كل تلك الانتصارات، بقيت البصرة محل نقمة علي بن محمد،

فهي لا تزال مركز مقاومته، وهو لم يف بعد بوعده أتباعه أن يقتلوا من أهلها الآلاف.

■ ■ ■

وأثبت سعيد الحاجب أنه ليس برخاوة سلفه، فسرعان ما وجه ضربة للزنج حيث هاجم معسكرهم وهزمهم، فاستخلص من أيديهم كثيرًا من السبايا المغتصبات، وراح يحاربهم لمدة شهرين ويوجه لهم الضربات الموجعة.

ولكن الجيش النظامي الذي لم يخبر أسلوب حرب العصابات وقع ضحية ثقته في نفسه، ففي غفلة منه التجأ فيها الجند للراحة والاستكانة، استطاع علي بن محمد أن يداهم معسكر الجيش العباسي، وأن يوقع بهم مقتلة عظيمة، وأن يجرح سعيدًا الذي تلقى أمرًا بالرجوع عن جبهة القتال بعد تلك الهزيمة الثقيلة، خاصة أن الخلافة العباسية كانت تعيش في ذلك الوقت أزمة حكم انتهت بمقتل الخليفة المهتدي وتنصيب المعتمد خلفًا له.

وراحت سامراء ترسل القائد تلو الآخر، ليتلقى كل منهم نصيبه من الهزيمة على يد مقاتلي الزنج الذين كانوا يقاتلون قتال من ليس لديه ما يخسره، وفي مقابل كل حملة كانت وحشية المتمردين تتضاعف، فصاروا بعد كل معركة يجمعون الأسرى ويضربون أعناقهم، ويقطعون رؤوس القتلى من جيش الخلافة ثم يرفعون كل تلك الرؤوس على الرماح بمرأى عدوهم، حتى بلغ ما نصبوه في يوم من تلك الرؤوس خمسمئة رأس في معسكرهم.

وكل ذلك لم يشفِ صدر علي بن محمد من البصرة التي قرر أخيرًا

أن تكون هدفًا مباشرًا لضربته القادمة!

■ ■ ■

«آه يا بصرة! يومك مني طويل!»

كررها وهو يرجع إلى خيمته مزمعًا الاختلاء بنفسه لحين أن تأتيه أنباء طالما تشوّق إليها.

قبل أن يختلي بنفسه شرد ببصره قليلاً، ثم قال لبعض رجاله دون أن يلتفت: «أتعلم، اجتهدت يومًا في الدعاء على أهل البصرة، وابتهلت إلى الله في تعجيل خرابها، فخوطبت من السماء فقيل لي: إنما البصرة خبزة لك تأكلها من جوانبها، فإذا انكسر نصف الرغيف خربت البصرة».

نظر إلى السماء مردفًا: «فأولت انكسار نصف الرغيف بانكساف القمر المتوقع في هذه الأيام».

لم تكن تلك أول مرة يحدث فيها أصحابه بذلك، بل كان يكرره ويعيده حتى ذاع فيهم واستبشروا به.

الأبلة، عبادان، الأهواز، جوانب الخبزة المأكولة من جوانبها، والبصرة قد صارت محاصرة منهم بمن فيها من المقاتلة، حتى ضاقت الأحوال بأهلها واشتد عليهم شظف العيش. لم يبق إذًا سوى كسر الخبزة من نصفها لتتحقق النبوءة.

أزاح عليّ باب خيمته وهو يشير إلى رجاله أن يدعوه وحده، قائلاً:

«ذروني الآن أدعو ربي وأبتهل إليه».

▪ ▪ ▪

في البصرة كانت الحال موجعة مغيظة؛ فالفتنة بين فرق الجند ومذاهب الأهالي قد اشتعلت كأنما لم يجدوا لذلك وقتًا أكثر ملاءمة! والقائد العباسي في المدينة منشغل بمحاولة تأمين الأقوات لأهلها.

وحصار الزنج يخنق المدينة من كل جانب، والأعراب قد انحازوا لصاحب الزنج فهم يشاركونه الحصار ويقدمون له ولجيشه المؤن.

وعلى الرغم من التكتم والسرية يبلغ خبر تحرك جند الزنج بقيادة علي بن أبان المهلبي، تتقدمه فرق الأعراب لتدله على الطريق مسامع بعض سادات المدينة، الذين يبلغون الخبر لأصحاب القرار وقادة الجند، فيستهجن هؤلاء الخبر ويستهينون به.

ولا يدرك البصريون إلا وقد ارتفعت ثلاث نيران من ثلاث جهات في الوقت نفسه، في أثناء صلاة الجمعة.

ثم بدأ الهجوم الكاسح...

اندفع الأعراب أولاً يقودهم علي بن أبان حاملاً رايته.

هرع الناس ينظرون الخبر، فلما عاينوا جند صاحب الزنج يداهمون المدينة، انطلقوا يهربون بأسرع ما لديهم حتى خلت الطرق أمام الغزاة، وراح القوم يغلقون على أنفسهم دورهم أو يلتجئون إلى المسجد الجامع، عدا رجل من بني هاشم وقف مشهرًا سيفه يصرخ فيهم: «ويُحكم أتتركون بلدكم وحرمكم؟!»، فكادوا يدعسونه في تدافعهم الهلوع.

وانطلق أتباع علي بن محمد يحققون نبوءته، فأطلقوا سيوفهم في الفارين تمزق الصدور وتطيح الرؤوس عن الأعناق.

وصار بعضهم يقتحم البيوت على أهلها يطوحون النصال فيهم دون تمييز بين رجل وامرأة، طفل وشاب وعجوز، وينبهون الدور ثم يشعلون فيها النار. بينما انشغل غيرهم في إحراق المسجد الجامع على من اعتصموا به حاسبين أن له حرمة عند غزاتهم.

والتجأ بعض الفارين من السيف والرمح إلى المراعي وغابات النخيل، فاندفع أناس من الزنج يضعون فيها النار من جوانبها ويقذفون رؤوس النخل بالمشاعل، ثم تراجعوا وأرهفوا السمع. فلم تمض لحيظات حتى صافحت آذانهم قرقعات النار تلتهم ما تجده في طريقها، تتبعها صيحات آدمية وحيوانية رهيبة، ورائحة شواء شنيعة شاعت في الأجواء.

وراح بعض رجال علي بن أبان من آل المهلب يصيحون في الأهالي المتدافعين فزعًا إلى الفرار، أن يلجأوا إلى بيت آل المهلب بوسط البصرة، وأن من جاوره فهو آمن. فهرعوا إليه وتزاحموا حوله بحثًا عن أمل أخير في النجاة.

تكامل جمع الناس حول البيت، فخرج بعض آل المهلب وأمروا من كان من عشيرتهم أن يدخل إلى البيت، فاندفعوا إليه وهم يشقون طريقهم بصعوبة بين الحشد المتوسل إليهم أن يجيروهم، أو يحملوا بعض أبنائهم معهم إلى الداخل، حتى إذا ما دخل آخرهم أغلق الباب عليهم بصوت بدا للمحتشدين في محيطها كقصف رعد أعقبه صمت ثقيل.

تبادلت العيون الزائغة نظرات فزعة، صمت كامل دثّرهم حتى ليقسم بعضه إنه يسمع وجيب قلوب من حوله. هبت عليهم من جهة المراعي ومزارع النخيل رياح ساخنة، حملت رائحة موت أزكمت أنوفهم.

قطع الصمت صوت سنابك خيل تتحرك حول المكان بحذر مريب. همهمات متسارعة صكت مسامعهم فتشجع بعضهم وتسلق الدار صعودًا إلى سطحها ينظر الخبر، ثم سرعان ما أطلق صيحات هلوعة. الزنج يحاصرون الشوارع المؤدية إلى بيت آل المهلب، وجمع منهم يتقدم من الجهات الأربع. ازداد تلاصق المعتصمين بساحة البيت والطرقات المحيطة. التحمت أجسادهم وقد ضاقت عليهم حلقة بشرية امتزج التماع سوادها بنصول سيوفها المصقولة.

ارتفعت السيوف تنتظر الأمر، دوت صيحة آمرة من اللا مكان «كيلوا!».

من خبروا منهم حروب الزنج يعرفون تلك الإشارة، يعرفون أنها لا تعني سوى أمر واحد: اقتلوا!

ومن لم يختبروها منهم عرفوا المعنى حين هوت السيوف لتشق أجسادهم وتمزق أوصالهم.

تحولت حلقة الزنج إلى آلة موت، لا تميز أين يهبط سيفها ولا من الذي سيرسله إلى الموت.

والقليل الذين اختبأوا في بيوتهم وأسعدهم القدر -إلى حين- بالنجاة من المداهمة، لم يدركوا ما الذي يجري في قلب المدينة إلا عندما سمعوا أصواتًا مستسلمة أسقط في يدها، تردد الشهادتين، حتى سمعهم أولئك الذين في أطراف البصرة.

لم يروا المشهد من مخابئهم، لكنهم أدركوا أن شيئًا رهيبًا يحدث، وأنه بقي يحدث طوال النهار، وأدركوا نهايته حين توقفت أصوات المشهد وارتفعت تكبيرات النصر من حناجر أسكرتها نشوة سفك الدماء.

لم يعلموا كذلك أن نجاتهم من ذلك الأمر الرهيب كانت مؤقتة، وأن تنفسهم الصعداء فرحًا بالنجاة كان أمرًا سابقًا لأوانه الذي لم يأت، ولو اخترقوا حجب الغيب لرأوا رجال صاحب الزنج يكملون حفلهم باقتحام البيوت التي لم تُداهَم بعد، فيخرجون أربابها ويستجوبونهم عن أموالهم، فمن كان موسرًا أو غنيًّا أخذوا ماله ثم قتلوه، ومن كان فقيرًا قتلوه لساعته!

■ ■ ■

وصلت أنباء «النصر» إلى علي بن محمد، فسجد شكرًا وأطال السجود بين تكبيرات وتهليلات رجاله.

أشار إليهم بالسكوت والإنصات إليه، فلما أصغوا السمع قال لهم وقد علت وجهه آيات الورع: «لما صليت ودعوت على أهل البصرة، رُفِعتُ إلى سمائها، فرأيت بين السماء والأرض رجلاً قد رفع يده اليمنى وأخفض السفلى يريد أن يقلبها ويجعل عاليها سافلها، فعلمتُ أن الملائكة قد أرسلت إلى خرابها، ولو لم يكونوا معنا ما كنا لننال منها ما نلنا من النصر!».

فعلت الأصوات بحمد الله، واصطف الجمع خلف إمامهم يقيمون صلاة الشكر بخشوع.

■ ■ ■

ارتجت الأرض لما وقع بالبصرة. هوت كصفعة قاسية على وجوه السادة المتصارعين في سامراء حول الحكم والنفوذ، فأدركوا أن عليهم إيقاف معاركهم إلى حين.

ارتفعت أصوات الناس تتهم السلطة بالتراخي والتخاذل حتى وقعت الكارثة. ولم يجد أهل الحكم وجوهًا يبررون بها ما كان من تقاعسهم وفشلهم.

وعلا صوت الشاعر ابن الرومي ينعى البصرة وأهلها، قائلاً:

دخلوها كأنهم قطع الليـ ل إذا راح مدلهم الظلام

كم رب قد رأى عزيز بنيه وهو يُعلَى بصارم صمصام

كم رضيع هناك قد فطموه بشبا السيف قبل حين الفطام

صبحوهم فكابد القوم منهم طول يوم كأنه ألف عام».

ثم اشتدت لهجته معرضًا بأصحاب السلطان وهو يضيف بغضب:

«كم خذلنا من ناسك ذي اجتهاد وفقيه في دينه علام

إن قعدتم عن اللعين فأنتم شركاء اللعين في الآثام!».

وصار قول «بعد خراب البصرة» مثلاً بين أهلها، يدل على فوات الأوان.

■ ■ ■

سارع الخليفة باستدعاء أخيه طلحة الملقب بـ«الموفق»؛ وولاه أمر حرب صاحب الزنج.

وكان الموفق رجل تلك المهمة، فبعكس سابقيه من القادة كان

عظيم الهمة وشديد العنـاد، وقبل ذلك كانت لديه قراءة جيدة للمشهد، فقد أدرك أن الزنج يستغلون طبيعة المنطقة من مستنقعات وغابات نخيل لشن حرب عصابات ضد جيوش الخلافة، فبادر إلى قطع النخيل وتجفيف المستنقعات ومد الجسور وتأمين طرق الجيوش وفتح طريق دائم للإمدادات، ثم وجه ضربات استباقية عنيفة للزنج وصاحبهم، فحوّلهم من الهجوم إلى وضع الدفاع المستمر.

وتوالت المعارك بين الجانبين سجالاً، ولكنها شهدت تقدمًا لجيش الخلافة على صاحب الزنج الذي أرهقته ضربات الموفق، الذي بدأ يحرز انتصارات نوعية على عدوه بنجاحه من حين لآخر في قتل أو أسر بعض أبرز قادته، ثم انتقاله بعد ذلك لاستقطاب من سئموا ضيق الأوضاع وحالة الحصار وتأخر تحقق الوعود التي مناهم بها علي بن محمد. وكان الموفق يستخدم أسلوب «الثواب والعقاب» بشكل علني مع خصومه، فمن يؤسرون من قادتهم كانوا يعذبون ويُقتَلون بطرائق بشعة، كالصلب أو الجلد ثم تقطيع الأوصال، أو حتى إدخال الخازوق في دبر بعضهم وشيّه ببطء على النار، ثم قطع عنقه. بينما كان من ينحازون إلى جيش الخلافة ويعلنون الرجوع عن تمردهم، يُكرَمون ويُلبَسون خُلَع الرضا الخليفتي على نحو علني، بحيث يراهم جند علي بن محمد من معسكرهم.

وراحت معاقل صاحب الزنج تسقط في يد جند الخلافة معقلاً تلو الآخر.

رغم ذلك لم تكن مهمة الموفق سـهلة، فمن حين لآخر كان يضطر إلى العودة لسـامراء من أجـل إدارة صراع حكم هنـا أو قمع مؤامرة هنـاك، فضـلاً عن تعرضـه لإصابـة سـهم في صـدره كادت تقتله،

وتعرض جيشه لأوبئة المنطقة وبيئة المستنقعات.

كانت إذًا حرب نفس طويل بين الدولة وصاحب الزنج، وعلى الرغم من أن الحروب الاستنزافية عادة ما تكون الدولة فيها هي الطرف المعرض للاستنزاف، فإن الأمر قد انقلب، فراحت الدولة تستنزف طاقات وقوى الزنج وصاحبهم على مدى ١٣ عامًا، ثم استدرجتهم لمعركة حاسمة في العام ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م لقي فيها علي بن محمد مصرعه، وحُمِلَ رأسه إلى بغداد، بينما مُنِحَ أتباعه العفو والأمان مقابل تسليم أنفسهم.

وهكذا انتهت حركة طالما أثارت رعب أهل البصرة خاصة، والخلافة العباسية عامة.

■ ■ ■

برغم ما صحبها من دمار وخراب، وما أشاعته من عنف ودم وقتل بغير تمييز بين مدني أو محارب، امرأة أو رجل، وجدت حركة صاحب الزنج من يدافعون عنها في ميزان التاريخ، باعتبارها «حركة تحررية للعبيد من الطبقية ونفوذ السادة المتسلطين».

هؤلاء الذين دافعوا عنها -وهم عادة من أهل «الرومانسية الثورية»- كأنهم قد قرأوا المشهد من جانب واحد، هو معادلة «عبد ضد سيد»، وأغفلوا عدة جوانب مهمة من تاريخ تلك الحركة، أولها وأبرزها هو أنها لم تنشأ للقضاء على العبودية في المطلق، بل لـ«تبديل الأوضاع وتحويل العبد إلى سيد والسيد إلى عبد»؛ أي أنها كانت مجرد حركة نفعية خالية من أي مبادئ «نبيلة».

ثاني هذه الجوانب، هو أن قائد تلك الحركة لم يكن «صاحب

يبدأ، بل كان مجرد أفّاق مستغل متلون، يبدل نسبه و«رسالته» حسب ما يتوافق مع مصلحته.

ثالث جانب هو أن طرف «العدو» لتلك الحركة لم يقتصر على فئة «ملاك الأراضي والعبيد»، وإنما شمل العامة وكل من لم ينضم إلى حركة صاحب الزنج، فقد سارت بمبدأ «من ليس معي هو ضدي، ومن كان ضدي فهو مستحق للقتل»، وهو مبدأ فرقة الخوارج بالمناسبة (وهو ما دفع البعض لاعتبار علي بن محمد على مذهب الخوارج).

أخيرًا فإن حركة الزنج لم تكن ذات برنامج ولا خطة، بل هي بدأت باللعب على أوتار حالة السخط عند العبيد، ثم توظيف طموحهم لتحسين أوضاعهم لخدمة صاحب الحركة، ثم تحولت إلى مجرد عصابة مسلحة كبيرة العدد تمارس السلب والنهب والترويع. فهي إذًا حركة خاوية من الخلفية الفكرية.

والمثير للدهشة ألا تقف واقعة «مذبحة البصرة» ـ دون تصنيف هؤلاء المدافعين عن «حركة صاحب الزنج» ـ حائلاً بين تصنيفهم إياها على أنها «ثورة اجتماعية من المنسحقين ضد الظلم»؛ فهم إذًا قد مارسوا «القراءة الانتقائية» للتاريخ، في دفاع سطحي هش عما يمكنني وصفها ـ بكل ثقة ـ بأنها «واحدة من أقدم الحركات الإرهابية في التاريخ الإسلامي».

مصادر:

١- تاريخ الأمم والملوك: الطبري
٢- البداية والنهاية: ابن كثير
٣- العبر وديوان المبتدأ والخبر: ابن خلدون
٤- الكامل في التاريخ: ابن الأثير
٥- مسلمون ثوار: د. محمد عمارة
٦- مروج الذهب ومعادن الجوهر: المسعودي
٧- تاريخ الدولة العباسية: أ. د. محمد سهيل طقوش
٨- بلاط الخلفاء: هيو كينيدي
٩- تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان
١٠- ثورة الزنج: د. أحمد علبي
١١- أطلس تاريخ الإسلام: د. حسين مؤنس
١٢- تاريخ الزنج والقرامطة والحشاشين: أ. د. محمد سهيل طقوش

ملاحظات:

- الطبري من معاصري حركة الزنج؛ لذا أنصح بشدة بقراءة ما كتب عنها في كتابه «تاريخ الأمم والملوك»، باعتباره شهادة مهمة على تلك الأحداث.
- لقراءة وجهة نظر أخرى عن حركة الزنج أنصح القارئ بالاطلاع على ما كتبه عنها الدكتور محمد عمارة، في الفصل المخصص لهذا من كتابه «مسلمون ثوار».

٧

صاحب القرامطة..
مذبحة البيت الحرام



٣١٧ هـ/ ٩٣٠م، مكان ما من صحراء جزيرة العرب بين البحرين والحجاز.

انشقت غبرة الصحراء عنهم، يسيرون في صمت إلا من مستحث لفرسه يمتطيه أو معدل لصف يقوده. ستمئة فارس وتسعمئة راجل، كانوا خرجوا من عاصمتهم «هجر» في أرض البحرين، واتخذوا دربًا يوازي طريق الحج.

توسط الجيش فرس مُطهَّم حمل على صهوته رجلاً في منتصف عشرينات عمره، أحاطه الجمع بأعلى آيات التبجيل وبذلوا له عظيم الطاعة. راح الرجل يعطي أوامره لكوكبة من رجاله راحوا بدورهم ينقلونها للجند هنا وهناك.

كانوا يُعرِّفون أنفسهم بأنهم: «المؤمنون المنصورون بالله، والناصرون لدينه، والمُصلحون في الأرض»، ولكنهم عُرفوا بين الناس باسم آخر: القرامطة.

■ ■ ■

كانت بدايتهم منذ أكثر من نصف القرن، تحديدًا في العام ٢٦١هـ/ ٨٧٥م في بعض أرض الكوفة، على يد حمدان بن الأشعث المعروف بـ«قرمط»، ربما لقصر في ساقيه عُرِفَ في لغة القوم بـ«القرمطة» ومنه اشتُق اسمهم. تمخض عنهم المذهب الإسماعيلي المنادي بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، خلافًا لأكثر شيعة آل البيت الذين جعلوا الإمامة في موسى الكاظم بن جعفر الصادق، ونسله من بعده، حتى الإمام الثاني عشر المختفي في سامراء. من عباءة الإسماعيليين خرج كل من الفاطميين والقرامطة، لكن شقاقًا ضرب بمعوله بين الفرقتين عندما أعلن الفاطميون إمامة بعضهم، بداية من عبيد الله الفاطمي -مؤسس دولة الفاطميين- بينما احتفظ القرامطة بالولاء لإمامهم الغائب محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وبقوا ينتظرون رجوعه باعتباره «المهدي المنتظر».

في أرض السواد من الكوفة، خرج داعيهم يطوف بين المعدمين والمنسحقين والساخطين على الحكم العباسي من كل فئة وعشيرة، يندد بحكم العباسيين ويدينهم بمفارقة ما أمر به الدين. أطاعه بعض القوم، فأقام بينهم حكم المساواة وتحريم ملكية الفرد وتقسيم الثروة، حتى لا يصير بينهم فقير ولا عريان. وجعل عليهم خُمس ما يكسبون يقدمونه له لينفق منه على الدعوة والتجهيز.

راح حمدان قرمط ينظم حركته فيجعل لها دعاة ورتبًا، وجعل لدعوته اثني عشر نقيبًا، شبههم بحواريي النبي عيسى ابن مريم، ونشر دعاته في المدن يجتذبون الساخطين من الأعراب والفقراء وعناصر الفُرس الناقمين على الحكم العربي. نشر بين أتباعه فكرة

أن القرآن معاني باطنة تخالف تلك الظاهرة، وأن ما يمارسون من عبادات وشعائر الإسلام ليست منه في شيء، فعدّل الصلوات وجعلها ركعتين قبل الشروق ومثلهما بعد الغروب، وجعل القبلة إلى بيت المقدس، والصيام يومين في السنة، وحرّم النبيذ وأحلّ الخمر، وأعلن أن من حاربه قد وجب عليه القتل، ومن كف عنه قد وجبت عليه الجزية.

هكذا كان ميلاد حركة القرامطة الذين انتشر دعاتهم في العراق والشام واليمن والبحرين، ومن هذه الأخيرة تبدأ القصة.

■ ■ ■

لبعدها عن قبضة الخلافة، وانتشار التشيُّع لآل البيت النبوي بها، وبداوة وبساطة تفكير أهلها، كانت البحرين مكانًا مناسبًا لينتقل القرامطة من «الحركة» إلى «الدولة». تدل على ذلك سرعة إيقاع أحداث قيام دولة القرامطة بها، وطول عهدها الذي قارب القرنين من الزمان.

كانت البداية برجل فارسي الأصل اسمه «الحسن بن بهرام الجنّابي»، بدأ نشاطه في مدينة القطيف في العام ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م داعيًا إلى مذهب القرامطة، فاستطاع بسرعة قياسية أن يجتذب إليه عشيرة آل سنبر القوية وأن يصاهرهم، وحصل منهم على التأييد والدعم واستقطبوا له أهل مدينتهم فصاروا له تبعًا، وفي العام التالي أقام دولته على أساس اتفاق يقضي بأن تكون السلطة له ولآله والوزارة لآل سنبر.

لم يكد الجنابي يؤسس دولته حتى نشط في غزو محيط مدينته فداهم

القُرى وسار فيها بحكمه القاضي، بقتل من يعصيه ونهب من يقع في يده. فخشيه الناس، فسارع بعضهم إلى الدخول في طاعته بينما هرع آخرون يغادرون الأرض إلى العراق.

سرعان ما سقطت في قبضته مدن البحرين عدا مدينة هجر، فنزل بمدينة الأحساء وجعلها عاصمة له، ثم راح يحاصر هجر عشرين شهرًا، ويقطع عنها الماء، حتى سلّمت له فاستأمن له بعض أهلها وبذلوا له الطاعة بينما كان مصير العصاة القتل دون رحمة.

من هنا أمّن الحسن الجنابي قبضته على البحرين وراح يضايق العباسيين في البصرة، ويحاول غزوها، فوجهوا إليه جيشًا سارع القرمطي بإعداد كمين له فهزمه، وأسر منه سبعمئة مقاتل أعدمهم جميعًا، بينما أبقى على حياة قائدهم وأطلقه ليحمل رسالة منه للخليفة يعرض عليه المسالمة، مقابل تنازل الخلافة عن البحرين والبصرة ومنفذ إلى البحر للقرامطة. فاستشاطت الخلافة غضبًا، لكن أصحاب القرار انشغلوا بمؤامراتهم المتبادلة فلم يستطيعوا إعداد جيش آخر للقضاء على الجنابي ودولته الناشئة، فكانت هدنة إجبارية إلى حين.

ولم يركن الحسن إلى الراحة بعد انتصاره على جيش الدولة، فسرعان ما تحركت قواته إلى اليمامة من أرض جزيرة العرب، فأخضعها وراح يحاول غزو عُمان لكنه لم يتمكن من ذلك، فاكتفى بما بلغ من السيطرة على البحرين واليمامة والتحرش بجنوبي العراق.

وفي العام ٣٠١هـ/ ٩١٤م لقي الحسن الجنابي مصرعه على يد أحد خدمه، الذي يقال إنه قد سخط عليه؛ لما رأى من انحرافه عن الدين واستهتاره بالعبادات، ويقال كذلك إن وراء القتل فضيحة جنسية، إذ راود الحسنُ الخادمَ عن نفسه فقتله ليقوم مجلس الحكم بإدارة دولته،

حتى بلغ ابنه «أبو طاهر سليمان» السادسة عشرة من عمره، فخلف أباه في العام ٣١٠هـ/ ٩٢٢م.

■ ■ ■

٣١١هـ/ ٩٢٣م، البصـرة ـ قبيـل الفجـر

شد الجندي قامتـه في وقفته على سور المدينة وهو يضيق عينيه مستطلعًا ألفين وسبعمئة مقاتل احتشدوا يحاصرون البصرة. زفر في حنق وهو يتراجع عن السور مستلقيًا تحت بعض مشاعله وهو يسب في سره قادته الذين لم يصرفوا له ولزملائه أعطيتهم منذ فترة طويلة.

«ويحنا لو داهمنا هؤلاء»، قالها وهو يبصق جانبًا متخيلاً حجم الكارثة لو هاجم المُحاصرون المدينة، التي كان أكثر حراس أبوابها من كبار السن الذين وهن منهم العظم، بينما لم يُسمَح لأهلها من السلاح سوى بالحجارة!

استرخى في رقوده فلم يشـعر بتلك الظـلال التي انسلخت من الظلام تلقي سلالم من حبال على السور، فتتسلقه من عدة جوانب.

جفل فجأة وقد استشعر عينين تراقبانه، فالتفت ليجد نفسه في مواجهة نصل حاد سرعان ما اخترق صدره لينضم إلى رفاقه الذين تهاوت جثثهم إثر العمل السريع الصامت للمتسللين، الذين نزلوا إلى الأبواب فذبحوا القائمين بها وفتحوها، لتستيقظ البصرة من نومها على أصوات صهيل الخيل وصيحات المقاتلين وهم يدهمون شوارعها ملوحين بسيوفهم.

في البداية حسب الوالي أن المهاجِمين هم من الأعراب، فاستصغر أمرهم وبادر إليهم، فلم يدرك حقيقة الأمر إلا وسيوف القرامطة تمزق جسده وترديه، ثم تندفع لتستكمل عملها في أهل مدينته.

انطلق النـاس لا يلـوون على شـيء، فهـرع بعضهم إلى المراعي يختبئون بين حشائشها الطويلة بينما ألقى آخرون أنفسهم في النهر الصاخب الذي ابتلع أكثرهم لينال نصيبه من المشاركة في المذبحة.

■ ■ ■

سبعة عشر يومًا أقام فيها القرامطة في البصرة وهم ينهبون دورها ويجردون أهلها من كل شيء، ثم انسحبوا إلى البحرين وقد تركوا في ذاكرة البصريين ذكرى مروعة، أعادت لأذهانهم ما كان يرويه شيوخهم من مداهمة الزنج للمدينة قبل عقود. وتركوا كذلك على وجه الخلافة صفعة رنانة استشاط لها الملأ غضبًا، فجهزوا حملة لحماية البصرة وكذلك لحماية طريق الحج الذي نما إلى علمهم أنه الهدف القادم للقرامطة.

ويبدو أن التحدي قد راق لأبي طاهـر سليمان الجنابي -صاحب القرامطة- فقد علم من جواسيسه أن قافلـة للحجاج قد اتخذت سبيلها إلى مكة، وعلى رأسها قوة مسلحة بقيادة أبي الهيجاء القائد الداهية. فحرك القرمطي ألفًا وثمانمئة من مقاتليه فكمنوا للقافلة حتى إذا ما لاحت لهم داهموها وأعملوا السيف فيها.

ألفان ومئتان من الرجال قتلوا، وكذلك خمسمئة من النساء، بينما أُسِرَ ألفان ومئتا رجل وثلاثمئة امرأة، وكان أبو الهيجاء نفسه بين الأسرى. فضلاً عن غنيمة ثقيلة قدرت بمليون من الدنانير الفضية

والترس الذهبي المرصع بالجواهـر المعـروف بـ«الشمسية»، والذي كان يعلق على جدار الكعبة في موسم الحج.

وأطلق الجنابي أبا الهيجاء وبعض الأسرى وأرسلهم إلى الخلافة، برسالة أن تنازلوا لي عن البصرة والأهواز وأقِروا لي بالسيادة عليها وعلى ما تحت يدي، لأكف عنكم.

■ ■ ■

في بغداد انفجر غضب الشعب عندما علم ما كان. راحت أصابع الاتهام تشير إلى ابن الفرات -وزير الخليفة- وتتهمه بالتشيُّع، وموالسة القرامطة وتسهيل مهمتهم مهاجمة البلاد، بإفراغهم إياها من القادة وإبعادهم إلى أطراف أرض الخلافة. اندفع الناس في ثورة عارمة يشيرون إليه ملقبين إياه بـ«القرمطي الكبير» وابنه المحسن بـ«القرمطي الصغير». لم تجد الخلافة بدًّا من تقديم كبش فداء للجماهير المشتعلة غضبًا، فخُلِعَ الوزيـر من منصبه وقُبِض عليه وعلى ابنـه وصودرت أموالهمـا، ثم أُعدِما بتهمة الخيانة.

وأعلن الخليفة العباسي -المقتدر بالله- رفضه مطالـب أبي طاهـر سليمان القرمطي وإصرار الخلافة على القضاء عليه، فرد هذا بالترصد لقوافل الحجاج ومهاجمتها، ثم قرر التصعيد فداهم الكوفة واقتحمها واشتبك مع جند العباسيين المتواجدين بها، فأفناهم ثم بقي ستة أيام يعيث في المدينة المنكوبة التي أقام في مسجدها الجامع هو وجيشه. لينسحبوا بعدها إلى هجر بالبحرين وقد نهبوا ثروات الكوفة واستمروا في قطع الطريق على قوافل الحج الآتية من العراق.

وبادرت الخلافة إلى توجيه جيش جرار من عشرين ألف مقاتل للقضاء على القرامطة، فتلقى هؤلاء التحدي وجابهوه بمغامرة مهينة للعباسيين، إذ توجه جيش من ألف وخمسمئة قرمطي إلى الكوفة وداهموها مجددًا، ناهبين ما فيها من أموال ومؤن، وبقوا فيها ينتظرون جيش الخلافة، فكمنوا له، وقد استقلل القائد العباسي أعداد أعدائه واستهان بهم إلى حد أنه قد بعث إلى بغداد برسائل بشرى النصر قبل حتى أن يبدأ المعركة!

وفي اليوم التالي تلاقى الجيشان، ولم يصدق قائد جيش العباسيين نفسه وهو يرى ألفًا وخمسمئة جندي يهزمون عشرين ألفًا من جنده ويأسرونه هو شخصيًا بعد أن أصابوه بجراحات.

وهرع المنهزمون إلى بغداد في أسوأ حال، لتصيب البغداديين حالة ذعر دفعت كثيرًا منهم للارتحال عن مدينتهم، تحسبًا لأن يداهمها هؤلاء الشياطين الذين لا تبدو هزيمتهم قريبة في الأفق.

وسارع الخليفة لبعث جيش آخر من ستة آلاف مقاتل، توجهوا إلى مدينة الأنبار لحمايتها من غزو قرمطي محتمل، وقطع أهل الأنبار الجسر على نهر الفرات ليمنعوا القرامطة من العبور إليهم. وعلى الرغم من ذلك لم يشعروا إلا وجند القرمطي يعبرون النهر على سفن أرسلها أبو طاهر سليمان، فيقاتلون الجيش العباسي ويهزمونه ويدخلون المدينة.

وأعقبت الجيش العباسي المهزوم قوة عباسية أخرى، حاولت أن تقطع الطريق بين القرامطة وبغداد، ولكن القرامطة بادروا إلى التوغل في الأرض حتى لاقوا تلك القوة على بعد نحو أحد عشر كيلومترًا من بغداد، فهزموها ثم عاثوا في المدن المحيطة بعاصمة

الخلافة يستعرضون قوتهم وينهبونها ويعملون السيف في أهلها.

فلم تجد السلطة بدًّا من مهادنة العدو، بل وإمداد القرامطة بالأموال والأسلحة مقابل انسحابهم عنهم وإيقاف القتال بين الجانبين. وأطلق القرامطة من لديهم من الأسرى وعادوا إلى البحرين وقد أعلنوا كف أيديهم عن الحجاج، مقابل استمرار بغداد في إمدادهم بالمال والسلاح.

■ ■ ■

٣١٧هـ/ ٩٣٠م، مكة.

رأى ابن محلب -والي مكة- ركب العراق وقد دخل إلى البلد المقدس سالمًا، فتنفس الصعداء بعد أن كانت تؤرقه أنباء ظهور جيش للقرامطة على مقربة من طريق الحج. توافد الحجاج إلى الحرم وقد اطمأنوا للهدنة القائمة بين الخلافة والقرمطي فلم يخشوا غدرًا.

لم يلبثوا إلا قليلاً حتى أحس الحجاج حركة متوترة بين رجال الوالي الذي امتطى فرسه وقد حفه جمع من أهل بيته، وأعيان مكة وقد بدا على وجوههم جميعًا قلق شديد إثر نبأ بلغهم به بعض مستطلعي الطرق... سرعان ما انطلقت خيولهم بهم إلى الصحراء تنهب الأرض نهبًا.

وبينما كانوا يستعدون للتوجه إلى مِنَى لإقامة شعائر يوم التروية، روعهم الصارخ أن جيش القرامطة بقيادة أبي طاهر سليمان الجنابي

يقتحم مكة، بعد أن خرج إليهم واليها وأعيانها يستجدون القرمطي أن يرجع عن البلد الحرام ولو ببذل الأموال له، فلما أبى الرجوع قاتلوه فأفناهم بسيوف جنده، ثم تركهم جثثًا مرملة ومضى يشق طريقه بالسيف إلى الحرم.

لم يصدق حجاج البيت الحرام آذانهم، لم يصدقوا حتى وهم يرون طلائع جند القرمطي يندفعون إلى الحرم المكي وقد خضبت الدماء سيوفهم ورماحهم. لم يصدقوا إلا وهم ينسحقون تحت سنابك الخيل، والنصال تلعب في أجسادهم والسيوف تتناوشهم. هرعوا يلتمسون ملجأ من الموت المطل بابتسامته المخيفة من بين النصال، لم يجد بعضهم مخبأ فارتمى على الكعبة يدخل بين أستارها لتهبره رقصة السلاح المجنونة. رأى أحدهم وهو يكذب عينيه رجلاً يدنو من الكعبة بفرسه فيبول الفرس في جوارها وفارسه يعبث في كسوتها بطرف رمحه ليمزقها ويصيح ثملاً بنشوة الدم: «يا حمير! أما كنتم تقولون إن ربكم قد جعل حرمكم هذا آمنًا؟!». رأى آخر وقد انتزع إزار إحرام تلطخ بدماء مرتديه فنصبه على حربته وراح يرقص به وهو يضحك بجنون. أخيرًا هدأ العبث، وانضبط الجند على صهوات خيلهم وقد أفسحوا الطريق لقائدهم الذي أشار إلى بعض رجاله، فهبوا يضربون مصاريع أبواب الكعبة بالمطارق، حتى تهاوت الأبواب فأمر القرمطي بحملها. ترجل أبو طاهر الجنابي عن فرسه، ومضى يسير وقد قلب رمحه يرسم بنصل سنه خطًا داميًا في الأرض حتى انتهى إلى باب الكعبة، فدار ببصره داخلها ثم جلس عند الباب. رفع سنان الرمح يتأمل الدم عليه ثم جال بعينيه في مشاهد القتل

وارتفع صوته مجلجلاً: «أنا بالله، وبالله أنا. يخلق الخلق وأفنيهم أنا».
تردد قليلاً ثم أومأ لرجل وقف إلى جواره مترقبًا وقد حمل مطرقة ثقيلة فهرع هذا إلى الحجر الأسود.

نظر حامل المطرقة بسخرية إلى البقية الباقية على قيد الحياة من الحجاج وقد انبطحوا أرضًا في استسلام، ثم رفع مطرقته وهوى على الحجر في ضربة خُيل إليهم أنها قد رجّت الأرض من تحتهم. رفع راسه إلى السماء صارخًا بتحدٍّ جنوني: «أين الطير الأبابيل؟!» هوى بالضربة التالية، ثم عاد يصرخ: «أين الحجارة من سجيل؟!».

توالت ضرباته على الحجر حتى تخلخل من موضعه، فأشار إلى بعض من حوله فراحوا يسحبونه بأدواتهم حتى انتزعوه من مكانه. تقدم منهم أبو طاهر سليمان وقد بدت على وجهه علامات الرضا وأشار إليهم بحمله بعيدًا، ثم قال مشيرًا إلى البناء المقدس: «انزعوا الكسوة وتقاسموها»، وأردف وهو يشير إلى الجثث التي غطت أرض الطواف: «وألقوا هؤلاء في زمزم!».

▪ ▪ ▪

بعد أن أمضى فيها ثمانية أيام يقتل وينهب ويهدم، غادر القرمطي وجيشه مكة حاملين معهم الحجر الأسود.

زُلزِلَت الأرض بهول الواقعة، أصاب الخلافة الذهول وهي ترى قدس أقداس المسلمين الذي طالما فخرت بأنها حاميته، يُقتَحَم ويُقتل حجاجه بل ويُنتَهَك شر انتهاك. أصاب الخليفة الخرس وقد حاق به وبمن حوله الإحساس بالعار لهول الضربة.

حتى الفاطميون ـ وقد كانوا وقتها على وفاق مع القرامطة ـ ارتاعوا

مما جرى، فأرسل الخليفة عبيد الله الفاطمي إلى القرمطي يعنفه على ما كان منه ويأمره برد الحجر الأسود. فأجابه برد مبهم: «أخذناه بأمر الله ولن نعيده إلا بأمره».

وارتعد الناس في كل مكان؛ وقد أدركوا أن لا حدود لما يمكن للقرمطي أن يقترف من فظائع.

■ ■ ■

عاد أبو طاهر إلى مهاجمة العباسيين بعد أن أعلن لهم وللجميع بالطريقة الصادمة انتهاء الهدنة. سارع بمهاجمة الكوفة ليحتلها ويمكث فيها خمسين يومًا، ثم ارتد إلى عاصمته وسرعان ما بعث أربعين مركبًا محملة بالمقاتلين تهاجم بعض سواحل فارس، فوضع السيف فيها دون تمييز بين رجل وامرأة وطفل.

واضطرت الخلافة إلى محاولة التفاهم مع القرامطة، فبعثوا يطلبون من أبي طاهر أن يهادنهم ويكف عن الحجاج ويرد الحجر الأسود، مقابل إقراره على ما في يده وتقليده حكم ما شاء من البلدان، فأجابهم بالموافقة وسكت عن الرد على مطلب إعادة الحجر الأسود. وخطب للخليفة في عاصمته «هجر»، ثم عاد لمهاجمة قوافل الحج حتى تعطل الحج من العراق إلى العام ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م، ثم تدخل أحد رجال آل علي بن أبي طالب بين الطرفين القرمطي والعباسي، فوافق القرامطة على السماح بمرور الحجاج مقابل مبلغ ثابت من المال، فصارت الخلافة تبعث المبلغ مع كل رَكب للحجيج ليُدفَع إلى القرامطة. وصار على الحجر الأسود أن ينتظر ٢٢ عامًا حتى يرجع إلى موضعه.

وفي العام ٣٣٢هـ/ ٩٤٤م قضى أبو طاهر سليمان بن الحسن الجنابي

القرمطي نحبه بعد إصابته بمرض الجدري، ليقع الشقاق بين أسرته وتعاظم بينهم فيتبادلون المؤامرات والاغتيالات.

وبعد أن شاب الوضع بعض الاستقرار، حاول القرامطة أن يتخذوا حلفاء فتواصلوا مع الدولة الحمدانية القائمة في حلب. وكانت علاقة الدولة القرمطية بالفاطميين ـ الذين كانوا قد انتقلوا بخلافتهم إلى مصر ـ قد ساءت وبلغت حد العداء، فتبادل الطرفان الأعمال العدوانية التي بلغت حد محاولة القرامطة غزو مصر وتبادل الطرفان الاستيلاء على بلاد الشام.

وأخيرًا دخلت الدولة القرمطية في طور الاحتضار، بوقوع الشقاق بين صفوف حكامها ورجالاتها، وتخلل ذلك اصطدام القرامطة بآل بويه الذين كانوا قد تسلطوا على الخلافة وتحكموا فيها، ثم دخل الأمراء المحليون في الصراع، فتناوشوا الجسد القرمطي بالتمزيق وانتزاع مناطق النفوذ، حتى كانت الضربة القاضية بتقديم السلاجقة العون لبعض هؤلاء الأمراء، فدخلوا إلى البحرين واستولوا عليها وقضوا على الدولة القرمطية في العام ٤٦٨هـ/ ١٠٧٦م، لتنتهي بذلك قصتها وتطوى صفحتها إلى الأبد.

■ ■ ■

على الرغم من تميزها بالعنف الشديد والدموية المفرطة والجرأة البالغة على المقدسات الإسلامية، فإن «الحالة» القرمطية لم تكن ببدعة في زمانها.

ففي ذلك الوقت كانت الخلافة العباسية قد دخلت في طور التمزق إلى دويلات لا يربطها بالخلافة سوى أمور صورية، كذكر

اسم الخليفة في الدعاء على المنابر، أو دفع بعض الأموال لخزينته، ولكن دون اكتساب الخليفة أي سلطات على حكام تلك الدول.

ففي مصر قامت على التوالي الدولتان الطولونية ثم الإخشيدية، وفي حلب قامت دولة الحمدانيين، وفي فارس والعراق أقام السلاجقة دولتهم التي امتدت بعد ذلك إلى الشام وآسيا الصغرى، وفي بغداد ذاتها قامت أسر حاكمة حجرت على الخليفة وجعلته يقر على أنه قد ولّى رؤساءها على «كل ما وراء بابه».

وخارج نطاق الولاء الشكلي للخليفة العباسي، قامت دول مناوئة، فالفاطميون أقاموا دولتهم في شماليّ أفريقيا، ثم انتزعوا مصر وتبادلوا مع العباسيين السيطرة على الشام، والزنج سيطروا على مصب نهر دجلة ودوّخوا الخلافة أربعة عشر عامًا. فالقرامطة إذًا كانوا حالة منطقية. كل ما اختلف هو قيامها على نحو يمثل «صدمة» مذهبية، حتى للفاطميين الذين خرجوا مع القرامطة من العباءة الشيعية الإسماعيلية ذاتها، قبل أن تفترق طرقهما. والأرجح أن الطرفين كانا يعلمان مدى الاختلاف بينهما عقائديًّا ولكن كل طرف منهما كان يحاول استغلال قدرات وإمكانيات الطرف الآخر، فالفاطميون يريدون الاستفادة من قدرة القرامطة على ممارسة العمل السري ونشر الدعاة، والقرامطة يريدون استغلال الفاطميين كدولة، لولا وصولهما لنقطة شقاق ثم عداء بسبب محاولة الخلفاء الفاطميين فرض سطوتهم الروحية على القرامطة.

السؤال هنا: كيف بلغ التطرف القرمطي حد مهاجمة قدس أقداس المسلمين وسفك دم الحجاج بل وإهانة الكعبة ذاتها؟

الإجابة هي أن القرامطة -كما أرجح بين مختلف الآراء- كانوا

بالفعل فرقة منشقة عن الإسلام كدين، ولم يكونوا مجرد فرقة إسلامية متطرفة، بالتالي فإن الكعبة لم تكن تمثل لهم القدسية التي تمثلها للمسلمين، هذا هو التفسير الوحيد لقيامهم بهذا العمل، ليس فقط بجرأة ولكن بالبساطة التي استجاب بها جند أبي طاهر سليمان الجنابي القرمطي لقائدهم، وهو لم يكن ليأمر بذلك ويقدم عليه إلا وهو يعلم أن جنده سيطيعونه.

وأما «الفائدة» من هذا العمل، فهي ببساطة توجيه إهانة قاسية للخلافة العباسية ـ التي تظهر الأحداث أنها لم تكن على مستوى التعامل مع أزمة التهديد القرمطي لها ـ وتوجيه رسالة إعلامية مفادها «ليس لنا سقف نقف عنده». وأخطر عدو هو ذلك الذي لا سقف للمتوقع من أعماله العدائية، خاصة إن كانت على أساس عقائدي.

وطريقة القرامطة في محاولة بناء دولة لهم، كانت أشبه بمن يطلق النيران عشوائيًّا علّ بعضها يصيب فريسة. فقد نشروا دعاتهم في العراق والشام واليمن والبحرين، فأخفقت كل المحاولات عدا تلك البحرينية، فمثّلت لهم الثقل والاستمرارية الأطول، وانتقلوا بها من طور «الحركة» لـ«الدولة»، واستطاعوا أن يجعلوا الخلافة العباسية تعاملهم بندية وليس كمجرد متمردين، حتى في حالات القتال.

ولكن القارئ في تاريخ القرامطة قد يخطئ تقييم تجربتهم من جانبين: الأول هو جانب «القراءة الدينية للتاريخ»، فمن يمارس هذا النوع من القراءة إنما يقيّم الدول من منطلق مدى توافقها مع دينه أو مذهبه، وليس من منطلق موضوعي علمي جاد، فهي بالنسبة إليه «دولة ملعونة» لكونها قد قامت على توجه مذهبي مغاير مصنف من

ناحيته بأنه «مارق» أو «ضال»، بصرف النظر عن تقييم «أعمال» تلك الدولة على نحو مجرد.

الجانب الآخر الخاطئ لتقييم حالة القرامطة، هو تقييمها من منطلق الرومانسية الثورية عند البعض، والتي تتعاطف مع أي حركات تحمل شعارات المساواة وتوزيع الثروات بالتساوي وإصلاح أحوال الفقراء، والواقع أن الحركة القرمطية إن كانت قد انتهجت هذا المنهج في تجربة العراق، فإنها لم تلتزمه في تجربة البحرين، حيث يصنف المشتغلون بالتاريخ سياستها الاقتصادية بما يوصف بـ«رأسمالية الدولة»، فقد تملكت الدولة المزارع وأدوات الإنتاج وسخرت لخدمتها ثلاثين ألفًا من العبيد؛ ما يعني أن مسألة المناداة بالمساواة والقضاء على الطبقية المالية إنما كانت «دعاية» لاجتذاب الفئات المستهدفة لتأييد الحركة القرمطية.

فضلاً عن ذلك، فإن مجرد فكرة «من ليس معي فهو ضدي، ومن هو ضدي فهو مستحق للقتل»، وتطبيقها على الجميع دون تمييز بين مدني ومحارب أو رجل وطفل وامرأة، هو مما لا يصب في صالح الدول والحركات عند تقييمها إنسانيًّا.

لهذا، فإن على الباحث في تاريخ القرامطة -وفي التاريخ بشكل عام- أن يتجرد من الانتماءات الفكرية والدينية والمذهبية، وأن يقيّم الحالة على نحو موضوعي علمي بحت. وعلى أساس معطيات زمان ومكان الحالة وملابسات وظروف نشأتها وحياتها وانقضائها، لا على أساس زمانه ومكانه ومعطياته عامة كانت أو خاصة.

مصادر:

١- الكامل في التاريخ: ابن الأثير
٢- البداية والنهاية: ابن كثير
٣- مكة المدينة المقدسة: ضياء الدين سردار
٤- تاريخ الزنج والقرامطة والحشاشين: أ. د. محمد سهيل طقوش
٥- تاريخ الدولة العباسية: أ. د. محمد سهيل طقوش
٦- تاريخ الفاطميين: أ. د. محمد سهيل طقوش
٧- الحشيشية: برنارد لويس
٨- الفرق والجماعات الدينية في الوطن العربي قديمًا وحديثًا: د. سعيد مراد
٩- تاريخ المذاهب الإسلامية: الإمام محمد أبو زهرة
١٠- أطلس تاريخ الإسلام: د. حسين مؤنس



VI

الحاكم بأمر اللــه..
الإله الكاذب يقتل رعيته



مصر، القسطاط، ٤١٠هـ/ ١٠٢٠م

تحت جنح الليل تسللوا وهم يتجنبون المرور تحت المصابيح المعلقة بالدور والمحال، أحكم أحدهم لثامه وهو يعدل وضع الجسد المحمول على كتفه، والذي كان خفيف الوزن على نحو لا يشي به حجمه.

أشار أحدهم إلى ناصية شارع قريب وهو يهمس لأصحابه: «ضعوه هنا، فيراه حين يمر»، فاشتدوا في السير ووضع صاحب الحِمل ما على كتفه في الموضع المشار إليه. أخرج أحدهما خفين ونقابًا ألبسها الجسد المستكين واقفًا، بينما وضع الآخر في كفه المتخشبة ورقة. تراجعوا خطوات وهم يتأملون صنعهم الذي بدا كامرأة واقفة تحمل رسالة.

ابتسم أحدهم، وقال وهو يلكز زميله برفق: «هكذا يراها حين يمر فيأخذ الرسالة ويقرأها، سنضحك كثيرًا».

ثم انسحبوا وقد سمعوا الصوت المميز لحوافر دابة هدفهم تقترب بتأنيها المعتاد.

■ ■ ■

بطرف عين وجلة حاول العبد استشفاف أثر ما في الورقة في وجه سيده صاحب الملامح المخيفة. توترت قبضته على غطاء وجه المرأة، الذي كشفه ليجد ومن معه أن ما كان يقف في انتظارهم لم يكن سوى دمية ورقية بقامة إنسان.

رفع السيد الورقة إلى عينيه يعيد قراءة ما بها. ارتعشت عضلة بطرف فكه العريض، والتمعت منه العينان اللتان جمعتا سوادًا وزرقة لم تزيدا هيئة صاحبهما إلا إثارة للفزع. ألقى الورقة أرضًا وأشار إلى عبيده من مجلسه على ظهر حماره، ثم مضى الركب الصغير قاصدًا الطريق إلى القاهرة.

لم يخدع صمته وجمود ملامحه مرافقيه، فهم يعلمون أن غضبة مولاهم أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله إنما هي كسكين ماضٍ لا صوت له، غير أنه يشق طريقه في اللحم والدم بثقة ويسر ذبحًا وقطعًا وتمزيقًا.

■ ■ ■

القاهرة، قصر الخلافة.

تراقصت نيران مشاعل السرداب راسمة منعكسة على سواد وجوههم والأسطح اللامعة لخوذاتهم ومقابض سيوفهم المحلاة بالفضة، وقد أحنوا رؤوسهم بخشوع لسيدهم الذي ارتسم على الجدار خلفه ظل ضخم لقامته المديدة، المتدثرة في عباءة من الصوف الخشن. لحيته الشقراء المحمرة بدت متوهجة تنافس عينيه الحادتين.

صوته الجهوري المميز قال، وهو يتشمم رائحة النفط من قوارير ملأت أكياسًا من الخيش حملها بعضهم: «تعرفون ما عليكم فعله، فاجعلوا يومهم طويلاً، جزاءً وفاقًا بما عملوا».

قرأ الجواب في وجوههم التي بدت كأبنوس مصقول، وقد بقوا على وقفتهم الخاشعة.

لحيظات مرت قبل أن يرفعوا رؤوسهم فيجدوه قد اختفى، فمما عُرِفَ عنه أنه لا يُشعَر بمشيه، فجأة هو هنا، فجأة هو ليس هنا. «السحلية» كما كان يسميه مربيه المعلم «بيرجوان» الذي دفع حياته يومًا ثمن تلك السخرية وأمور أخرى استوجبت قتله.

تراجعوا يغادرون السرداب الذي يربط بين القاهرة ـ المدينة الملكية المغلقة على الخليفة وخاصته ـ والفسطاط ـ مدينة العامة ـ وأخيرًا حين تنشقوا هواء الليل البارد، ولاحت لهم أنوار الفسطاط الغافية، قال لهم كبيرهم: «كما أُمِرتم، تدخلونها فرادى كي لا يرتابوا في شيء، والباقي معروف»، ثم أردف من بين أسنان ناصعة مكررًا قول سيده: «فليكن يومهم منكم طويلاً!».

■ ■ ■

بحق الله كم يبغضونه كأنه الشيطان.

ربما هو بالفعل الشيطان ـ حقيقة لا مجازًا ـ تجسد بشرًا، يُكمِل بالقتل والرعب ما لم ينجز بالوسوسة؟ هكذا دار في ذهن شاب من أهل الفسطاط رقد على سطح داره يسترجع لحظات تهكمه ورفاقه على الحاكم، وهم يراقبونه من خلال فتحة في شباك الدار المطلة على حيث وضعوا له دمية المرأة حاملة الرسالة، التي تضمنت سبًّا مقذعًا

بحقه -الحاكم بأمر الله- وأسلافه من خلفاء الفواطم.

أكثر من ثلاثة وعشرين عامًا أذاق المصريين خلالها الويل، لم يسلم منه عامة ولا خاصة، طال بطشه الجميع بلا استثناء.

بدأ حكمه بقتل كل من «بيرجوان» الخادم -مربيه ومعلمه- ثم ابن عمار شيخ قبيلة كتامة المغربية -حامي الدولة وسيفها البتار- بحجة أنهما يتسلطان عليه، إذ كان بعد شابًا مراهقًا لم يبلغ العشرين، ومنذ ذلك اليوم صار الداخل في خدمته مفقودًا والخارج منها دون قتله أو قطع بعض أعضاء جسده مولودًا. كان يعيّن الوزير والقائد والكاتب وعامل الخراج فيعظمه ويغرقه بإنعاماته، ثم سرعان ما يأمر بقتله أو قطع يديه أو لسانه، ومصادرة أملاكه وأمواله ثم حرق جسده وذرّه بالرياح. أحصى البعض من قتل من رجال السيف والقلم، فقال إنه قد أطعم الموت ثمانية عشر ألفًا من الأتباع المخلصين، حتى فرغت الدولة من رجالاتها ومادة قيامها. كان يقتل لأتفه الأسباب، حتى إنه في مرة قتل بعض قادته -وكان هذا القائد عائدًا لتوه من نصر كبير على بعض المتمردين على الحاكم- فقط لأن هذا القائد قد فاجأه وهو يقطع جسد طفل من فتيانه، الذين شاع أنه يتلذذ بشق بطونهم وذبحهم، فعد الحاكم مباغتة هذا القائد إياه وهو في هذا الموقف أمرًا مخالفًا لقواعد الأدب والاحترام!

ضيّق على العامة معيشتهم بقوانينه الشاذة المستترة بالتقوى والتشدد في أمر الدين، بحجة تحريم الخمر أفسد كرمات العنب، وسكب أطنانًا من العسل في النيل وأحرق جبالاً من الزبيب. بحجة منع الميسر جمع ألواح الشطرنج وأحرقها في طقس مهيب. بالغ، فمنع

وبيع السمك الذي بغير قشر، وذبح الماشية الخالية من العيوب إلا في الأضحى. حرّم الملوخية لأن معاوية بن أبي سفيان كان يحبها، والجرجير لأن عائشة بنت أبي بكر كانت تأكله. وعاقب من خالفوا أوامره تلك بالضرب والتشهير بل والقتل. تخيّل أن يؤمر بإعدام رجل لأنه باع سمكة بغير قشر أو ضُبِطَ يلعب الشطرنج.

بل إنه كان يطوف بالأسواق يصحب عبدًا أسود اسمه «مسعود»، وكان إذا ضبط بائعًا يغش الطعام، أمر مسعودًا أن يفعل فيه «الفاحشة العُظمَى» على مشهد من الناس!

جرح مشاعر المصريين الدينية بكتابته سبابًا للصحابة بماء الذهب على أبواب وجدران المساجد، ثم أمر بمحو الكتابة حين استشعر ثورة في الأفق. حاول التقرب منهم فافتتح مدرسة للمذهب المالكي، ورتب الرواتب لفقهائها، ثم سرعان ما مال على هؤلاء الفقهاء بسيفه يرديهم.

لم تسلم منه النساء -وهن بالذات لاقين منه أشد التضييق- فأمر بمنعهن من الخروج إلى الشوارع والإطلال من الشبابيك والوقوف على الأسطح، منع الإسكافيين من صناعة أحذيتهن، ولما مر يومًا بحمام فسمع أصوات بعض النسوة بداخله، أمر بإغلاقه عليهن ليصبح قبرًا لهن.

وطال بطشه أهل الذمة الذين طالما نالوا سماحة وتقرُّب أبيه وجده، فطردهم من الخدمة في دواوين الدولة، وأمر بأن يرتدي المسيحيون منهم صليبًا وزنه خمسة أرطال واليهود أجراسًا ثقيلة يحرم خلعها حتى في الحمامات المخصصة لهم، حتى تورمت فقرات أعناقهم

من وطـأة الحمل الثقيل وازرقـت، فعُرفوا بـ«ذوي العظام الزرقاء» (العضمة الزرقا بالعامية). هدم كنائسهم وجعل بعضها مساجد، بل وأمر بهدم كنيسـة القيامة بفلسطين. صادر أموالهم وعندما لاح منهم التذمر، قتل بطريرك الإسـكندرية نفسه (هذا رغم أن أم الحاكم بأمر الله كانت مسيحية!).

حتـى آل بيته لم يسـلموا مـن أذاه، فلما عاتبته أخته «سـت المُلك» في بعض الأمور، ثار بهـا فطعنها في شرفها واتهمها بأنها تُدخل عليها الرجـال وأنهـا ـوهـي المرأة المسـنة المعروفـة بالعفةـ قـد حبلت من بعضهم!

إلا أن ما كان منه في أواخر الأيام كان كثالثة الأثافي، أو القشة التي قصمت ظهر البعير!

▪ ▪ ▪

لم يكن ادعاء الإتيان بالخوارق بجديد على الفاطميين، فمذهبهم من الأساس يقول إن الإمام معصوم من الخطأ وأن الأسباب بينه والسماء قد اتصلت، فهو لا ينطق عن الهوى. فالمعز بدين الله قيل بعصمته حتى مدحه بعض الشعراء فقال: «ما شئت لا ما شاءت الأقدار، احكم فأنت الواحد القهار». وابنه العزيز بالله ـأبو الحاكمـ قد ادعى الاطلاع على الغيب، حتى سخر منه البعض فوضع له على المنبر ورقة مكتوب عليها: «بالظلم والجور قد رضينا، وليس بالكفر والحماقة. إن كنت قد أعطيت علم غيب فقل لنا كاتب البطاقة».

والحاكم كانت له محاولة جنونية لنقل رفات الرسول محمد إلى مصر، فقد أمر واليه على المدينة بحفر سرداب في القبر النبوي وإخراج الجثمان، إلا أن ثورة أهل المدينة قد حالت دون ذلك.

وإن كانت «عصمة الإمام» والشطحات الجنونية محل تفكه وتهكم من المصريين، فإن ادعاء الألوهية أمر مختلف لا مزاح فيه!

بدأ الأمر في العام ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م عندما قدم بعض دعاة الفاطميين من الفُرس -حمزة بن علي الزوزني- إلى القاهرة، فعمل بـ«دار الحكمة» -منشأة الدعوة والبحث الفاطمية- فبقي مدة ثم تواصل مع الحاكم، وبدأ يعرض عليه أفكاره عن الألوهية والإمامة وقد لقّب نفسه بـ«هادي المستجيبين»، ودعا إلى مذهب جديد يرفع فيه من شأن الحاكم بأمر الله من إمام وخليفة إلى ما هو أكثر خطرًا وعصمة.

سرعان ما انضم إلى حمزة الزوزني دعاة آخرون، مثل حسن الفرغاني ومحمد الدرزي، فجمع الثلاثي حولهم بعض المتطرفين من معتنقي المذهب الشيعي الإسماعيلي -مذهب الفاطميين- وراحوا يلتقون بالحاكم عند منطقة القرافة وجامع ريدان عند باب النصر خارج أسوار القاهرة.

ثم بدا للدعاة المذكورين أن يقفزوا خطوة في دعوتهم، فجاهر حسن الفرغاني بألوهية الحاكم بأمر الله، وأنه مجرد جسد حل فيه الإله، وراح يسقط تكاليف الدين وينفي النبوة والتنزيل. فلاقى هذا أثرًا طيبًا عند الحاكم فزاد من تقريبه وأصحابه.

وخطا الفرغاني خطوة جنونية، فدخل إلى مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط مع حشد من أتباعه ونادى بدعواه، ثم قدم

للقاضي رسالة مكتوب في أولها «باسم الحاكم الرحمن الرحيم»، فثار عليه القاضي وثار عليه الناس، فطاردوه وقتلوه وأصحابه وسحلوا جثثهم في الشوارع ثم أحرقوها.

وبينما كان حمزة الزوزني -بادئ الثلاثة في التأليه- يسير في موكب للحاكم، انتفض أحد الجنود الأتراك -وكانوا من السُّنّة- وقتله، فقُبِضَ على الجندي وأُعدِم، فأقام له الناس جنازة حاشدة وعظّموا قبره، فأمر الحاكم بنبشه ورفع رفاته!

وحل محمد الدرزي محل الفرغاني والزوزني، فصارت إليه أمور الدولة بعد الحاكم، وتشجّع فأعلن أن روح آدم قد حلّت في جسد علي بن أبي طالب ثم حلّت في روح الحاكم، وأن الحاكم ما هو إلا جسد خارجي للإله الذي خلق الكون، بل وصاغ كتابًا سماه «الدستور»، وصار قرآنًا لأتباع التوجه الجديد.

وأُمِرَ الناس أنهم إذا سمعوا اسم الحاكم في المساجد وهم قعود قاموا احترامًا، وإذا سمعوه وهم قيام سجدوا تقديسًا. وراح أتباع الدرزي إذا لقوا الحاكم ينادونه بـ«يا واحد يا أحد، يا محيي يا مميت».

هنا بلغ السيل الزبى من الجميع؛ أهل الفسطاط، الجند الأتراك، حتى دعاة المذهب الإسماعيلي ثاروا وراحوا يكتبون الرسائل العلمية في الرد على الدرزي وفرقته، وهم يعلنون التبرؤ من مذهبه وأنهم من أهل لا إله إلا الله.

وخرج أهل الفسطاط في ثورة شعبية عارمة، انضم إليها الجند التُرك، فحاصروا قصر الحاكم بأمر الله وطالبوه بتسليمهم محمد الدرزي.

فأشرف عليهم الحاكم وأعلن براءته مما نُسِبَ له، وأخبرهم أن الدرزي ليس عنده في القصر وأنه قد فر.

في أثناء ذلك كان محمد الدرزي يهرب من مصر، بأمر من الحاكم، وقد حمّله هذا الأخير الأموال والمؤن، وأمره أن يبدأ دعوته من بعض قرى الشام، حيث يجد أرضًا خصبة لمذهبه. وانطلق الداعي إلى بعض قرى بانياس -في سوريا حاليًا- ليبدأ من هناك وضع بذرة العقيدة الدرزية.

وبينما كان الخليفة يسترضي الجند والعامة، كان هؤلاء الآخرون يقررون محاربته بأنكى سلاح لدى المصريين: السخرية!

■ ■ ■

كانت عادة الحاكم أنه يمتطي حماره الرمادي الفاره المعروف باسم «القمر»، مرتديًا عباءة صوفية خشنة مبديًا التواضع والتقشف، يطوف الشوارع والأزقة يراقب بنفسه تنفيذ أوامره وأحكامه. وكان عقابه كحكمه قاسيًا سريعًا موجعًا.

آنذاك كانت القاهرة مدينة «ملكية»، لا يقطنها سوى أهل الحكم، أما معيشة العامة فكانت بالفسطاط.

ولما كان الناس لا يريدون تعريض أعناقهم لسيف الحاكم، فقد ابتكروا طريقة للرد على تأليهه تمثلت في كتابتهم عبارات السباب والسخرية على حيطان الشوارع التي يمر بها، أو وضعها في بطاقات صغيرة وإلقائها في طريقه بحيث يراها إذا مر.

ثم قرر بعضهم تصعيد السخرية لما يعلمون من تحريمه خروج النساء للشوارع، فصنعوا دمية ورقية لامرأة منتقبة، وضعوا في

يدها ورقة بها عبارات السباب بحقه، والطعن في نسبه ونسب آبائه المنتسبين للسيدة فاطمة بنت الرسول محمد ـ وهو ما يطعن فيه كثير من المعارضين للفاطميين ـ ثم جعلوا الدمية في موضع اعتاد المرور به.

فلما رأى المرأة ودُهِشَ لمخالفة بعض النساء أمره، أخذ من يدها الورقة وهو لا يدرك أنها مجرد دمية، ثم لما وجدها متصلبة على وضعها لا تنطق، أمر بكشفها وهو يقرأ ما بالورقة، لينال صفعة السخرية المريرة.

وبهدوئه المعتاد، رجع الحاكم إلى قصره، وقد أزمع بحق أهل الفسطاط أمرًا رهيبًا.

■ ■ ■

لما كان جيش الفاطميين منقسمًا إلى فرق ـ كل فرقة حسب أصولها ـ من مغاربة وأتراك ومشارقة وسودان (أفارقة)، ولما كان السودان هم أطوع الجند للحاكم، بينما المشارقة والترك والمغاربة منقسمون عليه، بين ساخط لبدعة ألوهيته وغاضب لقيامه بقتل ابن عمار كبير قبيلة كتامة المغربية، فقد اختار السودان ليكونوا أداة بطشه بمن اجترأوا على مقامه.

تسللوا فرادى وفي مجموعات صغيرة، وقد توزعوا على مداخل الفسطاط وأزقتها فلم يفطن الناس لأعدادهم، وحسب من يرون فرقة منهم أنهم بعض حرس الليل أو أنهم متوجهون لبعض أعمال الخليفة، فلم يستغربوا طرق هؤلاء شوارعهم.

لم يحس الناس بأي شيء غريب، حتى رأوا شعلة نار تشق الليل هاوية نحو بعض بيوتهم، تلتها شعلات تعرف طريقها جيدًا.

وعندما اشتعلت الحرائق ببعض أنحاء المدينة، عندما سمعوا صليل السيوف تُسحَب من أغمادها.

وعندما أطاحت بأبواب دورهم -في آن واحد- أقدام ثقيلة جاءت من ورائها صرخات قتالية مرعبة.

علم أهل الفسطاط ما داهمهم من أمر رهيب!

■ ■ ■

رأى الشاب من موقفه فوق سطح داره نهرًا أسود من الجند شاكي السلاح، يهدر في الشوارع فيكسح ما أمامه مخلفًا جثثًا ممزقة ودماء تلطخ جدران البيوت.

صكت صرخات بعض نساء بيته أذنيه فهرع يهبط ليجد جند السودان قد اقتحموا البيت في أثناء غفلته فيما يجري من حوله، فذبحوا أباه وجرّوا أمه وأخواته من شعورهن ليلقوهن مع نساء الدرب على قارعة الطريق. اندفع صارخًا وهو يحمل بعض ما طالت يداه من أثاث على سبيل السلاح، لكن ضربة أتته من خلفه فأطاحت رأسه، لينطلق جسده خطوات بفعل القصور الذاتي ويهوي بين الساقين المنفرجتين لأمه التي راح بعض الجند يباعدهما بيده ممزقًا بالأخرى جلبابها عن صدرها، وهو ينادي بعض رفاقه لمشاركته المرح.

هرع الناس كل إلى ما تيسر من عصي وهراوات وسكاكين الجزارين وحجارة الطريق، وقد احتشدوا للدفاع عند دورهم وحرمهم. هالتهم ضخامة أعداد مهاجميهم وكثرة أسلحتهم. داهمتهم صرخات النسوة من حمام عام قريب، دخلوه في غفلة من أوامر الحاكم، فهرع بعضهم يذب عن النساء، بينما راح آخرون يحملون أثاث دورهم

صانعين متاريس ساذجة. جاء البعض من عند عطار قريب بقوارير من الزيت وأمر النسوة أن يغلينه في أوعية ويضعنها على رؤوس أسطح الدور، ليلقوه على المهاجمين لو طرقوها مجددًا.

وراحت صيحات من حين لآخر تصدر من هنا أو هناك أن أمّنوا هذا الجانب، فالجند قد رُؤوا وهم يحتشدون لمداهمته. فصار القوم في خوف وحركة سريعة واعتلى بعض شبابهم الأسطح يستطلع الطرق، بينما هرع آخرون بدلاء الماء يطفئون النار في الدور المشتعلة، وقد ارتفعت أصوات الشيوخ والعجائز بالابتهال والدعاء واستنزال اللعنات على القوم الظالمين، وهم يرون سحابات أدخنة الحرائق تحتشد في سحابة واحدة كثيفة غطت سماء الفسطاط.

▪ ▪ ▪

من موقفه على قمة بعض تلال القرافة القريبة، راح الحاكم بأمر الله ينظر ألسنة اللهب تلتهم المدينة البائسة. رسم على وجهه صلب الملامح علامات الارتياع والحزن، وأشار وهو يقول لمن حوله: «من أمر هؤلاء الملاعين بهذه الفعلة الشنعاء؟».

لم يجبه محيطوه خشية افتضاح علمهم كذبه، وأنه المدبر والآمر بتلك المذبحة. أشار إلى فتى بجواره فأقبل هذا بحماره «القمر». امتطاه واستحثه للسير قائلاً بلهجة عجز عن إخفاء ما بها من شماتة: «هلموا نستطلع الرعية، فقد لاقوا أمرًا عظيمًا».

▪ ▪ ▪

شق بحماره سحابات الغبار والدخان، فاشرأبت أعناق جمع أعيان

وفقهاء الفسطاط المحتشدين على مدخل المدينة وتقدموا منه برجاء.

تداخلت أصواتهم وهم يرجونه أن يرفع عنهم سيف النقمة، وأن يأمر برد جنده السودان عن المدينة.

فنظر إليهم بصمت أثقل عليهم من الأسنة الحداد، ثم جذب لجام حماره وأولاهم ظهره راجعًا إلى القاهرة دون أن ينبس بكلمة واحدة.

■ ■ ■

ثلاثة أيام، قاسى فيها أهل الفسطاط الويلات.

احترق أكثر من ثلث المدينة، نُهِبَت دورها ومحالها، وتلك التي لم تنهب دمرها الحريق. تضرجت شوارع الفسطاط بالدماء واحتشدت فيها الجثث التي لم يستطع ذوو أصحابها دفنها خوفًا من دهمهم، فارتفعت روائح العفونة تزكم الأنوف. احتشدت البيوت القليلة السليمة بنسوة خضبت دماء أعراضهن المسفوحة أسافل ثيابهن، وجلسن متقاربات بين أنين ونواح. أخريات افتُقِدن خلال البحث عمن نجوا من المذبحة، ثم تعالت صيحات منذرة أنهن قد أُخِذنَ سبايا. لم تسلم حتى بنات الأعيان وبعض أشراف آل البيت النبوي من اجتثاث الأعراض، ومن لم يُكتَفَ بهتكها حُمِلَت قسرًا مع من سُبين.

في أثناء ذلك كانت عاصفة تنذر بالهبوب في قصر الحاكم، احتشد عنده رؤساء جند الترك والمشارقة والمغاربة يدمدمون غضبًا.

ـ «يقول أمير المؤمنين إن ذلك لم يكن عن أمره!»، ألقاها أحدهم وقد أكسبه غضبه جرأة غير معتادة في حضرة الحاكم، فخرج قوله يحمل تهكمًا مريرًا بصقه في وجه مولاه.

- «والله لم يكن هذا عن أمري. ومتى أمرت بقتل الناس وانتهاك الأعراض؟ متى عهدتموني قاتلاً لرعيتي هاتكًا حرمهم؟!».

تبادل القادة نظرة تحمل إجابة السؤال، تقدم بعضهم من الحاكم وقال له في لهجة خرجت رغمًا عنه محملة بالاحتقار: «لن يرفض أمير المؤمنين إذًا طلب عبده أن يأمرنا بالتوجه للذود عن أهل الفسطاط وطرد هؤلاء المفسدين منها!».

صمت الخليفة وقد التمعت عيناه بالغضب وتوترت قبضته على ذراع كرسيه، فأردف الرجل محاولاً أن يستحث الحاكم على الموافقة: «إن احترقت الفسطاط خربت الأسواق وتعطلت وانحطت التجارة والبيع، وهذا مما لا يرضي أمير المؤمنين».

- «لا أحب أن تقتتل فئة من جندي مع فئة أخرى!»، قالها الحاكم مبررًا، فمال محدثه عليه مجيبًا وقد بدا في لهجته تهديد مستتر: «ونحن لا نأمن أن تمتد نيران الحريق إلى القاهرة!».

هكـذا إذًا، يهددونـي بالتمرد علـيّ وأنا سـيدهم وولي نعمتهم! الكلاب!

قالها في سره كاتـمًا غيظه، ثم أشار إليهم وهو يقول بلهجة صبغها بالتسليم: «افعلوا إذًا ما ترون، قد فوضتكم ذلك، فافعلوا ما فيه صلاح الأمور».

وبينما انطلق قادة المغاربة والمشارقة والترك للدفاع عن الأهالي، كان الحاكم بأمر الله يستدعي بعض فتيانه فيأمره بحمل السلاح والأقوات وتوجيهها للجند السودان، مع إنذارهم بما قد نواه القادة الذين كانوا بحضرته.

■ ■ ■

منهكين كانوا من السهر على حماية الدروب ورد غارات السودان، وقد افتقر أهل الفسطاط إلى الماء والأقوات من حصار دام ثلاثة أيام بلياليها.

هرع بعضهم إلى الجند مستأمنًا يساومهم بالمال على رد السبايا. غالوا في الثمن فراح الأهالي يجمعون دراهمهم ودنانيرهم يشترون نساء بيوتهم المخطوفات.

وقبل أن يتنفس هؤلاء الصعداء داهمتهم صرخات الارتياع لقيام بعض النسوة المغتصبات بقتل أنفسهن بعد أن رفضن الحياة وقد سلبن أعز ما يملكن.

علت صيحة نذيرة بغارة جديدة، فاحتشد المدافعون بأسلحتهم الساذجة، وقد رأوا أمواجًا سوداء تهدر باتجاههم تعلوها خوذات لامعة وسيوف ورماح مضمخة بالدم. التحم الجمعان لتتفجر الدماء من الأجساد الواهنة ثم ارتفع صوت صائح من بعض الأسطح ينادي بالانسحاب والاستتار، فتراجع الفسطاطيون عن السودان الذين فوجئوا بأسطح الدور تمطرهم بالحجارة وقوارير الزيوت المشتعلة. استتر الجند بدورهم وقد رفعوا دروعهم فوق رؤوسهم.

فوجئ الجمعان بزغاريد النسوة تعلو من شبابيك الدور، تصاحبها تكبيرات وتهليلات جلجلت بها حناجر مراقبي الطرقات. سرعان ما تكشف الأفق عن حشود من جنود المغاربة والأتراك والمشارقة، تندفع على صهوات خيولها مشهرة سيوفها وسهامها ورماحها إلى صدور وأعناق السودان الذين -رغم بلوغهم تحذير الحاكم- قد دوهموا بالهجوم الكاسح.

أشـار قادة جند الغوث إلى الأهالي بالاختبـاء في دورهم وتركهم يتولـون الأمـر، فأغلقوا عليهـم أبوابهم وقـد ارتفعت في الشـوارع أصوات النصـال تتلاقى، تتخللها صيحات قتاليـة بلغات ولهجات مختلفة.

استمر القتال في الدروب يراقبه بعض الناس من شقوق الأبواب وخصاص الشبابيك وقد استحرّ القتل في السودان، حتى كادوا يفنوا عـن آخرهم، لولا صيحـة هتف بها آتٍ من الأفق عـدا بجواده وهو يرفع راية الخليفة ويصيح بالجمعين أن كفوا عن القتال، فأمير المؤمنين قادم ورائي.

انفصل المتقاتلون إلى صفين انحاز كل منهما إلى جانب من الطريق، وقد توسطهما المنادي الذي أركز الطرف السفلي لرايته إلى الأرض. سرعان ما بدا «القمر» حاملاً الحاكم بأمر الله الذي مر بحماره بين الجثث، حتى بلغ وسط الطريق فأحنى الصفان رؤوسهما احترامًا.

▪ ▪ ▪

لما أدرك هزيمة جنده السودان سارع الحاكم لإيقاف القتال خشية فقدان قوته الضاربة، الأمر الذي يعني ارتفاع أسهم معارضيه من الجند.

وقف بين أهل الفسطاط وقد أبدى رفقًا زائفًا بهم، وإشفاقًا كاذبًا عليهم، أجابوهما بتقدير مصطنع ودعاء من حناجر ناقمة.

انتهت فاجعة الفسطاط، ولكن بعد أن كلفت أهل المدينة ثمنًا ثقيلاً لتمردهم على الخليفة.

ورجع الحاكم إلى قصره في القاهرة التي راحت جدران قصورها

يردد همسًا لعنه والضيق بجوره ودمويته.

وفي إحدى تلك القصور جلست أخته «ست المُلك» تدبر أمرًا من شأنه أن يرج المدينة الملكية رجًّا.

■ ■ ■

في ليلة ٢٧ من شوال من العام ٤١١هـ/ ١٣ فبراير ١٠٢١م، خرج الحاكم من بعض سراديب قصره إلى المقطم، ليستطلع النجوم كعادته مصطحبًا اثنين من أتباعه.

وعند المقطم طلب منهما انتظاره، وصعد وحده دروب الجبل على حماره.

وعندما طالت غيبته فتشوا عنه.

وعندما وجدوا ثيابه مضرجة بالدم بعد خمسة أيام وإلى جوارها حماره وقد قطعت قوائمه، علم الجميع أن كابوسًا عمره ٢٤ عامًا قد ارتفع عن أهل مصر.

■ ■ ■

الحاكم بأمر الله هو ظاهرة نفسية قبل أن تكون تاريخية، لا يعني أمره المتخصصين بعلم التاريخ فحسب، وإنما يدير رؤوس المختصين بعلمي النفس والإجرام.

ربما تندر البعض بقوانينه العجيبة وميوله الشاذة، ولكن ما بذل من قتل وسفك للدماء وقطع للأعضاء ليس بالشيء المضحك ولا المثير للتندر، خاصة لمن عاصروه وعانوا حكمه.

من دون مبالغة أقول بكل ثقة إنه لم يعتل عرش مصر حاكم حمل

تلك الدموية وذلك الجنون، ولم يعش أهل مصر رعبًا كالذي عاشوه في عهده.

لا أجد سبيلاً لتفسير أعماله على نحو علمي موضوعي، إلا أنه كان مصابًا بعدد لا بأس به من الأمراض النفسية، فالباحث عن تعريفات للسايكوباثية والسوسيوباثية والبارانويا والسادية يجدها جميعًا تنطبق على شخصيته. هذا الرجل هو موضوع علمي ثقيل لأي باحث في علم الإجرام!

وكعادة بعض من يهوون القراءة الدينية للتاريخ، فإنهم يكتفون بتقييم الحاكم بأمر الله دينيًا سواء من منطلق مذهبه الشيعي الإسماعيلي، أو من منطلق قيامه بتأليه نفسه، متجاهلين أن «الحاكم» -أي حاكم- إنما ينطلق تقييمه من أعماله بصفته كحاكم. بالطبع لا أغفل خطورة تحصين حاكم نفسه بالألوهية وفرضه مذهبه على الناس، وأهمية تقييم ذلك الفعل ودلالاته وتحليله، وإنما أعني بانتقادي الاكتفاء بالحكم على الشخص التاريخي من مجرد مذهبه ودينه؛ لما في ذلك من مخالفة لضوابط الموضوعية العلمية.

على أي حال فإن «حالة» الحاكم بأمر الله الفاطمي، هي من الحالات المثيرة تاريخيًا والتي استحقت اهتمام الباحثين، بل واستفزت قريحة الأدباء فأبدعوا أعمالاً أدبية مثل مسرحية «سر الحاكم بأمر الله» لعلي أحمد باكثير، أو رواية «مجنون الحكم» للكاتب المغربي بن سالم حمّيش.

ولكني أرجو حقًا أن يعتني البعض بوضع دراسة علمية، يشترك فيها المختصون بالتاريخ مع أهل علمي النفس والإجرام؛ لتحليل وإعادة قراءة هذه الشخصية المثيرة الثرية.

مصادر:

١- اتعاظ الحنفاء بمعرفة الخلفاء: المقريزي
٢- تاريخ الفاطميين في مصر وبلاد الشام وشمال إفريقيا: أ. د. محمد سهيل طقوش
٣- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي
٤- بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس
٥- الفاطمية دولة التفاريح والتباريح: جمال بدوي
٦- تاريخ مصر في العصور الوسطى: ستانلي لين بول
٧- تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان
٨- سيرة القاهرة: ستانلي لين بول
٩- مصر في العصور الوسطى: د. محمود الحويري
١٠- الكامل في التاريخ: ابن الأثير
١١- البداية والنهاية: ابن كثير
١٢- أطلس تاريخ القاهرة: أحمد عادل كمال

ملاحظات: أرجو من القارئ مراجعة الفصل ١٩ من كتابي «دم الخلفاء»، للمزيد من التفاصيل عن اغتيال الحاكم بأمر الله الفاطمي.



VII

الحَكَم الأمــوي..
صاحب الحفرة والربض



الأندلس، قرطبة ١٨٩هـ/ ٨٠٥م

نصف قرن مضى منذ أن قامت دولة بني أمية في الأندلس، قبلها لم يكن أحد يتوقع أن ذلك الفتى الهارب من الشام عبر مصر وشمال إفريقيا بصحبة فتاه بدر، يمكنه أن يعبر البحر فيؤسس لنفسه دولة قوية مترامية الأطراف. عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحَكَم، اسمٌ طالما أقض مضاجع أعدائه وعلى رأسهم ثاني خلفاء بني العباس أبو جعفر المنصور، الذي راعته قوة ذلك الأموي الطموح في التصدي لما يحاك له من مؤامرات، وما يواجهه من تحديات، حتى أطلق عليه المنصور لقب «صقر قريش»، وراح يردد: «الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان».

أقام عبد الرحمن ـ الذي عُرِف بـ«الداخل» لدخوله الأندلس منفردًا في بدء أمره ـ أركان الدولة وقوّى بنيانها، ثم أورثها لابنه هشام المعروف بـ«الرضا» لتقواه وورعه، والذي أورثها بدوره ابنه الحَكَم الذي لم يكد يجلس على عرشه في العام ١٨٠هـ/ ٧٩٦م حتى تكالبت عليه الرزايا والخطوب الفادحة.

■ ■ ■

أطـرق بوجهه الأسـمر متفكرًا فيـا نزل به منـذ تربع على كرسي الحُكم، حتى زاد جسده نحولاً وشعره شيبًا رغم عدم تجاوزه منتصف ثلاثينـات عمـره. لم يكد يلتقط أنفاسـه حتى ثار عليه عـماه عبد الله وسليمان وقد طالب كلاهما لنفسه بالإمارة. حاول الأول أن يتحصن بمدينة سرقسطة (ساراجوس) المتمردة دومًا، فلما لم يجد استجابة من ثوارها هرع إلى إمبراطور الفرنجة شارلمان في عاصمته إكس لا شابيل (في آخن الألمانية حاليًا)، مسـتجديًا إياه أن يعينه على بغيته، إلا أنه قد فشل في مسـعاه فرجع إلى الأندلس ملتمسًا العفو من ابن أخيه الذي أجاب طلبه وأقره على العيش بمدينة بلنسـية (فالنسيا)، ليُعرَف ذلك العم باسـم «عبد اللـه البلنسـي»، وقد أمّنه ابن أخيه فاسـتحضر ابنه عبيد اللـه وزوّجه بعض أخواته وعيّنه واحدًا من قادة جيشه.

وأما عمه سليمان الذي كان في طنجة حين تولى الحَكَم الأمر فقد عبر البحر مع بعض البربر وحاول غزو قرطبة، إلا أنه هُزِمَ وأُسِرَ فلم يجد ابن أخيه بدًّا من إعدامه للقضاء على أي احتمال للغدر من قِبَله مستقبلاً.

ولأن المصائـب لا تأتي فرادَى، ففي أثناء قمعـه هاتين المحاولتين لانتـزاع مُلكـه، كان شـارلمان الـذي أطمعـه اضطـراب الأوضـاع الداخلية في ضرب الإمارة الأموية، يبعث جيوشه عبر جبال البرانس (البيرنيه) لتنتزع من الأندلسـيين مدينة برشـلونة التي سـتصبح بعد ذلـك بذرة تنبت إمارة قطلونيـة (كاتالونيا)، لتصبح صداعًا في رأس الحكام المسلمين.

وتدلي مملكة أشتوريس (أستورياس) المسيحية في الشمال بدلوها،

...على الأراضي الأندلسية ما يضطر السلطة إلى إرسال الحملات التأديبية لردعها.

هذا فضلاً عن المتاعب الآتية من مدينتي سرقسطة وطليطلة (توليدو)، اللتين ما انفكتا تقومان بالثورة تلو الأخرى على الحكم العربي برمته وليس الأموي فحسب.

لم يكن كل هذا يكفيه لتضاف إلى رزايا الحكم تلك المؤامرة التي نقل أنباءها إلى مسامع الحكَم ابن عمومته محمد بن القاسم، والتي يدبرها الفقهاء وبعض أعيان قرطبة ضد أميرهم لخلعه من عرشه!

■ ■ ■

الفقهاء، لطالما كانوا شوكة في جنب دولته.

فلأن الإمارة الأموية قامت أصلاً ككيان منشق عن الخلافة العباسية، فإن مؤسسَيها عبد الرحمن الداخل ثم ابنه هشام الرضا، كانا على علم بمدى حاجتهما إلى الدعم الديني في مواجهة الدعاية العباسية التي اتهمت الأمويين بالأندلس بأنهم «خارجيون منشقون عن خليفة المسلمين». الأمر الذي حال دون تلقب أمراء بني أمية الأندلسيين بالخلافة ـ وهو وضع سيستمر حتى يغيره مستقبلاً عبد الرحمن الناصر لدين الله ـ ودفعهم للتقرب من علماء وفقهاء الدين لإكساب حكمهم الشرعية المطلوبة، فراح هؤلاء يتخذون من احتياج الأمويين إليهم ذريعة للتدخل في شؤون الحُكم، وهو ما لم يستطع أبوه وجده ـ رغم ما اتصفا به من حزم ـ أن يمنعاه.

أما هو فمنذ اليوم الأول لتربعه على العرش قد نوى تغيير هذا الوضع. لم يكن أصلاً يميل لمجالس هؤلاء الفقهاء وحواراتهم،

بينما كان فيه ميل لمجالسة الأدباء والشعراء وأهل الطرب وهو ما اتخذ سـلاحًا للدعاية ضده مـن قِبَل الفقهاء السـاخطين على ما فقدوا من مكانة في البلاط الأموي.

بالله ماذا يريدون منه؟ ألم يشمر ساعديه عن عمل دؤوب في تقوية الدولة ورفع شأنها؟ أليست بباب قصره قد ارتبطت ألف فرس معدة دومًا للجهاد إذا دهم دولته ما يهددها؟ ألم يكن دائمًا مسارعًا بمد يد الغوث للثغور التي هددها أعداء الخارج؟ حتى برشلونة المفقودة لم يقصر في حقها، لولا انشغاله بقمع تمرد عمّيه الآبقين!

فأي بأس في أن يروّح عن نفسه بمجلس طرب أو شعر أو رحلة صيد عابرة؟ ألا يشعر هؤلاء الفقهاء بالخجل من أنفسهم وهم يؤلبون العامة عليه، في مساجدهم ومن فوق منابرهم، بينما الدولة في أمسّ حاجة إلى الاتحاد خلف رجل واحد، وقد تكالب عليها أعداء الخارج يريدون اقتطاع أجزاء من جسدها؟ ألا يشعرون بالعار من افترائهم عليه حتى بلغوا أن يحرضوا الناس على انتظار موكبه ليصفقوا عليه ساخرين وينادوه بالمخمور والمستهتر بشرع الله؟ أي حماقة تلك وأي إساءة للأدب مع ولاة الأمر؟!

لم يكفهم هذا، حتى راحوا يدبرون المؤامرات لخلعه عن عرشه.

دار هذا في ذهنه وهو يسترجع ما اتفق عليه مع ابن عمومته الذي حاول الفقهاء استقطابه، ووعدوه أن يخلف الـحَكَم على كرسيه إذا هو -ابن العم- انحاز إليهم، ولكن الرجل كان مخلصًا لأميره وعميد آل بيته، فسارع بإنذاره ما يدبر له، أهو الإخلاص أم لعله الخوف من عاقبة الفشل أو افتضاح الأمر؟ لا يهم، فالنتيجة واحدة. وحل هذه

الأنشوطة المعدة لخنق الحَكَم قد بات رهين حسن تصرف ابن عمه والتزامه بما اتفقا.

■ ■ ■

«قد استخرت اللـه فيما عرضتم عليّ من الأمر».

تطلعـت أبصار القـوم إلى وجه محمـد بن القاسـم الأموي الذي قالـها، ثم صَمت، وهو يدور بعينيه في وجوههم قبل أن يردف: «وقد عزمت أمري على المضي معكم فيما أزمعتم فعله».

ابتسم الفقيه طالوت بن عبد الجبار ـ أحد رؤوس المدبرين على الحَكَم ـ وهو يقول ببطء: «ولكن؟».

بادله ابن القاسم ابتسامته مبديًا الإعجاب بفطنته وهو يقول: «ما زلـت مستوحشًـا من الأمر، أصدقكـم القول، فـإني لم أر من مدبريه غيركـم، وأنتـم وإن كنتـم وجوه القـوم وأعلام الفقهاء فـإن هذا لا يكفي لخلع الحَكَم عن كرسـيه، فإن كانت العامة قد أبغضته والفقهاء قـد خلعوا طاعته إلا أنه ما زال يملك بيوت المال والسـلاح والجند، وبسـاحة قصره خمسـة آلاف من المماليك الصقالبة (العبيد المجلوبون من البلقان وشرق أوروبا وحوض المتوسط ويقال إن أصلها الفرنسي esclave بمعنى عبد، أو أن صقالبة هو أصل الكلمة)، شاكي السلاح يذودون عنه، فكيف لجمعكم القليل أن يغني فيما تريدون؟».

تبادل ابن عبد الجبار النظرات مع رفاقه، ثم تدخل فقيه آخر، يحيى بن يحيى الليثي فسأل محمد بن القاسم: «وإن علمت بأننا لسنا منفردين في الأمر، وأن وراءنا جمع كبير ينتظر أمرنا ليؤازرنا؟».

تراجع الأموي في مقعده مجيبًا: «فهلموا أخبروني من هم ليطمئن قلبي أن أمركم إلى إفلاح».

عـاد القـوم يتبادلون النظـرات ثـم تقاربت رؤوسـهم في نقاش هامـس، قطعـه ابـن القاسـم صائحًا بصـوت اصطنـع فيـه التبرُّم: «هلمـوا! تقولـون إذا أفلحنا فأنت أميرنا! وها أنتـم لا تأمنونني على أسماء القائمين في تدبير دولتي! أي أمير إنا إذًا؟!».

حسـم قولـه أمرهـم فرفعـوا رؤوسـهم إليـه، بينما طالـوت بن عبد الجبار ينبئه أسماء شركائهم في الأمر.

■ ■ ■

لم تنقض الليلة إلا والجند يداهمون بيوت اثنين وسبعين رجلاً من فقهاء وأعيان ووجوه قرطبة، ويسوقونهم إلى سجن المدينة.

ولم تتوسط الشمس كبد السماء إلا وأهل قرطبة ينظرون برعب إلى اثنين وسبعين جثة مصلوبة بطول نهر المدينة، بينها جثتان لاثنين من أعمام الحَكَم، بينما أفلت الفقهاء يحيى بن يحيى الليثي وطالوت بن عبد الجبار وعيسى بن دينار فارين من المدينة.

ورغم قسوة ردة فعل الحَكَم وسرعتها، لم يستغرب القرطبيون أن يبادر في ليلة واحدة إلى قتل هذا العدد من وجوه القوم، وهل وقعة «الحُفرة» ببعيدة عن ذاكرتهم؟

■ ■ ■

طليطلة، قبل ثمان سنوات، تحديدًا في العام ١٨١هـ/ ٧٩٧م

طليطلة، درة الأندلس، لطالما شمخ أهلها بأنوفهم وهو يتيهون فخرًا بمدينتهم العريقة. لم تكن كأي مدينة، فإن كانت قرطبة هي حاضرة الإمارة الأموية ومركز الحل والعقد، فإن طليطلة كانت دومًا مدينة الملوك. كانت عاصمة ملوك القوط الذين انتزع منهم المسلمون الأندلس، حصينة متربعة في مقام مرتفع عمّا حوله من الأرض يحيطها النهر من عدة جوانب. تقول الأساطير إن هواءها حسن حتى إن الغلال المحصودة تبقى في صوامعها سبعين عامًا لا تفسد ولا تتغير، وإن بها قبور أهل الكهف، وإنها قد زارها النبيان داوود وسليمان، وإن مائدة هذا الأخير كانت مما غنم قادة الفتح حين دخلوها. وفيها كانت تُعقَد في العصر القوطي البائد المجامع الكنسية، أما في عصر المسلمين فقد كانت مركز الكنيسة الكاثوليكية الأندلسية.

كان أكثر أهلها من فئة «المولدين»، وهم الذين اعتنقوا الإسلام من الإسبان ومن جاءوا من نسلهم، ومن «المستعربين» أي ممن بقوا على دينهم من أهلها ولكنهم قد اكتسبوا اللسان العربي، فكانت الفئتان تواجهان تَرَفُّع الطبقة العربية الحاكمة باعتزازهما بمدينتهما العظيمة.

كان من الطبيعي إذًا أن تطل الثورة برأسها من حين لآخر ضد حكم قرطبة، وكان «المولدون» هم عادة زعماء الثورة ومادتها.

لم يكد الحَكَم يتولى الإمارة حتى أعلن الطليطليون في العام التالي ثورة وتمردًا عليه، بزعامة رجل اسمه عبيدة بن حميد، ولما كانت المدينة

حصينة وحصارها صعبًا، فقد رأى الحَكَم أن يعامل ثورتها بالحيلة.

أرسـل إليها أحـد رجاله ـ عمروس بن يوسـف ـ والذي كان من فئـة المولدين، وكان اختياره من هذه الفئـة لمواجهة تلك الثورة لحيلة أريـدت بها. وكلفـه القضاء عـلى رأس الثورة، فتوجـه عمروس إلى قرب طليطلة ليعسكر في هذا الموضع.

وفي المسـاء فغـرت أبواب طليطلـة فاها عن كوكبة من الفرسـان تدثـرت بالليل وانطلقت حتى بلغت معسـكر عبيدة. وحين وجدوه واقفـا ينتظر، ودون كلمة واحدة، ترجـل أحدهم ووضع عند قدميه صندوقًـا صغيرًا فتحه ليجد فيه الرأس الدامـي لعبيدة بن حميد. بقي يتأمـل الرأس قليلاً ثم أشـار إلى بعض الجنـد بحمله والذهاب به إلى قرطبة، فصدع هذا بالأمر بينما عمروس يدعو هؤلاء القوم من عشيرة بني مخشي من أهل طليطلـة للترجُل والحلول ضيوفًا، ثم التوجه معه إلى بلاط الأمير لنيل مكافأتهم على ما قدموه من خدمة للدولة.

وفي الطريق إلى قرطبة، وبينما هو نائم، أيقظت عمروس أصوات استغاثة من خيام ضيوفه، تململ في فراشه وحاول التقلب ليكمل نومه غير مبالٍ بها، فهو العالم بما كان يجري وهو المدبر له.

فكي لا ينكشف أنه هو من أمر بني مخشي بقتل عبيدة بن حميد، كان عليهم أن يلحقوا به، فدبّر لبعض البربر ممن لهم ثأر عند بني مخشي أن يتسللوا إلى معسكره ليجهزوا على هؤلاء بسيوفهم ثم ينسحبوا ليبدو الأمر كـ«جريمة ثأر» لا أكثر.

وهكذا تلقت الثورة في طليطلة ضربتها الأولى من الحَكَم.

■ ■ ■

رغم ذلك لم تطفأ نار الثورة، فإن كان عبيدة قد قُتِلَ ففي طليطلة أكثر من ثائر يُخشَى تدبيره.

ومرة أخرى يرسل الحَكَم الأموي عمروس بن يوسف إلى المدينة المتمردة، ولكن هذه المرة بصفته واليًا عليها، ويبعث معه كتابًا من الأمير إلى أهل طليطلة يتلطف بهم ويخبرهم أنه قد اختار لهم هذا الرجل ليأنسوا به لكونه واحدًا منهم، ثم ليصلح ما قد أعلنوا تذمرهم منه من الأمور ويزيل ما سبب سخطهم.

وفي طليطلة راح عمروس يتقرب من أهل المدينة وأعيانها، خاصة رؤساء الثورة منهم، وصار يسر إليهم ببغضه العرب والأمويين ورغبة تراوده في خلع طاعة الحَكَم لكنه يؤجلها إلى حين.

سرعان ما اكتسب الوالي الداهية ثقة ثوار المدينة، فأطلعوه على أسرارهم وقد عدّوه واحدًا منهم وشريكًا في أمرهم.

ولّما كانوا قد أبدوا له ضيقهم بأن جند الأمير يعيشون في مدينتهم ويضايقون أهلها، عرض عليهم أن ينقل هؤلاء الجند إلى قلعة يبنيها قريبًا من المدينة، إلا أنهم أبدوا موافقتهم أن تتوسط القلعة مدينتهم.

وتم ذلك بالفعل، وانتقل جند الحَكَم إلى القلعة ليزداد رضا الطليطليين عليه واطمئنانهم لحسن نواياه تجاههم. وسارع الوالي بمراسلة سيده ينبئه أن قد تم الجزء الأول من الخطة وحان موعد إتمام جزئها التالي.

حشد الحَكَم جيشًا بقيادة وولي عهده عبد الرحمن، وأعلن أنه قد أمره بالتوجه لقمع تمرد بالثغور الشمالية، فخرج الجيش ومر بطليطلة وتجاوزها، ثم عاد أدراجه وقد أُعلِنَ انتهاء الحاجة إلى إرساله إلى الجهة المعلنة.

وفي طريـق رجوعه لقرطبـة توقف الجيش عند طليطلة، فسـارع عمـروس بإقناع سـادات المدينـة ووجهائهـا أن الواجـب والتقليد يقضيـان بدعـوة ولي العهد لزيارتها واسـتضافته بهـا، وبالفعل وجه هؤلاء الدعوة للفتى الذي قبلها فدخل المدينة وأقام بقلعتها.

ولأنه «من أهل الواجب»، فقد كان على والي المدينة -عمروس- أن يقيم مأدبة عشاء لضيفه وأن يدعو إليها وجوه القوم.

■ ■ ■

بباب القلعة وجدوا الوالي يقف لاستقبالهم بنفسه، كانوا عشرة من وجهاء طليطلة، ترجلوا عن خيلهم التي هرع الخدم يسوقونها إلى حيث تلقى العلف والماء، بينما سار الوجهاء مع مضيفهم متوجهين إلى قاعة الطعام.

في أثنـاء مرورهـم ببعض ممـرات حديقـة مزروعة في محيـط بناء القلعة، أبدى أحدهـم ملاحظة عن ارتفاع أصوات المزامير والطبول بشـكل مبالغ فيه، فضحك عمروس مجيبًا بمرح مصطنع وهو يربت: «ولي العهد كأبيه، رجل يحب الطرب، ولا بأس بلهو ليلة بعد ما لاقى من تعب السـفر»، ثم أردف مسـتحثًا إياهم على الإسراع في المسـير: «تعالوا تعالوا، سنمرح كثيرًا في هذه الليلة».

لم يدركوا مقصده إلا عندما انحرفوا في سيرهم عبر أحد ممرات الحديقة، ليجدوا أنفسهم في موضع شبه مظلم إلا من مشاعل حملها بعض الجند، بينما وقف إلى جوارهم بعض زملائهم وقد أشهروا سيوفًا لمعت نصالها تحت أضواء المشاعل.

وحـين رأى الوجهـاء رؤوسًـا مجموعـة في كومـة عاليـة، وحين

وجدوا في طريقهم حفرة واسعة استلقت بها أجساد انتمت لها يومًا هذه الرؤوس، وحين أحاطت بهم حلقة الجند وقد ضرجت سيوفهم دماء لم تتجلط بعد. فهم هؤلاء -متأخرين- سبب ارتفاع أصوات الموسيقى والطبول، وأدركوا معنى المرح عند مضيفهم، الذي أشار بيده إلى الجند أن قوموا بعملكم بينما أحضر لكم مجموعة جديدة من الضحايا.

▪ ▪ ▪

استمرت المذبحة طوال الليل، كان الوالي يستقبل الضيوف عشرة عشرة عند باب القلعة، بحجة تجنب الازدحام، فيقودهم إلى قبرهم الجماعي الذي لم تمض الليلة إلا وقد ضم سبعمئة جثة من زعماء طليطلة الثائرة.

وفي الصباح استيقظت المدينة على خبر فقد كبرائها غدرًا، فأدركت أن الثورة قد أطيح بها قبل أن تبدأ، وأن حصانة موقعها ومتانة أسوارها لم تحولا دون هزيمتها دون معركة أو قتال.

▪ ▪ ▪

قرطبة، ١٨٩هـ/ ٨٠٥م

استرجع أهل قرطبة أخبار «واقعة الحفرة»، وهم ينظرون إلى الأجساد المصلوبة التي فاحت منها رائحة عفن ثقيلة.

لم يكتف الحكَم بإعدام المتآمرين، سارع بتحصين قصر الإمارة

فرمم أسواره ورفع بنيانه، وحفر الخنادق حوله، واستكثر من مماليكه المعروفين باسم «الخُرس» لجهل أكثرهم بالعربية، وراح يرتبهم في دوريات حراسة مشددة. بث العيون والآذان بين أهالي عاصمته ينقلون إليه ما يدور في مجالسهم ليأمن أي تدبير مستقبلي منهم.

ورغم ذلك، طمع ثوار قرطبة ممن لم ينلهم بطش الأمير في مباغتته بضربة قوية، ففي العام التالي لمؤامرة الفقهاء والأعيان استغل الثائرون غيابه في بعض غزواته، فحملوا السلاح وهاجموا قصر الإمارة ومنشآت الحكومة للاستيلاء عليها، إلا أن عيونه في عاصمة ملكه سارعوا بمراسلته بالخبر، فعاد وقد قطع المسافة في ثلاثة أيام، ودخل المدينة ليقبض على المتآمرين الذين كشفوا أنفسهم بتسرعهم، وقام بإعدامهم.

هنا علم ثوار قرطبة أن أمامهم كثيرًا من الوقت ليحاولوا مجددًا خلع حاكمهم الذي أبغضوه!

■ ■ ■

قرطبة، ٢٠٢هـ/ ٨١٨م

ثلاثة عشر عامًا مضت منذ آخر محاولة بُذِلَت للإطاحة بالحكَم.

استكان أهل العاصمة لحكم هذا الأخير، وقد أبدى -رغم تشدده الأمني- الرفق بهم، وأبدى الاجتهاد في تأمين ثغور الدولة وإغاثة أهل ثغورها باللازم لدفع عدوهم عنهم. سعى أن يضفي عظمة على مُلكه فاستحدث رسومًا لبلاطه، وحظي برعايته العلماء والأدباء

وأهل الفنون حتى قيل بعد ذلك إنه هو من أضفى على قرطبة بريقها الذي فاق غيرها. اشتهر بتشجيع الأدب والعلم، فظهر بين القرطبيين شعراء مثل عباس بن ناصح، وأدباء مثل يحيى الغزال، وعلماء بقامة عباس بن فرناس. عُرِفَ بالتزامه العبادات واحترامه تعاليم المذهب المالكي -الشائع في الأندلس- رغم ميله لمجالس الطرب وما شاع من شربه الخمر أحيانًا. شُهِدَ لأحكامه بالعدل رغم القسوة التي لم يكن يتردد في إبدائها إزاء أي تفكير في الثورة أو التمرد. فحار القوم في أمره؛ أطاغية كان أم حاكمًا عظيمًا؟

رغم ذلك، كان قد استوحش من أهل عاصمة ملكه، فاعتزلهم وتجنب الاختلاط بهم، فلم يثوروا عليه ولكنهم لم يشعروا بالمودة تجاهه.

ورغم استكانة أهل قرطبة فإن حي «الربض» من ضواحيها كان يشهد جذوة نار تستعد لتستشري في المدينة كلها، ففي الحي كان يعيش الحرفيون والمزارعون وأهل الطبقة الدنيا، جنبًا إلى جنب مع الفقراء من الفقهاء الذين حملوا لواء التمرد من كبرائهم الفارين من بطش الأمير بهم حين تآمروا ضده.

راح الربض يدمدم بالسخط على أميره الذي أشاع الفقهاء بينهم أنه مخمور فاسق، لم يرث عن أبيه وجده حبهما العلماء. كان هؤلاء الفقهاء ينقمون عليه إزاحته إياهم عن مكانتهم فصاروا يشنعون عليه في كل مجلس وكل تجمع. وما زاد الطين بلة هو قيامه بفرض ضريبة العُشر على الأطعمة، فأثار تذمر الفئة الفقيرة التي شكلت مادة أهل حي الربض. وبات الحي ينتظر شرارة واحدة لينفجر في وجه الأمير.

لم تتأخر تلك الشرارة، ففي يوم وقع شجار بين أحد جند الحَكَم

وأحد الحدادين، فقتل الجندي الحداد فهب القوم إلى الجندي فقتلوه، ثم حملوا ما تيسر لهم من سلاح وتوجهوا في جمع حاشد إلى قصر الإمارة، وقد قرروا اقتحامه والإطاحة بساكنه يقودهم الفقهاء!

■ ■ ■

على سطح قصره وقف ينظر إلى المعركة الدائرة بين جنده والثائرين ضده. ميّز بينهم يحيى بن يحيى الليث وطالوت بن عبد الجبار، الهاربين منه في أعقاب مؤامرتهما الفاشلة.

لم تتبدل تعبيرات وجهه الهادئة حتى عندما لحظ تسلل بعض الثوار إلى ساحة القصر، ليسارع جنده بردهم عنها.

بقي القتال مستعرًا حينًا وهو واقف في ثبات كتمثال صلب. أخيرًا خرج عن جموده واستدعى قائديه عبيد الله بن عبد الله البلنسي -ابن عمومته- وإسحاق بن المنذر، وقد أزمع أمرًا رهيبًا بحق أهل الربض الآبقين.

■ ■ ■

عندما داهمهم الجند في صفوف شديدة التماسُك لم يزدهم هذا إلا تصميمًا، فألقوا بأنفسهم على جند الأمير وقد صار كل يدافع عن ثباته. تلاقت أطراف الهراوات والسكاكين الساذجة مع السيوف الثقيلة والرماح الحادة، فاستطاعت هذه الأخيرة أن تشق لنفسها طريقًا في كتلة اللحم البشري الثائرة.

ارتاع قادة الثائرين لهذه الثغرة التي نشأت بين صفوفهم، فارتفع صريخهم أن اثبتوا يا رجال، فالنصر قريب. أخيرًا التأمت الثغرة وقد

[خر]ج جند الأمير من دائرة الحصار وعبروا النهر في هيئة الفرار، فعاد [ا]لقادة يصيحون بالثوار ألّا تتبعوهم واجعلوا ثقلكم في مواجهة [ا]لقصر.

استبسل المهاجِمون وحاول بعضهم تسلق الجدران السميكة [ا]لزلقة، إلا أن أسنان رماح المدافعين عنه ردتهم، فصاروا إلى حجارة [ا]لطريق يلقونها على الواقفين فوق سور القصر في محاولة لإسقاط [ب]عضهم وفتح منفذ يعبرون منه.

وبينما هم في كر وفر والتحام وانفصال، ارتفع بينهم صوت [ا]لصارخ الغوث الغوث، فإن بيوت الربض تحترق!

وصرخ آخر أنه قد رأى بأم عينيه جنود الحَكَم المفلتين من الحصار [ي]ندفعون إلى الحي، فيلقون في بيوته ومحاله النار.

فاندفع الجمع الثائر يغادر موقفه عند القصر كثوب انكشط عن مرتديه، وصار الناس في تدافع إلى حيهم الذي ارتفعت منه ألسنة اللهب وتكونت فوقه سحابات دخان كثيفة. وراح كل إلى بيته أو محل رزقه يحاول إطفاء ما اندلع فيه من نيران عاتية أتت عليه. وإذ هم في هلع وفزع ارتفعت من ورائهم صرخات قتالية متوحشة وارتفع غبار انشق عن جحافل من الفرسان قد أشهروا عليهم السلاح. فراحوا يتدافعون لا يلوون على شيء وقد أخذتهم السيوف فهبرتهم من كل جانب. فتفرقوا في الأزقة والجُند يطاردونهم ويأخذونهم قتلاً وأسرًا.

ومجددًا فر الفقيهان يحيى بن يحيى وطالوت بن عبد الجبار تاركين أهل الربض لمصيرهم.

وقبل أن ينتهي اليوم، كانت الرياح تحمل إلى قرطبة من جهة ربضها لفح النار ورائحة الدم.

وعند النهر انشقت صفوف الجند عند موكب صغير على رأسه كان الحَكَم الأموي.

وقف صامتًا يتأمل جنده وقد وقفوا على ضفة النهر الكبير، وإلى جوار كل منهم أسير من الربضيين ركع والسيف على عنقه، وإلى جواره قد ارتفعت خشبة طويلة.

وعندما أشار بيده ثم أدار عنق فرسه راجعًا إلى قصره، شيعته أصوات مطارق ثقيلة تهوي على مسامير ضخمة اخترقت عظامًا آدمية لثلاثمئة مصلوب، ارتفعت صرخاتهم الشنيعة وهم يعلقون منكسين بطول ضفة النهر.

■ ■ ■

من لم يقتلهم السيف من ثوار الربض فروا مغادرين قرطبة التي باتت عليهم محرمة بأمر أميرها.

انقسموا إلى ثلاث مجموعات، توجهت أولاها إلى طليطلة علها تجد ثورة تشترك فيها، وثانيتها عبرت البحر إلى المغرب لتستقر في مدينة فاس، أما الأخيرة فقد ركبت البحر حتى بلغت الإسكندرية في مصر التي كانت تمزقها حروب الولاة العباسيين، فاستغلت انشغال هؤلاء لتحتل المدينة وتقيم فيها حكمًا أشبه بالجمهورية، لم تمض سنوات حتى أسقطه العباسيون ليعود هؤلاء لركوب البحر ويتوجهوا إلى جزيرة كريت، فينتزعوها من حكم البيزنطيين ويقيموا فيها دولة استمرت لأكثر من قرن وربع القرن من الزمان.

وأما حي الربض -مهد الثورة- فقد أمر الحكم بهدم دوره ثم حرث أرضه وزراعتها، ولم يُسكَن حتى انتهاء دولة الأمويين بالأندلس.

ويعكس ما انتظر الحَكَم ما قام به، لم يسترح في نومه، فقد داهمه الندم لما كان منه بحق الربضيين وبقي يفصح عن ندمه تارة بالكلام وتارة بالإكثار من العبادة، بل وحاول أن يعيد ربط ما انقطع من حبال الوصل مع فئة الفقهاء، وانهمك كذلك في حروبه الخارجية لتأمين بلاده من الفرنجة والقوط حتى وافته المنية في العام ٢٠٦هـ/ ٨٢٢م ليخلفه ابنه عبد الرحمن.

■ ■ ■

حار المؤرخون في أمر الحَكَم الأموي، فبين متهم له بأنه طاغية دموي لم يتورع عن اقتراف أبشع الجرائم، ومدافع عنه بأنه كان يريد أن يحمي الدولة من الحكم الديني «الثيوقراطي»، اختلفوا.

والواقع أن من الصعب أن نقيّم حاكمًا على أساس جانب واحد من سياسته، فنُشيطنه أو نضفي عليه صفات القديسين.

كان الحَكَم أميرًا قويًا صاحب همة عالية في الارتقاء بدولته والدفاع عنها، وكان في الوقت نفسه قاسيًا عنيفًا. فلأجل تقييمه علينا أن ننظر إلى أعماله كلها، لا أن ننتقي منها ما يخدم النظريات والآراء السابقة.

ومما يؤخذ عليه أنه لم يلتزم حكمة أن «آخر العلاج الكيّ»، فهو لم يعالج أسباب الثورة وإنما سارع بالقضاء على أعراضها الظاهرة، فبقيت ذيولها بعد ذلك تؤرق خلفاءه.

وعلى أي حال، فإنه ـوهذا ليس تبريرًا لأفعاله بل تفسيرًا لما كان «ابن عصره» الذي اتسم بالعنف الشديد، وإن كان من المفترض بالحاكم أن يخرج بدولته من دائرة العنف، إلا أنه لم يكن بأهل لتلك المهمة الصعبة، رغم أهليته ـالتي أثبتهاـ لإقامة دولة قوية مزدهرة مرهوبة الجانب من جيرانها وأعدائها.

المصادر:

١- تاريخ المسلمين في الأندلس: أ. د. محمد سهيل طقوش
٢- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية: الأمير شكيب أرسلان
٣- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: ابن عذاري
٤- ملامح تاريخ المغرب والأندلس: د. حسين مؤنس
٥- أطلس تاريخ الإسلام: د. حسين مؤنس
٦- الكامل في التاريخ: ابن الأثير
٧- نقطة العروس في تواريخ الخلفاء: ابن حزم الأندلسي
٨- العبر وديوان المبتدأ والخبر: ابن خلدون
٩- تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان
١٠- حضارة العرب: جوستاف لوبون
١١- دولة الإسلام في الأندلس: محمد عبد الله عنان
١٢- معجم البلدان: ياقوت الحموي



VIII

صلاح الدين الأيوبي..
الطريق الدامي إلى السلطة



مصر، القاهرة، ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م

تشاغل بتعديل وضع عمامته البيضاء الموشاة بالذهب. أطرق حينًا ثم رفع رأسه إلى الجندي التركماني والترجمان المصري الواقفين بحضرته، وسأل هذا الأخير مستوثقًا: «أواثق أنت من محتوى الرسالة؟».

أكّد المترجم: «أجل يا سيدي، وأنا واثق كذلك من أنها مذيّلة بتوقيع مؤتمن الخلافة جوهر الطواشي».

عاد الجندي يروي الخبر للمرة الثانية أو الثالثة: «وجدتُ بعض العبيد السودان قد مر بي عند قرية بلبيس، فلفت نظري عدم اتساق نعليه الجديدين مع ثيابه الخَلِقة. فارتبت في أمره، فلما أخذت النعلين وجدت بأحدهما قلقلة كأن شيئًا مخفيًا به، ففتقته لأعثر على هذه الملطفة (الرسالة السرية) مخفية بين بعض خياطاته».

عاد صلاح الدين يوسف بن أيوب يجول بعينيه في الحروف الأجنبية للرسالة، ثم وجه سؤاله للترجمان: «ومن تراه يجيد لغة الفرنجة؟».

- «إن صح ظني، فإن كاتبًا يهوديًا من أعوان القصر عرف بصيا...
مثل هذه الرسائل قد كتبها، قد خبرت خطه وأسلوبه».

فأمر صلاح الدين الجندي: «إليّ إذًا بهذا الكاتب»، ثم عاد يوجه حديثه للمترجم: «وأنت، اكتم ما قد علمت».

فسأله التركماني: «ومؤتمن الخلافة؟».

تراجع يوسف بن أيوب في مقعده وهو يقول بابتسامة اختبأت وراءها انفعالاته: «دعه يعلم أننا قد كشفنا أمره، ولكن لا يقترب أحد منه تحسبًا لأن يكون قد اتخذ تدبيرًا لأمره إذا أوقعنا به».

غادره الرجلان، فخلع العمامة التي ضايقه ثقلها بما حُمِّلَت من طرز وتزيين اشتهرت به أزياء وزراء الفاطميين. ألقاها جانبًا وهو يزفر متفكرًا فيما داهمه من أمر خطير في مستهل استوزار الخليفة العاضد الفاطمي له. أخيرًا قام من مجلسه وفتح باب غرفته آمرًا بعض الجند الواقفين ببابه: «اذهب إلى قراقوش وأخبره أني أريده الساعة!».

■ ■ ■

كان يعلم أن مهمته ليست بالسهلة، وأن أمره ليس باليسير.

فمنذ وصوله إلى مصر مع عمه أسد الدين شيركوه بن شادي، وهو في حركة وشغل. بين طرد للفرنجة من البلاد، ثم انهماك في التعامل مع ألاعيب ودهاليز سياسة قصور الفاطميين. لم يكد يلتقط أنفاسه حتى توفي شيركوه الذي كان العاضد الفاطمي قد استوزره، فانشغل الجميع بالسعي لشغل منصب الوزارة الشاغر. رغم صغر سنه -كان في الثانية والثلاثين من العمر- فقد ترشح أمره لخلافة عمه.

لاقى في البداية معارضة من الأمراء الفاطميين الذين أرادوا وزيرًا من دولتهم من جانب، وطمع مَن صاحبوه من الأمراء والقادة في شغل المنصب الخطير من جانب آخر. لم يكن الفاطميون من القوة بحيث يفرضون بعض مرشحيهم، فبقي أمر الطامعين من رفقائه. تدخل صديقه الفقيه عيسى الهيكاري فسعى بينهم حتى أقنعهم بأن يخلوا بين الشاب والوزارة. وحسم العاضد الأمر فأرسل إليه بالتقليد والخلعة (زي الوزارة) ليمثل حالة سياسية شاذة؛ فهو من ناحية قائد جند نور الدين محمود بن زنكي، صاحب حلب والموصل الذي بعث بجيشه استجابة لاستغاثة الفاطميين به لنجدتهم من غزو الفرنجة، وزنكي بدوره موالٍ للخلافة العباسية السُّنية ببغداد، وهو من ناحية أخرى وزير الخليفة الفاطمي الشيعي بالقاهرة، الذي طالما ناصبت دولته العباسيين العداء.

- منذ تولى الوزارة ورسائل نور الدين محمود تتوالى عليه تستحثه لإسقاط دعوة الفاطميين والدعاء للخليفة العباسي من فوق منابر مصر، ولكنه -صلاح الدين- يدرك أن الأرض ما زالت غير مهيئة بعد لهذا الأمر الخطير. كان عليه أولاً أن يقصقص أجنحة دولة الفواطم.

لم يكد يتولى الوزارة حتى راح يقوي جانبه، فحجر على الخليفة الضعيف معتل الصحة في قصره وضيّق عليه وصار وكيلاً عنه، «فيما وراء بابه»، وهو وضع غير جديد في العهود الأخيرة للخلفاء الفاطميين، ثم همّش العساكر الفاطميين من مقاتلين سودان وأرمن، مقابل تقوية وتنظيم وتوطيد مكانة الجنود الأكراد والتركمان الذين

جاءوا معـه، وكذلك مماليك عمه الراحل شـيركوه، وكانت تحركاته سريعـة فلم تجد مقاومـة إلا من مؤتمن الخلافة جوهـر، كبير موظفي القصر الـذي ضُبِطَت رسـالته السرية إلى أماليريـك الأول (عموري في المصادر العربية) ملـك مملكة بيت المقدس الإفرنجية، يحرضه على غزو مصر وطرد صلاح الدين ورجاله منها.

كان يستطيع بكل بساطة أن يواجه مؤتمن الخلافة بخيانته في حضرة العاضد فيضطر هذا الأخير إلى إطاحة رأسه، إلا أنه فضّل أن يتريث وأن يبادل التدبير تدبيرًا أكثر حذقًا ودهاء. فإن كان مؤتمن الخلافة رجلاً واحدًا فإنه المتحكم بعبيد وموظفي القصر وطائفة «المحنكين» من رجاله (هم القادة من فئة كان زيها مميزًا بعمامة يلتف طرفها على «الحنك»؛ فسمّوا بالمحنكين)، وهم يبلغون في بعض التقديرات ثمانية عشر ألف رجل، فالإيقاع به لا يكون بهذه البساطة.

■ ■ ■

في أثناء ذلك كان الملك أماليريك الأول يدبر بالفعل أمر حملة صليبية على مصر، فقد راسل ملوك فرنسا وإنجلترا وصقلية وألمانيا يدعوهم للاشتراك في عمل مشترك ضد الثغور المصرية، إلا أن صراعات ملوك أوروبا وتداخلها مع صراعات البابوية الكاثوليكية قد حال دون إجابتهم دعوته، ما اضطره إلى مخاطبة الإمبراطور البيزنطي في هذا الشأن، رغم الخصومة القائمة بين هذا الأخير والفرنجة بحكم اختلاف المذهب الديني من ناحية، واعتباره أنهم باستيلائهم على مدن الشرق الشامي قد اغتصبوا حقًّا له من ناحية أخرى. رغم ذلك استجاب الإمبراطور لتلك الدعوة، وتم التنسيق للحملة التي شقت سفنها عباب البحر المتوسط، لتظهر أمام ساحل

دمياط الذي لم يتوقع صلاح الدين أن يكون هدفًا لتلك الحملة.

بلغت صلاح الدين أنباء دخول سفن الغزاة مجال بصر المبحر في البحر، وقد بدا توجهها إلى مصر، فأدرك أن الوقت قد حان لاتخاذ «ما يلزم» تجاه متآمري الداخل، وعلى رأسهم مؤتمن الخلافة الخائن.

■ ■ ■

مصر، قرية الخرقانية قرب قليوب.

رمق مؤتمن الخلافة جوهر الأفق، وقد علت وجهه عميق السمرة علامات توتر شديد. لم يتمكن النسيم العليل ولا مساحات الخضرة الشاسعة من إزالة قلقه وخوفه منذ بلغه انكشاف أمره.

تمشى حينًا بمنظرة قصره المطل على الحقول، ثم ترامى على مقعده وقد هده الهم وشعر بضيق اشتركت قناطير اللحم المحتشدة بجسده في غرسه بصدره.

منذ علم بفضح تدبيره وهو يخشى مغادرة القصر، كان يصادف أحيانًا صلاح الدين وهو مجتمع بالخليفة لبعض الشؤون، فلا يزيد هذا على تحيته بابتسامته المهذبة المميزة وهزة رأس أنيقة، فإذا حاول الطواشي قراءة ما تخفيه عينا الفتى، رد هذا بنظرة مضمونها: «أنا أعلم وأنت تعلم، فانتظر تَلْقَ الرد».

تبًّا! هذا الطفل يعابثني وأنا الذي طالما رقصت على أحبال السياسة وألاعيبها!

هكذا كان يقول في نفسه وهو يبادل تحية الوزير بوجهه، جاهد كي يخفي ما وراءه من امتعاض وكراهية.

مع الوقت تصاعد شعوره بأن القصر الذي طالما كان هو صاحب الأمر والنهي فيه، قد صار سجنًا ذهبيًّا له، أبغض جدرانه التي تكاد تنطق مشيرة إليه بأصابع الاتهام. أبغض حتى القاهرة وقصورها ومآذنها التي شعر بأنها أغلال تجثم على صدره وعنقه المكتنزين. تشجع فغادر القصر والعاصمة تحت جنح الليل متوجهًا إلى ضيعته بنواحي قليوب، عله يجد في مساحات الفراغ ما يزيل أثر الخوف الذي زرعه الهدوء المريب لصلاح الدين في نفسه.

قطع تفكيره صوت سنابك خيل تضرب الأرض باتجاهه وقد علتها غبرة كثيفة نمت عن كثرة عدد هؤلاء القادمين عليه. هب عن مقعده وأسرع بصعود سلم القصر صائحًا بحرسه أن يتأهبوا للذود عنه. دخل غرفته وأحكم إغلاق بابها وألقى ثقله عليه لاهثًا بانفعال.

صكت أصوات المعركة القصيرة التي دارت في ساحة القصر أذنيه، تلاها وقع أحذية ثقيلة اقتربت صاعدة إليه. تراجع عن الباب وألصق ظهره بالحائط.

«يا جوهر!» باغتته الصيحة من وراء بابه بلهجة أعجمية تركمانية ميزت جند صلاح الدين.

«لا تصعب الأمر عليك! فدعنا ننهِه في سرعة كي لا تقاسي كثيرًا!».

غص حلقه بالحامض المتصاعد من معدة ألهبها الانفعال، ولما أطاحت ضربة قوية بالباب لم يدر بنفسه إلا وهو واقع على ركبتيه أمام

حشد من السيقان القوية، وبعضها يخطو إليه يتقدمه النصل اللامع لسيف بتّار يعرف عمله جيدًا.

■ ■ ■

في دار الوزارة وُضِعَ الصندوق أمام صلاح الدين الذي فتحه متأملاً الرأس الأسود دامي المنبت.

رفع عينيه للعملاق الأبيض الواقف إلى جواره ثم قال «بهاء الدين».

فتقدم منه مساعده بهاء الدين قراقوش منتظرًا أمره.

«تعلم ما عليك فعله، فعلى بركة الله!».

■ ■ ■

لم يستغرق الأمر كثيرًا من الوقت.

فسرعان ما داهم الجند التركمان والكرد قصر الخليفة يقودهم قراقوش، وقد أمروا موظفيه أن يلزموا مواقعهم بطريقة «كما أنت»، بينما دلف قراقوش بثقة إلى مكتب مؤتمن الخلافة المقتول وجلس على كرسيه.

صار بهاء الدين قراقوش كبيرًا لموظفي القصر، ولم يحصل الخليفة على فرصة للاعتراض إذ تم إبلاغه مؤامرة مؤتمنه الخائن وتعيين مساعد صلاح الدين محله، فاستسلم الخليفة الشاب للأمر الواقع.

كان توقيت الضربة موفقًا، فالعدو قد توجه إلى ثغور مصر يريد غزوها، والخيانة واضحة لا ريب فيها، ودليل الجريمة قوي لا ينتطح فيه عنزان. والدولة قد باتت مهددة فلا مجال للتراخي أو المجادلة.

ولكـن ذلك اليوم الطويل الذي بدأ بذبـح مؤتمن الخلافة وانتهى بسـيطرة صـلاح الديـن وقراقوش عـلى القـصر، كان يتمخض عن أحداث لا تقل إثارة تنتظر الجميع في صبيحة اليوم التالي.

■ ■ ■

في المنطقـة الواقعة بين قـصر المعز الفاطمي وقـصر ابنه ـالمعروفة بـ«بين القصرين» (في شـارع المعز حاليًا)ـ احتشـد الجنود السودان في جمع يدمدم بالغضب وينادي بالثورة.

انضم إليهم بعض الأمراء الفاطميين والمقاتلين الأرمن وبعض العوام من موالي الدولة، وتعاظم حشدهم حتى بلغوا خمسين ألفًا، زحفوا في مظاهرة مسلحة إلى دار الوزارة لإسقاط صاحبها وحكمه.

هب شـمس الدولة توران شـاه ـأخـو صلاح الدينـ بعسـاكره يحولون بين الحشـد المنذر بالويل ومقر الوزارة، وسـار صلاح الدين بفرقة أخرى من الجنود لمواجهة الثائرين.

سرعـان مـا تلاقى الجمعـان فتصاعـدت صرخـات الحرب تملأ الأجـواء، حتى أثـارت الخليفة العاضد فخـرج إلى شرفة قصره ينظر إلى المعركة العنيفة.

ارتسـمت على وجهه الأسـمر الوسـيم أمارات الترقب والتوتر، وهـو ينظـر إلى جند دولته يميلـون على جند صـلاح الدين فيكادون يسـحقونهم. تصاعد في نفسـه أمـل أن ينهي موالوه ذلـك الكابوس الجاثم على صدره منذ ولّى الفتى الكردي وزارته. أشار إلى أحد رجاله وهـو يلهث انفعالاً وأسر إليه بكلمات، فتهلل وجه هذا وانحنى يقبل طـرف ثـوب خليفته، ثم ركـض في ردهـات القصر صارخًـا بملء

حنجرته يذيع أمر الخليفة لمن بقوا على الطاعة من رجاله.

في أثناء ذلك كان توران شاه يصرخ في جنوده بالثبات، وهو يهوي بسيفه على محارب أسود حاول أن يتعلق به لإسقاطه عن فرسه. صكت صرخة منذرة أذنيه فلوى عنق الفرس متراجعًا ليفاجأ بمجموعة سهام تستقر حيث كان منذ ثوانٍ، وقد بدا أنها قد رُمِيَت من موضع مرتفع. رفع رأسه إلى مُطلقيها ليجد شرفات قصر العاضد قد احتشد فيها بعض حرسه، وراحوا يرمون رجاله ورجال صلاح الدين بالسهام والنشاب والحجارة.

صاح ببعض جنده فتراجعوا مفسحين المجال لفرقة النفّاطين (رماة قذائف النار)، وأمرهم بإحراق شرفات القصر، وهو يتعمد أن يصل صوته للعاضد الذي كان توران شاه يلمحه يرقب المشهد مستترًا ببعض تروس الحرس.

انطلقت من أرض المعركة نيران تعرف طريقها وأشار شمس الدولة إلى حيث العاضد صارخًا بالنفاطين أن يستهدفوه، فسارع الخليفة بالدخول وهو يكاد يتعثر بأذيال ثوبه وانسحب حرسه من ورائه، فأشار توران شاه إلى النفّاط ألا يطلق شيئًا قبل أن يترقب أمره.

انشغل السودان والأرمن الثائرون بمراقبة المشهد، فتراجعوا إلى ناحية من الطريق تاركين فراغًا بينهم وبين عدوهم.

سرعان ما انفغرت أبواب الشرفة عن رجل تقدم بحذر وقد سبقته ذراعاه الممدودتان للأمام في إشارة إلى الاستسلام. تشجع فخطا إلى حيث أشرف على الجمعين المرتقبين وقد عرفوا فيه أحد خاصة العاضد المقربين.

استجمع أنفاسه ثم صاح بأعلى صوته: «أمير المؤمنين يسلّم على شمس الدولة توران شاه، ويقول له دونكم العبيد الكلاب، فأخرجوهم من بلادكم!».

هوى قوله كصاعقة على الجند السودان والأرمن، وتسلل خلال ذلك من معهم من أمراء فاطميين وعوام موالين تاركين إياهم لمصيرهم.

تقدم توران شاه بفرسه وقد علت وجهه ابتسامة ظفر، وقال لجنوده مشيرًا إلى جمع عدوّه بذبابة سيفه: «قد سمعتم أمر أمير المؤمنين»، ثم شق الصمت بصرخة قتالية وهو يندفع على صهوة فرسه متقدمًا جموعه التي هرعت تؤازره، في هجمة واحدة قوية، زلزلت الجند الثائر الذي راح يقاوم باستماتة السيوف التي ألهبتها الحماسة.

تراجع الثائرون إلى الطرقات فداهمتهم من الخلف عساكر صلاح الدين، لينسحقوا بين الجمعين المتعطشين لدمائهم.

وراحت السيوف الصلاحية تلعب في الأعناق والصدور وتطيح الرؤوس والأوصال.

وأغلق أهل القاهرة أبوابهم عليهم وقد أرعبتهم جعجعة القتال وصليل النصال، وأصوات أنفس أطلقت الصرخة الأخيرة والموت يداهمها، وامتلأت السكك بجثث كساها الدهم حتى صرت لا تعرف أرمنيًا من سودانيٍّ إلا بعلامات في الزي الممزق.

يومان داميان شهدتهما القاهرة، وقد استحرّ القتال في أزقتها وسككها بين كر وفر ومطاردات وحروب شوارع، ثم ارتفع الصريخ من حارة السودان أن افزعوا إلى دوركم وثكناتكم، فقد ألقى فيها

صلاح الديـن النار ليحرقها على من فيهـا، ولتهلك حرمكم وتتلف أموالكم.

ومـا كاد السـودان يهرعون إلى أهلهـم وماهم يسـتنقذون منه ما استطاعوا، حتى رددت الشـوارع صرخة مماثلة مـن ثكنات وبيوت الجنـد الأرمـن الذين كانوا لا يكادون يسـتترون بناحيـة حتى يجدوا النفاطين قد استهدفوها، حتى افتقدوا الملجـأ وفنوا عن آخرهم إلا قليل أسلموا أنفسهم للفرار فلم يُرَوا بعدها.

فتفرق جمع الجند السودان بين الطرقات، ليفاجأوا أن جند صلاح الدين قد سيطروا على مداخل ومخارج الحارات، فحاصروهم عند باب زويلة.

هنا لم يجد السودان بدًّا من أن يلقوا سلاحهم، ويجثوا على ركبهم يتوسلون رحمة عدوهم المظفر الذي أخذتهم سيوفه وناره كل مأخذ. فمُنِحوا الأمان على أن يغادروا القاهرة ويتوجهوا إلى صعيد مصر، فلملموا البقية الباقية منهم ومضوا في ركب هزيل مستسلم يعبرون النيل إلى الجيزة، ليتخذوا الطريق إلى منفاهم الأبدي.

وبينما ركبهم يمضي مسرعًا، باغتتهم عند الجيزة فرقة بقيادة توران شاه فلم يلبثوا إلا قليلاً وقد مزقتهم سيوف مهاجميهم وأبادت منهم أناسًا، فهرعوا يفرون وقد تفرق ركبهم وصاروا يتوجهون فرادى إلى الصعيد وقد صاروا هباءً منثورًا.

وهكـذا أحكـم صـلاح الديـن قبضتـه الحديدية عـلى القاهرة، فراح يُسـكِن قادته محل المطرودين من السـودان والأرمن ويملكهم ممتلكاتهم.

■ ■ ■

في أثنـاء ذلك كانت الحملة الفرنجية-البيزنطية تغـزو دميـاط، فسار الجيش الفرنجي برًّا عبر الفرما (شمال خليج السويس حاليًا)، حتى بلغ قرب دمياط وعسكر بين المدينة وساحل البحر، بينما اتخذ الأسطول البيزنطي طريقه بحرًا، لكنه لم يتمكن من دخول المدينة لوجود سلسلة ضخمة تمنع مرور السفن من فرع دمياط من نهر النيل.

وسارع صلاح الدين بإرسال المؤن والإمدادات مع كل من ابن أخيه تقي الدين عمر وخاله شهاب الحارمي، وراسل نور الدين محمود بن زنكي الذي أرسل إليه الإمدادات من الشام، وخرج بنفسه لمهاجمة المعاقل الشامية للفرنجة لفتح جبهة جديدة عليهم، بغرض تخفيف ضغطهم على مصر.

وشارك العاضد في مؤازرة المدافعين عن المدينة، فبعث بمليون دينار وثياب وأقوات إليها وإلى الجند المدافعين عنها.

وللمرة الأولى منذ زمن طويل يتوحد الأضداد على طرف واحد، فالزنكيون كانوا في حقيقة الأمر خصومًا للفاطميين، وهؤلاء الآخرون يدركون الرغبة الزنكية في إسقاط دولتهم لصالح الخلافة العباسية. وصلاح الدين يدبر ضد العاضد، والعاضد يتبرم بحجر صلاح الدين عليه، وزنكي يسخط على صلاح الدين لما قرأ من رغبته في الانفصال بمصر عنه، وصلاح الدين يتحين الفرصة لتحقيق خطته الانفصالية وإقامة دولة لنفسه ولأسرته.

ومع ذلك فقد اتحدوا على كلمة واحدة.

وقاومـت المدينـة الحصـار لمـدة واحد وخمسـين يومًـا، لم يتمكن خلالهـا المهاجِمون من خرق التحصينـات، خاصة وقد بدأت القوات

الإسلامية في مهاجمتهم واستنزاف طاقتهم بمعارك ضارية رادعة.

وأخيرًا انسحب الغزاة حاملين خيبتهم، وقد ألقى كل من الحليفين الفرنجي والبيزنطي جريرة الفشل على الآخر.

وبطبيعـة الحال، فإن المسـتفيد الأكبر من هـذا النصر كان صلاح الدين الذي أصبح بالنسبة إلى الجميع حامي الدولة وحافظها الأمين.

■ ■ ■

استغل صلاح الدين حالة الهدوء النسبي في تنفيذ خطته للإسقاط التدريجي للدولة الفاطمية.

كانـت الخطوة الأولى إقامة المدارس الفقهية السُّـنيّة في العاصمة، وتشـجيع نشرهـا ـ خاصة المذهب الشـافعي الأشـعري الـذي كان صلاح الدين يعتنقه ـ بحيث تناوئ محافل الدعوة الشيعية الإسماعيلية التـي سرعان ما أغلقهـا. بعد ذلك قام بخطوة أكثـر جرأة حين خلع القضاة الشـيعة وعيّن محلهم قضاة سـنيين، وأمر خطبـاء المنابر بذكر أسماء الخلفاء الراشدين بالدعاء في خطبهم.

تقـرب كذلـك من المصريـين بإلغـاء الضرائب التـي كانت تثقل كاهلهـم فأحبتـه العامة، وأبدى السـماحة لأهل الذمـة حتى قيل إن المسيحيين وضعوا صورته ببعض كنائسهم حبًّا له.

ثم رأى الوقت مناسـبًا لتوجيه ضربة قاصمـة للفاطميين، فذات يـوم بث جنوده ورجالـه عند مداخل قصور أمـراء البيت الفاطمي، وقـام باعتقالهـم في وقـت واحـد وحـدد إقاماتهـم واضعـًا يده على ممتلكاتهم.

واستحضر أباه وباقي إخوته وأهل بيته من الشام، فأسكنهم مساكن الأمراء المخلوعين وعينهم في وظائفهم.

وراح نور الدين بن زنكي يكرر إلحاحه بإسقاط الدعاء للفاطميين، وقد تيقن من أن جنديه السابق قد صار ملكًا مستقلاً لا موظفًا في خدمته.

إزاء ذلك الإلحاح الذي بلغ حد التشكيك المستتر بولائه، لم يجد صلاح الدين بدًّا من أن يأمر الخطباء بالدعاء للخليفة العباسي بدلاً من ذلك الفاطمي، فارتفع الدعاء للخلافة العباسية على منابر مصر للمرة الأولى منذ أكثر من مئتي عام، معلنًا نهاية العصر الفاطمي.

وفي أثناء ذلك كان الخليفة العاضد يحتضر في قصره وقد منع صلاح الدين إبلاغه نبأ سقوط دولته، قائلاً: «إن عاش فهو يعلم، وإن مات فلا داعي لإيلامه قبل موته».

ومات العاضد وهو لا يعلم أنه آخر الخلفاء الفاطميين، فأقام له صلاح الدين المأتم ثلاثة أيام ودفن جثمانه بالاحترام اللائق، ثم سارع بوضع يده على ثرواته ومحتويات قصره وبيعها، وكانت ثروته من المنقولات وحدها طائلة، حتى قيل إن بيعها قد استغرق عشر سنوات كاملة. ووضع يده كذلك على المكتبة الفاطمية -أو ما كان قد تبقى منها بعد تدميرها قبل عقود في عهد المستنصر إثر أزمة مالية داهمت البلاد- فوجد بها مئة وعشرين ألف كتاب وضعها تحت يد صديقه القاضي الفاضل، ليحرق ما كان منها متضمنًا الدعوة للمذهب الشيعي الإسماعيلي، وليرى تصرفه فيما تبقى منها بعد ذلك.

وأما أمراء البيت الفاطمي فقد حُدِدَت إقامتهم في قصر بحارة بيرجوان، وأجريت عليهم الأرزاق ورتب لهم الخدم، إلا أنه قد تم

عزل ذكورهم عن إناثهم كي لا يتناسلوا ليفنى نسلهم.

■ ■ ■

لم يكد صلاح الدين يلتقط أنفاسه حتى بلغته استغاثة «كنز الدولة».

وكنز الدولة هو لقب أمير عرب بني ربيعة المتغلبين على أسوان مع الولاء للفاطميين، وقد أنعم قديمًا الحاكم بأمر الله على كبيرهم بهذا اللقب، لخدمة قدمها للدولة في القضاء على بعض المتمردين، فصارت لقبًا لأمرائهم بعد ذلك.

فوجئ كنز الدولة بالجند السودان الفارين من صلاح الدين يداهمون أسوان، محاولين اقتحامها وإقامة دولة لأنفسهم بها متحالفين مع بعض النوبيين الطامعين في المدينة الغنية، فتصدى لهم الكنز وسارع بطلب الغوث من القاهرة، فأرسل إليه صلاح الدين بعض أمرائه على رأس قوة داهمت الجند السودان وشتتتهم، ثم توغلت في النوبة حتى بلدة «إبريم»، في مهمة ظاهرها مساعدة الكنزيين على حماية بلادهم، وباطنها استطلاع الجنوب وثرواته وأرضه.

فالوحشة بين صلاح الدين ونور الدين بن زنكي كانت قد اشتدت، حتى خشي الأول أن يغزوه هذا الأخير، فأراد أن يتخذ لنفسه ملجأ ينسحب إليه ويقيم فيه دولة لنفسه إذا وقع ذلك.

نجح الجيش في تنفيذ مهمته الظاهرة، أما تلك المستترة فقد رجع الأمراء إلى قائدهم بمعلومات أن الحياة في هذا الموضع من مصر ستكون قاسية شاقة عليهم، فبدأ صلاح الدين التفكير في مكان آخر وراح غزو اليمن يراود تفكيره.

وبينما أبدى كنز الدولة الامتنان لصلاح الدين وجنوده لنجدتهم

إياه، كان يضمر في نفسه سخطًا شديدًا عليهم، فقد قام صلاح الدين بتقسيم أراضي مصر إلى إقطاعات وزعها على جنوده كمصادر لدخولهم -دون حق التوريث- فدخلت أراضي الكنز فيها، ما هدد مركزه. فأضمر الثورة لكنه كتمها إلى حين.

■ ■ ■

القاهرة، ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م

«يا عاذلي في هوى أبناء فاطمة لك الملامة إن قصرت في عذلي
بالله زر ساحة القصرين وابكِ معي عليها لا على صفّين والجَمَلِ».

قالها الشاعر عمارة بن أبي الحسن المعروف بـ«عمارة اليمني»، مغمضًا عينيه في ألم ظاهر ثم فتحهما مطلقًا زفرة حارة، أردف بعدها وهو يقول لجلسائه: «لطالما سمعت عن انتكاث الدهر ولكن ليس السمع كالعيان! أبناء الخلفاء في الحَجر والمملوك الصغير متربع على عرش مصر يتبوأ منها حيث يشاء!».

أمّن عبد الصمد الكاتب سابقًا بدواوين الفاطميين على قوله: «كما قال المتنبي يومًا: نامت نواطير مصر عن ثعالبها»، فأجابه القاضي العويرس المعزول عن منصبه بلهجة جاءت كأنه يبصق: «بل قل عن كلابها وضباعها!».

أسكتهما عمارة بإشارة من يده، وقال: «إن كان أمراء البيت الفاطمي قد حُبسوا فلم تخل مصر منا لنعيد دولتهم، وإنا والله لها».

ثم أردف متحسسًا وقع كلماته عليهما وعلى باقي أصحابه المجتمعين في داره: «إن كنا قد عدمنا من يعيننا من أهل مصر، فليس من بد من أن نلتمس العون من طريق آخر».

أجابته نظرات التساؤل فخبط بكفه على سطح المائدة التي جمعتهم، وقال: «هلموا أعيروني السمع، فعندي ما يسركم ويثلج صدوركم إن شاء اللـه».

اعتدل كل منهم في مجلسه وقد أولوه انتباههم، خاصة الفقيه الواعظ ابن نجا الذي كان قد أبدى التعاطف معهم بينما هو عين صلاح الدين عليهم.

▪ ▪ ▪

ثلاث رسائل أرسلها عمارة وأصحابه، أخذت كل منها الطريق لوجهتها.

الأولى كانت لأماليك الأول ملك بيت المقدس تدعوه لغزو مصر برًّا.

الثانية كانت لوليم الثاني ملك صقلية تدعوه لغزوها بحرًا.

لعبت الرسالتان على أوتار طمع كلا الملكين في البلد الغني ومنافذه على البحر.

أما الأخيرة فكانت لراشد الدين سنان، كبير فرقة الحشاشين في الشام، والمعروف بـ«شيخ الجبل»، وكانت تلعب على أوتار التقارب المذهبي بين الشيعة الإسماعيلية الفاطميين، وقرنائهم من الحشاشين، وتقلل من شأن الافتراق المذهبي الذي وقع بعد وفاة الخليفة المستنصر بسبب ولاية العهد.

سرعان ما جاءت الردود بالإيجاب، فقد رحب كل من أماليك ووليم بالخطة المقترحة، وأبدى شيخ الجبل استعداده للتعاون.

كانت الخطة تقضي بأن يغزو أماليك مصر من البر، ويداهمها وليم من البحر بأسطوله، فإذا خرج لهما صلاح الدين، دس شيخ الجبل في معسكره بعض رجاله لاغتياله، وفي أثناء وقوع الفوضى الناجمة عن ذلك، يهب عمارة وأعوانه في القاهرة ثائرين ومعهم من تبقى من الجند السودان الذين تسلل بعض كبرائهم عائدين إلى العاصمة سرًّا، بل وانضم إليه بعض رجال صلاح الدين ممن حسدوه على ما بلغ من مكانة رفيعة.

وبالفعل بدأ الإعداد للخطة، فأرسل أماليك إلى القاهرة وفدًا في مهمة ظاهرها تقديم الاحترام وطلب المسالمة لصلاح الدين، وباطنها التواصل مع المتآمرين والتنسيق معهم والوقوف على الأوضاع في مصر.

وأعد وليم الثاني أسطوله المكوّن من ٢٨٢ مركبًا وجهز لها ثلاثين ألفًا من المقاتلين.

وبلغت ثقة المتآمرين بأنفسهم مبلغَ أن راحوا يعدون قائمة بالمناصب وشاغليها حال نجاحهم، وقرروا أن تكون البيعة بالخلافة للأمير داوود أكبر أبناء العاضد.

وراح عمارة يفرك يديه حماسة وهو يرى بعين خياله موكب الخليفة الفاطمي القادم يشق القاهرة، وعلى رمح أمامه رأس صلاح الدين، تحف به رؤوس قادته على أسنة الرماح.

■ ■ ■

انتهى من صلاة الليل فقام راسمًا الصليب بيده وغادر خلوته.
خرج من غرفته ليجد شابًا ينتظره ويسارع بتقبيل يده باحترام.

ربت الشيخ على كتفه، قائلاً وهو يركز بصره على عينيه مباشرة: «راقبتهم جيدًا؟»، أومأ الفتى برأسه مجيبًا: «ولم يفطنوا لي، حسبوني واحدًا من الخدم الموكلين بضيافتهم، ولم يعلموا أني أجيد لسانهم».

هز الرجل رأسه برضا، وقال وهو يعدل أيقونة معلقة على الحائط لبعض القديسين: «في صدرك سؤال، فهلم به».

تردد الشاب قليلاً، ثم استجمع نفسه، وقال: «لماذا نعين صلاح الدين على هؤلاء القوم؟ أعني، أعلم أنهم على غير إيماننا، ولكن صلاح الدين وقومه أيضًا ليسوا على ديننا».

ابتسم الشيخ وجلس داعيًا محدثه للجلوس، «كلاهما على غير إيماننا، ولكنهما ليسا سواء»، سعل ثم أردف: «قل لي، هل تؤدي صلواتك في سلام؟».

- «أجل».
- «وهل وقع ما يحول بينك وبين ذلك؟».
- «كلّا».

اعتدل الرجل في مجلسه، وقال: «اسأل نفسك إذًا: هب أن الفرنجة دخلوا مصر، هل تستطيع أن تؤدي صلواتك بسلام كما تفعل الآن؟ هل يتركون كنائسنا دون أن يخلعوا قساوستنا ويضعون عليها قساوسة من لدنهم؟»، ثم أردف: «ما الذي فعلوه بكنائسنا وكنائس الملكانيين في الشام؟».

فطن الشاب لمقصد الشيخ فابتسم متفهمًا، فأكمل هذا حديثه:

«هـؤلاء القوم يرفعون الصليـب ويبجلون مريم العـذراء، لكنهم لم يحملوا في صدورهم شيئًا مما ضحى لأجله سيدنا ومعلمنا يسوع»، زفـر بإشـفاق، وهو يتمتـم: «هؤلاء أبعـد ما يكونون عـن ملكوت السـماء. يـرددون أقوال القديسـين ويقترفون أعمال الشـياطين، وقد جعلوا أنفسهم مقدمة لجيش المسيح الدجال».

شرد قليـلاً، ثم قال: «حسـنًا، أراك قد وعيت قـولي، فاذهب من فـورك إلى القاضي الفاضل وأبلغه ما رأيـت، ليخبر صلاح الدين أن هؤلاء القاصدين إنما أتوا جواسيس وعيونًا علينا».

■ ■ ■

أجاد صلاح الدين لعبة الحرب السرية كما أجاد لعبة حرب العلن، فدس ابن نجا الفقيه على عمارة ورفاقه، ودس بعض الأقباط على وفد الملك أماريك. ترك عمارة يطمئن لغياب قوته الضاربة المتمثلة في قوات أخيه توران شاه بسبب إرساله لغزو اليمن وإخضاعه، وقد حسب عمارة أنه هو الذي أقنع توران شاه بذلك لتقرب هذا الأخير وإبدائه الثقة به، دون أن يعلم الشاعر أن أخا صلاح الدين كان بدوره داهية أريبًا. ولما أحكم صلاح الدين عقد الأنشوطة حول أعناق المتآمرين، لم يكن عليه سوى جذب طرفها ليعلقهم بها على رؤوس الأشهاد.

هكذا فوجئ عمارة وأصحابه بالجند الأكراد والتركمان يداهمون بيوتهم ويقبضونهم إلى صلاح الدين الذي واجههم بخيانتهم، ثم سيقوا في موكب تشهير حاشد شق القاهرة إلى حيث وجدوا حبال المشانق معدة لهم، وإلى جوارها أخشاب أعدت لصلب جثثهم بطول

الطريق. بينما فرت البقية الباقية منهم إلى أقاصي الصعيد.

■ ■ ■

بلغـت أنباء فشـل المؤامرة مسـامع أمالريـك الأول فأحجم عن خطة الغزو، ولم يحتمل وطأة الفشل فتوفي كمدًا، ليخلفه ابنه المجذوم بلدوين الرابع ملكًا على بيت المقدس.

وبطبيعة الحال امتنع شـيخ الجبل عن إرسـال حشاشـيه لاغتيال صـلاح الديـن، وبقي يترقـب فرصة أخـرى. (حاول ذلـك بالفعل خلال محاصرة صلاح الدين بعض قلاع الشام مستقبلاً).

أمـا وليـم الثاني الـذي لم تبلغه الأخبـار لبعد المسـافة، فقد تحرك أسـطوله سـعيًا لمباغتـة الإسـكندرية، ليفاجأ بالمدينة وقد اسـتعدت للقائه فتحصنت واحتشـد فيها الجند، فحاول مهاجمة بعض السـفن الراسـية بها، إلا أن هجومًا ارتداديًا إسـلاميًا باغتـه فأوقع مذبحة في جنوده لينسحب جارًّا أذيال الخيبة.

ولم ينته العام الحافل إلا وقد حمل الناعي إلى صلاح الدين خبر وفاة غريمه نور الدين بن زنكي، مخليًا له الساحة ليتوسع في بلاد الشام ويضم ملك سيده السابق إلى دولته الناشئة.

■ ■ ■

وكالعادة، لا يكاد الرجل يتنفس الصعداء لزوال محنة حتى تأتيه تاليتها، فقد انحاز الفارون من الجند السودان إلى كنز الدولة أمير ربيعة فضمهم إليه وقد أمن جانبهم، وثار بهم على الأيوبيين وقد انضم إليه والي قوص، وقتل أحد الأمراء الصلاحيين البارزين. وأزمع الزحف

شمالاً حتى القاهرة ليعيد دولة سادته الفاطميين.

ولأنه لم يشأ ترك القاهرة خشية اندلاع أي ثورات أو مؤامرات خفية، فقد أرسل صلاح الدين أخاه العادل أبا بكر إلى الصعيد، على رأس قوة ثقيلة اجتاحت أرض كنز الدولة وتلاقت معه، فاندلعت معارك ضارية سقط فيها القتلى من الجانبين.

وراح الطرفان يتبادلان الضربات بلا هوادة، حتى تضعضعت قوة الكنزيين ووالي قوص، فوجه العادل الضربة الأخيرة في معركة حاسمة قُتِلَ فيها الوالي المتمرد، ثم لحق به كنز الدولة فسقط في ساحة القتال ليؤسر أتباعه ويفر الباقون منهم إلى النوبة، ليؤسسوا سلالة الكنزيين الشهيرة.

وهكذا صفا وجه مصر لـ«الملك الناصر صلاح الدنيا والدين يوسف بن أيوب»، ليولي وجهه نحو الشام مؤسسًا لنفسه ولآله دولة قوية مترامية الأطراف، مثلت حلقة قوية في سلسلة دول التاريخ الإسلامي.

■ ■ ■

شخصية صلاح الدين الأيوبي هي -بحق- من أكثر الشخصيات إثارة للجدل في التاريخ الإسلامي، فبقدر ما نال من تعظيم وتقدير، ناله الكثير من النقد والهجوم.

فهو عند المدافعين عنه مجاهد عظيم، وملك متواضع، وفارس شريف، أعلى من شأن المسلمين ودافع ضد المعتدين وقضى عمره في جهاد مستمر.

وهو عند مهاجميه جلف دموي، قضى على حضارة الفاطميين

وسفك من الدماء أنهارًا، بل واتهمه بعضهم أنه قد «أفسد العرب»، وبلغ أن وُصِفَ بأنه «أحقر شخصية في التاريخ الإسلامي».

وبصرف النظر عن الأوصاف والنعوت الانفعالية التي لا تناسب المنهج العلمي الموضوعي الرصين، فإن السؤال الذي يثور هنا هو: من كان صلاح الدين الأيوبي؟ هل كان ذلك الفارس النبيل الراقي الذي لهج برقيه ونبله أعداؤه قبل أصدقائه، أم كان ذلك المقاتل العنيف الذي شقّ طريقه للسلطة بالدم والعنف؟

في رأيي أن الإجابة هي: كلاهما، أجل، فمن الخطأ أن نقرأ تاريخ الأشخاص التاريخية بتسطيح وأن نختصرها في موقف أو اثنين، ثم نبني عليها تقييمًا انتقائيًا جاهزًا، مع أو ضد، فهذا مما يبتذل علم التاريخ.

ومن الخطأ كذلك أن نغفل عوامل مؤثرة في «تطور الشخصية»، تلك العوامل التي تتمثل في السن واكتساب الخبرات الحياتية المختلفة، والتعرض للمؤثرات من أحداث وبيئات وضغوط.

فصلاح الدين الذي تعامل بالقوة والعنف والقمع مع الفاطميين، كان شابًا في بداية ثلاثينات عمره، حديث عهد بالحكم والسلطة، تحيطه المؤامرات والتحديات.

وصلاح الدين الذي أبدى العفو عن الأسرى والرفق بهم، وأظهر علامات النبل وأخلاق الفرسان لأعدائه، هو رجل عركته السنون وأكسبته تلك التحديات سالفة الذكر خبرة وحنكة وتأنيًا ملحوظًا.

فلا بد إذًا أن نراعى تطوّر الشخصية وانعكاس ذلك على مواقفها.

كذلك فإن على من يقيِّم موقفًا تاريخيًا أن يتجرد من انتماءاته

وأفكاره السابقة، وألا يقيّم هذا الموقف بناء على قواعد زمانه ومكانه، بل على أساس قواعد زمان ومكان أصحاب هذا الموقف. من ذلك الأفعال المثيرة للجدل كدوره في تدمير المكتبة الفاطمية، أو فصله ذكور الفاطميين عن إناثهم للقضاء على نسلهم... وغيرها. مع مراعاة عدم إضاعة الوقت والجهد مع من يدافعون عنها من منطلق «ديني مذهبي»، باعتبار أنه «نصر السُّنة على الشيعة»، ولا هؤلاء الذين يهاجمون تلك الأفعال نكاية في أصحاب الفكر الديني لا أكثر، فالنقاش مع هؤلاء أو أولئك هو عبث وإهدار للمجهود!

من ناحية أخرى، فإن مما يضر بعلم التاريخ وبالموضوعية المطلوبة للاشتغال به، هو «تحصين» الشخصية التاريخية وتحويلها إلى «رمز محصن من النقد»، والإشارة بأصابع الاتهام إلى من ينتقد هذه الشخصية أو تلك بأنه «متآمر على التاريخ»، بل و«متآمر على الدين»، ولهذا أكرر دومًا أن على المشتغل بالتاريخ أن يحيّد جانبًا كل انتماءاته الخاصة -دينية كانت أو فكرية- وأن يتعامل معه باعتباره «علمًا إنسانيًا بحتًا»، ومع الشخص التاريخي باعتباره «مجرد إنسان».

هكذا يمكننا أن نقيّم شخصية تاريخية ثرية مثيرة للجدل مثل صلاح الدين الأيوبي. وعلى أي حال، فإن الاختلاف حول الشخصيات التاريخية وتقييمها هو أمر إيجابي يضيف إلى علم التاريخ ويثريه، ويكسبه متعته ولذة ممارسته.

مصادر:

١- الكامل في التاريخ: ابن الأثير
٢- البداية والنهاية: ابن كثير
٣- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي
٤- بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس
٥- الروضتين في أخبار الدولتين: أبو شامة
٦- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية: ابن شداد
٧- السلوك لمعرفة دول الملوك: المقريزي
٨- اتعاظ الحنفاء في معرفة الخلفاء: المقريزي
٩- صلاح الدين الأيوبي: قدري قلعجي
١٠- تاريخ مصر في العصور الوسطى: ستانلي لين بول
١١- في تاريخ الأيوبيين والمماليك: أ. د. قاسم عبده قاسم
١٢- تاريخ الفاطميين: أ. د. محمد سهيل طقوش
١٣- تاريخ الأيوبيين: أ. د. محمد سهيل طقوش
١٤- تاريخ الزنكيين: أ. د. محمد سهيل طقوش
١٥- تاريخ الحروب الصليبية: أ. د. محمد سهيل طقوش
١٦- تاريخ الزنج والقرامطة والحشاشين: أ. د. محمد سهيل طقوش
١٧- صلاح الدين بين التاريخ والأسطورة: د. محمد مؤنس عوض
١٨- تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان
١٩- هجرة القبائل العربية إلى وادي النيل: ضرار صالح ضرار
٢٠- محاربون في سبيل الله: كارين أرمسترونج
٢١- العبر وديوان المبتدأ والخبر: ابن خلدون
٢٢- حسن المحاضرة في ملوك مصر والقاهرة: السيوطي
٢٣- مصر في العصور الوسطى: د. محمود الحويري

٢٤- سيرة القاهرة: ستانلي لين بول
٢٥- أطلس تاريخ الإسلام: د. حسين مؤنس
٢٦- أطلس تاريخ القاهرة: أحمد عادل كمال

IX

تيمورلنك.. الهول الآتي من الشرق



مصر، القاهرة، ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م

«نحن جنـد اللـه، مخلوقون من سـخطه، مُسَـلَّطون على من حل عليـه غضبه. لا نرق لشـاكٍ ولا نرحم باكيًا، قد نـزع الله الرحمة من قلوبنا!».

أعـاد السـلطان المملوكي الجركسي برقوق بن أنص قراءة رسـالة تيمورلنـك متوقفًا عند ذلك المقطـع منها، وقد علت وجهه علامات الاستنكار والامتعاض.

ألقى الرسالة جانبًا ورفع عينيه إلى مبعوث تيمور، الواقف أمامه شامخًا بأنفه متعاليًا بما لا يناسب الماثل بين يدي «سلطان البرّين وملك البحرين وخادم الحرمين الشريفين».

لوى شـفته ازدراءً وقـال للمبعوث: «صاحبكم يتشـدق بألفاظه الكفرية ونزعاته الشـيطانية، ويتفاخر بما هو من صفات الشياطين لا صفات السلاطين».

جال بعينيه الجاحظتين في وجـوه أمرائه المتوقعين أن يأمر بضرب عنـق رسـول ذلـك المتواقح الأحمـق. بقي صامتًـا حينًا، ثـم أردف:

«والجواب لا ما يسـمعه، بل يراه بأم عينيه قبل أن تطيح سـيوفنا هذا الرأس السفيه!».

■ ■ ■

منذ عقود مضت كان الإسلام قد فشا في قبائل المغول، إلا أنه لم يغير من طبيعتهم الدموية المتوحشة، فاستمروا في غزو وترويع لمن حولهم، لم تكن مشكلتهم في الدين أبدًا، وإنما كانت في إيمانهم بتفوق العرق المغولي على ما سواه من الأعراق، فبقيت سُنتهم في دهم دور الإسلام قائمة. سابقًا كان خاناتهم يطمعون في لقب «خاقان العالم»، واليوم هم يطمعون في ألقاب السلطنة على المسلمين، بل ربما مدوا أعينهم إلى مقام الخلافة ذاته إن تيسر هذا لهم.

لم يكن من بد من التشمير عن ساعدي الجد، لمواجهة ذلك الآتي من أقاصي البلاد فاغرًا فاه ليبتلع الممالك والدول. فراح برقوق يحشد الجند ويستعرضهم ويجهز الأموال والعتاد.

وبينما الطرفان يستعدان لمعركة ضارية بين أقوى قوتين في الشرق -آنذاك- جد في سمرقند عاصمة تيمورلنك ما استدعى انسحابه إليها، قبل أن يتجاوز العراق -الذي كان قد غزاه بجحافله- إلى الشام، فتأجلت المواجهة إلى حين.

هل كان هذا من حسن حظ الدولة المملوكية أم من سوء طالعها؟ هل كان من الأفضل أن يقع الصدام في عهد السلطان القوي برقوق، عوضًا عن ذلك الذي وقع مستقبلاً في عهد ابنه الطفل فرج؟ رغم فارق العهدين بين فترة سلطان مقاتل قوي وحكم طفل سفيه عديم التجربة، فإن علم التاريخ -للأسف- ليس فيه مجال لـ«ماذا لو».

■ ■ ■

شد قامته الضخمة على جواده الفاره، تحسس بحركة لا إرادية ساقه العرجاء التي أكسبته صفته «لَنك»، والتي تعني بالمغولية التركية «الأعرج»، مضافة إلى اسمه «تيمور» -أي الحديد- وقد شرد يستعيد ذكريات قديمة.

كان ابنًا لرئيس سابق لبعض قبائل التُرك المنضوية تحت حكم جنكيز خان حين وحّد التتر والمغول، ولأنه -تيمورلنك- من قوم مقاتلين، ليست من ثروة عندهم أعز من السلاح والخيل، ولا من فضيلة أشرف من القتال والحرب، فقد كانت في ميوله الحربية ومهاراته القتالية مؤهلات ساعدته لشق طريقه الطويل إلى السيادة والسلطة، حتى صار متسلطًا على مغول وتُرك غرب آسيا، ومتحكمًا في الخان الدمية «سيورغتميش». حمل ألقاب المُلك والسلطنة الشرفية إلا أنه لم يكن له التلقب بالخان؛ لأنه لم ينحدر من سلالة ملكية، وإن كان يفخر دومًا بأن جده لأمه هو جنكيز خان شخصيًّا.

على أي حال فالألقاب لا تهمه كثيرًا -هكذا دار في ذهنه- فهو كفيل بأن يخلق لنفسه المجد بأن يكون سيد الشرق وقائده. هو الذي غزا الهند وتسيّد على مغول غرب آسيا وأرعب العثمانيين في الأناضول ودهم العراق فامتلكه، والآن راح يطرق أبواب الشام لتكون جسرًا ينطلق منه إلى مصر؛ ليصبح سيد العالم.

غادر شروده وراح يتأمل جيشه الجرار وعلى رأسه زعماء العشرات بأحزمتهم المرصعة المميزة، وأمراء المئات بمعاطفهم ذات الياقات

الذهبية، وقادة الفيالق بأعلامهم الخفاقة وطبولهم الضخمة، ثم عاد يشرد بعينيه وهو يفكر في الذريعة الصورية لغزوه دولة المماليك.

■ ■ ■

الديار الشامية من دولة المماليك، حلب، ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م

ران الصمت على نواب السلطان المملوكي بالشام وقد أهمهم أمر ذلك النبأ الرهيب: تيمورلنك أسقط مدينة «سيواس» الأناضولية، وتجاوزها فاحتل قلاع الحدود المملوكية، العثمانية.

قطع الأمير شيخ المحمودي -نائب طرابلس الشام (والسلطان المؤيد شيخ فيما بعد)- الصمت فعاد يكرر بإصرار: «قلت لكم يا أمراء أن لا حيلة لمواجهة تيمور إلا بما طرحت عليكم!».

عارضه طومرطاش (دمرداش) نائب حلب، قائلاً بإصرار مماثل: «تيمور داهية، وخروجنا له بعيدًا عن أسوار حلب هو طيش وحماقة».

ابتلع شيخ الإهانة غير المقصودة ببروده الشهير، وعاد يدافع عن خطته: «المعركة أمام أسوار المدينة تحتمل الكسرة كما تحتمل النصر، ولو انكسرنا فيها أمام تيمور، فلن يحول شيء بينه وبين دخول حلب!».

تدخّل دقماق نائب «حماة» محاولاً منع شجار بدت نذره: «يا أمراء، كلاكما يتفق على مواجهة تيمور خارج المدينة، فقط الخلاف أن الأمير شيخًا يرى أن نبتعد عن حلب فنخندق فيها ثم نرسل

العـرب والتركمان يواجهونه أولاً ويدوّخونـه، فإذا دهمهم وجدَنا في انتظـاره ومن خلفنا الخنادق والأسـوار»، ثم أشـار إلى طومرطاش: «والأمير نائب حلب يرى تحصينها الوقوف خارج أسـوارها لملاقاته بكل قوتنا، من حيث تكون الأسـوار في ظهورنا، فإذا كسرنا لا قدر الله انسحبنا وتحصنّا بها. المسافة قريبة بين الأمرين إذًا!».

هز طومرطاش رأسه بعناد، وقال: «لا نأمن أن يخامر علينا العرب والتركمان فيتركوا القتال أو ينحازوا لتيمور».

فقال شيخ: «مصيبتنا وإياهم واحدة! فلا أراهم يخامرون علينا!».

خبط طومرطاش سطح المائدة بكفه قائلاً بتهكم مرير: «لا تراهم يخامرون علينا؟! ولو فعلوا يا أمير؟! هل نترك رقابنا قيد رهان لا نعرف عاقبته؟!».

قام دقماق من مجلسـه صامتا وأولاهم ظهره متأملاً سـور المدينة، فالتفـت إليـه دقماق وسـأله: «ولا أنباء عن جيش يرسـله السـلطان فنطوّق جيش تيمور بيننا في المعركة؟».

دون أن يتحرك قال شيخ كأنه يبصق دون أن يراعي قرابة سودون للسلطان فرج: «السلطان مرا علق! طفل يبول في قماطه! مطية من بهيمة الأنعام! والأمراء من حوله متشاغلون بمن يركبه منهم ويدلي ساقيه!».

احتقن وجه سودون لكنه لم يحر جوابًا لعلمه صحة رأي شيخ.

لفّهم الصمت مجددًا حتى قطعه طومرطاش بعصبية ميزته دومًا: «يا أمراء، أنا أدرى بمدينتي! حلب حصينة، وأسوارها قوية، وأهلها مصرون على الاشتراك في القتال، والأمان أن نجعلهم مقدمتنا وأن

نجعل الأسوار والمدينة من ورائنا، لننحاز إليها لو كسر جيش تيمور جندنا!».

جال الأمير شيخ بنظره في وجوه جلسائه، فلما رأى فيها ميلاً لاقتراح طومرطاش زفر بضيق وتراجع في مقعده مغمغمًا: «لله الأمر!».

■ ■ ■

تراءت لأعينهم جحافل تيمورلنك وقد ارتفعت فوقها راياته فاتخذوا أهبتهم للقاء الرهيب. تعالت صيحات الحماسة من المقدمة المشكلة من أهل حلب، وتأهبت الميمنة المشكلة من مماليك الأمير سودون الذي كان يقود الجيش، بينما استوثق طومرطاش من استعداد جند الميسرة تحت إمرته، وعاد شيخ يغمغم وهو يقود القلب: «لله الأمر!».

لمح كشافة الجند خيمة تيمور متخذة موقعها على ربوة عالية تشرف على الجمعين وقد علتها رايات بيضاء. فقد كانت عادة الجيش التيموري أن يرفع في أول أيام الحصار أعلامًا بيضاء؛ علامة على أن كل من يستسلم آمن أيًا من كان، وفي اليوم التالي أعلامًا حمراء تشير إلى أن الأمان ممنوح فقط للأهالي دون القادة، أما الأعلام السوداء فتُرفَع في اليوم الثالث نذيرًا بقتل الجميع!

اندفع الجحفلان يلتقيان في معركة رهيبة استبسل فيها المماليك وأهل حلب رغم قلة أعدادهما قياسًا إلى أعداد عدوهما. انكسرت المقدمة من أهل حلب أولاً ثم الميسرة المملوكية، فثبتت كل من الميمنة والقلب تسدان الثغرة، واندفعت كوكبة من الفرسان تقتحم جموع

تيمورلنك وتعيث فيها حتى أحيط بتلك الكوكبة فأفنيت عن آخرها. وعلى الرغم من ثبات المماليك فإن الكثرة العددية للعدو قد ثقلت وطأتها عليهم، فدكتهم بعد ساعة قتال واحدة، فارتفعت نداءات الانسحاب وتراجع الجمع إلى أبواب حلب في تدافع فَزِع، وقد ضاقت الأرض بالمدافعين، وانسحقوا بين الأسوار والجند التيموري الذي راح يدهمهم بسنابك خيله ويلعب في الرقاب بسيوفه، حتى تكومت الجثث تسد الطريق في كومة كبيرة راح المنسحبون يتسلقونها فرارًا بأرواحهم.

واندفع جيش تيمورلنك يجتاح المدينة وشوارعها، في نهر من الحديد والخيل يطيح بمن يقف في طريقه.

وراح جند تيمور يطاردون الفارين عبر طرقات حلب حتى انتهى بعض المنسحبين من الأمراء والأهالي إلى قلعة المدينة، فأغلقوها عليهم، بينما لاقى من لم يلحق بهم مصيرهم الشنيع.

تيقن التيموريون من أن المدينة قد سقطت في أيديهم فراحوا «يحتفلون» بالنصر، وما أدراك ما احتفال المغول.

أطاحت أقدامهم الثقيلة أبواب الدور وراحوا يجرّون أهلها جرًّا إلى الساحات، ولما كانت النساء والأطفال قد اعتصموا بالمسجد، فقد راح الجند يضربون الباب بفؤوسهم الحربية حتى تهاوى، فاندفعوا إلى داخله مطلقين صرخاتهم الوحشية التي امتزجت بصرخات رعب المُقتَحَم عليهم، ثم سرعان ما خرج الجنود يجرون قطارًا من النسوة والصغار، ربطهم حبل طويل فقادوهم إلى الساحة أمام ذويهم ليبدأ الحفل الرهيب. راحوا يتقاسمون الغنيمة البشرية حيث ألقوها فارتفعت السيوف تثبت الأعناق إلى أسفل في وضع الانكفاء،

بينما امتدت الأيدي إلى أسفل الملابس ترفعها بحثًا عن مواضع المتعة المنتظرة، وقد زادتهم توسلات الضحايا شبقًا بهيميًا بالسطوة والامتلاك. تعالت صرخات اللوعة وآلام اقتحام العفة، بفعل آلات وطء بشرية عطشى للارتواء من دم العرض، بعدما ارتوت سيوف أصحابها من دماء الأعناق والصدور. لم يجد بعض الغزاة بغيته في اللحم الأنثوي فراح ينتقي من الأطفال من يروي به فورته الجنونية، ومن حاول من الرجال الناظرين إلى الأمر الفظيع أن يتملص من قيده، سرعان ما كان رأسه يتدحرج بين ساقيه. أما من أراد من المغول استتارًا عن قارعة الطريق فقد جر فريسته إلى المسجد، ليدنس الموضع الحرام بتدنيسه الجسد الأعظم حرمة.

أما من لم تكن لذة الجسد تستهويه فقد راح ينهب الدور والمحال ويسوق الأنعام إلى خارج الأسوار، بينما تسلّى آخرون بقطف رؤوس القتلى وراحوا ينظمونها في أبراج عالية وجوهها إلى الخارج، جريًا على عادة قائدهم في المدن الساقطة في يده.

استمر «الحفل» ثلاثة أيام بينما كان تيمور قد استقر في أحد قصور المدينة، وقد أسر فقهاءها وراح يناقشهم في أمور فقهية ودينية حول شرعية قتال المسلم لأخيه المسلم!

والمتحصنون في القلعة راحوا يدمون شفاههم بأسنانهم كمدًا وغيظًا، وصيحات المدينة المنتهكة المنتهبة تبلغهم، فلما رأوا ألسنة اللهب ترتفع من عدة مواضع في حلب -عدا تلك التي سكنها تيمورلنك- علموا أن هذا الأخير وجنوده قد قضوا منها وطرًا وتركوا النار تكمل عمل النصال والأسنة.

■ ■ ■

ضيّق جند تيمورلنك على المتحصنين في القلعة، فتشاور هؤلاء ثم أرسلوا إلى عدوهم ليعلموه أنهم يطلبون الأمان مقابل الاستسلام. فنزلوا من القلعة وسلّموا أنفسهم لتيمورلنك الذي قيّدهم ووزعهم على أمرائه.

بقي المنتصر في حلب شهرًا، ثم غادرها بعد أن تركها خاوية إلا من بعض جنده. واتخذ طريقه إلى دمشق، مارًّا بمدينة حماة التي أرسل إليها تيمورلنك ابنه ميران شاه الذي أوقع بها مثلما أوقع بحلب من الفظائع، ثم مال على حمص يذيق ضواحيها مثلما ذاقت سابقتاها.

في ذلك الوقت كانت أنباء المذبحة قد بلغت القاهرة التي ارتجت لهول الواقعة، وخرج شيخ الإسلام بمصر عمر البلقيني مع القضاة والفقهاء في مظاهرة حاشدة يصيح: «الجهاد في سبيل الله تعالى لعدوكم الأكبر تيمورلنك، فإنه أخذ البلاد ووصل إلى حلب وقتل الأطفال على صدور الأمهات، وأخرب الدور والجوامع والمساجد، وجعلها إسطبلات للدواب، وإنه قاصدكم، يخرب بلادكم، ويقتل رجالكم!».

وراح المتظاهرون يكيلون السباب للسلطان والأمراء المتقاعسين عن نصرة بلادهم وإغاثة أهلهم.

فلم يجد السلطان الصغير وأمراؤه بدًّا من الخروج لملاقاة تيمورلنك وجيشه وردعهم عن الشام. فتجهز الجيش سريعًا واتخذ طريقه إلى الديار الشامية.

وفي غزة اجتمع السلطان بقادته، فوقف الأمير تغري بردي (والد المؤلف الشهير) المُعَيَّن نائبًا للشام -خلفًا لسودون الأسير بيد

تيمورلنك- يقترح عليهم خطة وضعها تقضي بأن يبقى السلطان بالجيش في غزة، بينما ينطلق هو -تغري بردي- إلى دمشق لتنظيم دفاعاتها. وأن يتحصن الدمشقيون في مدينتهم ذات الأسوار القوية، فلا يستطيع تيمور حصارهم طويلاً لضخامة جيشه واحتياجه إلى المؤن. وفي هذه الحالة لن يكون أمام تيمورلنك إلا التوجه إلى غزة لملاقاة السلطان وجيشه، فيتوغل في الشام ويقع بين فكّي الكماشة: دمشق وغزة.

وعلى الرغم من دقة الخطة وقوتها فإن الأمراء قد أقنعوا السلطان برفضها لميلهم عن تغري بردي، لكونه ليس جركسي الجنس مثلهم (كان يونانيًّا)، وكذلك لأن بعض رفاقه كانوا قد قاموا سابقًا بتدبير انقلاب فاشل ضد السلطان فقتلهم هذا الأخير، فهم -الأمراء- يخشون أن ينحاز تغري بردي لعدوهم بسبب ذلك.

والحقيقة أنه لم يكن مخلصًا للسلطنة حقًّا من بينهم إلا تغري بردي الذي يشككون فيه!

في أثناء ذلك كان طومرطاش -نائب حلب السابق- قد استطاع الفرار من أسره، وتوجه إلى بعض قبائل التركمان التي احتشدت معه وداهمت قوات تيمورلنك بحلب فذبحتهم وانتزعتها منهم، ولم يستطع تيمور أن يعيد غزو المدينة لانشغاله بالاستعداد لغزو دمشق.

وتزامن ذلك مع وصول السلطان وجيشه إلى دمشق، حيث استقروا بقلعة قربها تدعى «قبة يلبغا».

وجرت مناوشات بين الجيشين التيموري والمملوكي، لم يتمكن خلالها أيهما من تحقيق نصر حاسم.

ثم راسل تيمورلنك السلطان فرج يعرض عليه الصلح والانسحاب ورد الأسرى من نواب الشام، مقابل أن يطلق السلطان سراح «أطلمش» وهو أحد أمراء المغول، كان قد بعثه منذ سنوات إلى والده السلطان الراحل برقوق رسولاً يأمره بإعطاء الطاعة لتيمور، فاعتقله برقوق وبقي سجينًا طوال تلك الفترة.

وقال تيمورلنك في رسالته إنه إنما جاء إلى الأناضول أولاً «لعرك أذن الغلام قليلِ الأدب بايزيد» (بايزيد الأول ملك العثمانيين)، ثم أقدمه إلى الشام استياؤه من حبس أميره أطلمش. وهي الذريعة المعلنة لهذا الغزو.

ومرة أخرى يدب الخلاف بين أمراء السلطان، فتغري بردي وطومرطاش قد أدركا أن تيمورلنك يريد لنفسه انسحابًا مشرفًا، فيجعل ذريعته في ذلك استرداده أميره الأسير. فنصحا السلطان بقبول الصلح على هذا الأساس حقنًا للدماء وسدًّا لذريعة عدوهم، بينما رفض باقي الأمراء الصلح، وبقي الوضع كما هو: مناوشات بلا طائل من الجانبين.

ثم وقعت «خيبة» كارثية أخرى، فقد اكتشف السلطان فجأة تسحُّب بعض أمرائه من جيشه وتوجههم إلى القاهرة، فسرت بين رجاله شائعة أن هؤلاء استغلوا الوضع وقرروا خلع السلطان الطفل وتنصيب غيره. فسارع السلطان وأمراؤه الباقون إلى الرجوع إلى القاهرة تاركين خلفهم الجيش والسلاح والأموال، لتصحو دمشق على نبأ أنها قد أصبحت عمليًا بلا قيادة في مواجهة العدو!

وزاد الطين بلة وصول نازحين من حلب وحماة وحمص، حاملين معهم حكاياتهم المرعبة عن الهول الذي لاقوه على يد تيمورلنك وجنده.

لم يفتّ ذلك في أعضاد الدمشقيين، فتحصنوا وراء أسوار مدينتهم وقد أصروا على القتال حتى الرمق الأخير. وأمروا المقيمين بضواحيها الخارجية أن ينتقلوا إلى قلبها أمانًا لهم، وهددوا من يحاول مغادرة دمشق هربًا من الحرب أن تُنهَب داره.

وبالفعل استطاعوا صد هجمة ثقيلة من عدوهم، فردوها مكسورة وقتلوا من جنودها ألفًا رفعوا رؤوسهم على أسوار المدينة.

وأدرك تيمورلنك عبثية محاولته اقتحام المدينة الحصينة أو محاصرتها لتجوع وهي الغنية بالمؤن، فقرر اللجوء للحيلة، فأرسل يطلب من الدمشقيين إرسال مبعوث يفاوضه على رفع الحصار عن دمشق، فبعثوا إليه كلا من قاضي القضاة ابن مفلح الحنبلي والقاضي والمؤرخ الشهير عبد الرحمن بن خلدون -وكان قد خرج مع جيش السلطان وبقي بدمشق- فتدليا عبر السور وتوجها إلى المعسكر التيموري.

وفي مجلسه أكرم تيمورلنك مبعوثيه وتلطف معهم قائلاً: «هذه بلدة الأنبياء والصحابة، وقد أعتقتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة عني وعن أولادي»، وأبدى الرغبة في الرجوع إلى بلاده، لكنه اشترط لأجل ذلك أن ينال الضريبة المغولية المعروفة بـ«الطقزات» على سبيل حفظ ماء وجهه، ثم يدخلها بسلام ويُدعَى له على منابرها، وينسحب بعد ذلك ليكون قد حقق انتصارًا رمزيًا يرضي الجميع.

والطقزات هي ضريبة مغولية تعني بلغة التُرك -أبناء عمومة المغول- «تسعة»، وهي أن يقدم أهل المدينة للغازي تسعة أنواع من المأكولات والملابس والتحف والهدايا.

ورجع المبعوثان برد تيمورلنك، فانقسمت الآراء بين جهة تريد تلبية طلبه واتقاء شره على رأسها القاضي ابن مفلح، والأخرى بقيادة نائب قلعة دمشق تصر على القتال. وهدد نائب القلعة بحرق المدينة عليهم إذا فكروا في تنفيذ طلب تيمورلنك، وهدد أصحابه ابن مفلح ومن معه حتى خشي ابن خلدون على نفسه أذاهم، فتسلل خارجًا من المدينة ليجد نفسه في أيدي جند تيمور الذين حملوه له، فأضافه وأكرمه وراح يعقد المناقشات العلمية معه!

وأخيرًا رجحت كفة ابن مفلح وجبهته، وقالوا لنائب القلعة: «أنت احكم قلعتك واتركنا نحكم مدينتنا!»، فلم يجد بدًّا من الانسحاب إلى قلعته وتحصينها تحسبًا لما هو آتٍ.

وأخرج الدمشقيون «الطقزات» فدلّوها من السور، وأرسل لهم تيمورلنك فرمان الأمان منه فقرئ على منبر المسجد الأموي، وفتح أهل المدينة بابًا واحدًا من أبواب المدينة يُعرَف بـ«باب الصغير» ليمر عبره جند تيمورلنك الذي عيّن أحد قادته لحفظ الباب، والتأكد من مرور جنده بسلام دون احتكاك بأهل دمشق.

ولكن تيمورلنك عاد يطالب المدينة بالأموال، فطلب من ابن مفلح أن تدفع دمشق له مليون دينار، فجمعها بأسرع ما يكون وقدمها له، لكن تيمور وقد أدرك ثراء البلد عاد فاشتط وطالب بعشرة ملايين دينار. ففرض ابن مفلح وكبار المدينة ضريبة سريعة على أهلها، حتى جمعوا المبلغ المطلوب للغازي الطامع فيهم الذي ما إن قدموا له ما طلب حتى اشترط لتنفيذ وعده أن يعطوه كل ما ترك سلطان مصر والأمراء المنسحبون من أموال وخيول وسلاح. فنفذ الدمشقيون أمره وقد بدأوا يدركون عظم خطأهم إذ وافقوا على

مفاوضته، بدلاً من الحفاظ على مدينتهم الحصينة.

هنا بدا الغدر من تيمورلنك، فقد أعلن تعيينه أحد قادته «شاه ملك» نائبًا عنه على المدينة، وتوجه بجنوده لحصار قلعتها التي استعصت عليه شهرًا قبل أن يستسلم أصحابها، وقبض على ابن مفلح وقضاة وأعيان المدينة، وأجبرهم على كتابة تقرير بأحياء وسكك وشوارع دمشق وساكنيها من ذوي الثروات.

وقسّم تيمورلنك دمشق بين قادته، فجعل لكل منهم قسمًا نزل فيه بجنده، ثم أطلق أيديهم في المدينة يقبضون على أهلها ويستجوبونهم تحت التعذيب حتى يدلوا على أموالهم.

■ ■ ■

ويسجل المؤرخ أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي تلك الأحداث الرهيبة في كتابه «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» فيقول:

«فحينئذ حل بأهل دمشق من البلاء ما لا يوصف، وأجرِيَ عليهم أنواع العذاب من الضرب والعَصر والإحراق بالنار والتعليق منكوسًا. وغم الأنف بخرقة فيها تراب ناعم كلما تنفس دخل في أنفه حتى تكاد نفسه تُزهَق، فكان الرجل إذا أشرف على الهلاك يُخَلَّى عنه حتى يستريح، ثم تعاد عليه العقوبة أنواعًا، فكان المعاقَب يحسد رفيقه الذي هلك تحت العقوبة فيقول: ليتني أموت فأستريح مما أنا فيه. ومع هذا كله تؤخذ نساؤه وبناته وأولاده الذكور، ويقسم جميعهم على أصحاب ذلك الأمير، فيشاهد الرجل المُعَذَّب امرأته أو بنته وهي توطأ، وولده وهو يلاط به، يصرخ هو من ألم العذاب والبنت والولد

يصرخان من إزالة البكارة واللواط، وكل ذلك من غير تستر في النهار بحضرة الملأ من الناس».

وراح جند تيمورلنك ينوعون العذاب للناس، فهذا يعلق من إبهاميه ويوضع الرماد في أنفه، وهذا يعلق من يديه وتُشعَل النار من تحته لتشويه ببطء، وذاك تُخلَع كتفاه، إلى آخر هذا «المرح» المغولي السادي الشهير؛ الذي جعل الدمشقيين يعضون البنان ندمًا على وقوعهم في خداع هذا الداهية، وتسليمهم مدينتهم التي كانت لتصمد أمام حصاره ولو كان قد استمر أعوامًا.

وبقيت دمشق تعاني العذاب والانتهاك تسعة عشر يومًا. كل هذا وتيمورلنك محتفظ بابن خلدون في معسكره يناقشه في أمور الدنيا والدين، حتى التمس منه المؤرخ أن يخلي عنه فيرجع إلى مصر، ففعل ذلك بأريحية قلما تمتع بها.

ثم سأل أمراءه: «هل بقي لكم تعلق في دمشق؟» فلما أجابوه بالإيجاب، أباحها لهم ثلاثة أيام فداهموا شوارعها بالسيوف وراحوا ينتهبونها، ثم أسروا أهلها فربطوهم بحبل في سلسلة طويلة ولم يتركوا سوى الأطفال دون سن الخامسة. وأخيرًا ألقوا النار في بيوتها ومساجدها حتى أتت عليها. حتى المسجد الأموي ـ الذي كان نائب تيمورلنك شاه ملك قد اتخذه مسكنًا وإسطبلاً ـ لم يسلم منهم، فقد احترق بالنار حتى تفسخ رخامه وتهاوت قبته. وبينما النار تأكل البلد وقف تيمورلنك يتأمل ألسنة اللهب وهي تحرق قبة بديعة الصُّنع يشبه شكلها ثمرة البصل، فأبدى إعجابه بها ونقل تصميمها لبلاده، وهو التصميم الذي اشتهرت به قباب غرب آسيا وروسيا (كالكرملين الروسي مثلاً).

وقبل أن يغادر تيمورلنك المدينة المنكوبة بجيشه، جمع من بها من صُنّاع وحرفيين وفنانين ومزخرفين وبنائين، فحملهم معه أسرى إلى عاصمته سمرقند ليشيدوا له روائعها. (يبدو أنها عادة تركية قديمة، فبعد ذلك اليوم بمئة وسبعة عشر عامًا، فعل سليم الأول المثل بعد احتلاله مصر).

ثم غادر الجيش الجرار دمشق، وقد صارت خرائب تخشى حتى الغربان أن تنعق في جنباتها المشتعلة!

وبالطبع لم ينس تيمورلنك أن يترك خارج أسوار المدينة أبراجًا من الرؤوس المقطوعة المتجهة وجوهها إلى الخارج، فهذه بصمته وتوقيعه الذي يذيّل به غزواته و«فتوحاته».

جدير بالذكر أن تيمورلنك حين كانت تُذكَر أنباء فظائعه بدمشق، كان يبرر ذلك بأنه يعاقب الدمشقيين لأن أسلافهم القدامى وقفوا في صف معاوية بن أبي سفيان ويزيد بن معاوية، ضد علي بن أبي طالب وابنه الحسين! وكان يشاع عن تيمورلنك أنه «متشيّع» مذهبيًا. (بالطبع هذا لا يصلح كتفسير لما فعله مع دمشق، فتيمورلنك لم يكن يلتفت لمسألة اختلاف مذاهب من يقتلهم عن مذهبه).

■ ■ ■

على الرغم من إعلانه الرجوع إلى بلاده فإن الغازي الرهيب قد عن له أن يمر على بغداد ـ التي كانت تحكمها أسرة مغولية مسلمة ـ فمارس في حقها «هواياته» المعتادة، ثم مال على الأناضول فتلاقى مع جيش العثمانيين ليهزمهم ويأسر سلطانهم بايزيد الأول الذي قضى نحبه في الحبس، بينما توجه تيمورلنك إلى سمرقند ليغزو بعدها الصين.

وترك تيمورلنك وراءه ذكريات مرعبة بقيت أجيالاً تقض مضاجع الشعوب التي مر بها، وأثارت شخصيته القرائح، فنُسجَت الحكايات الشعبية عنه وأشهرها محاوراته مع الصوفي «مُلّا نصر الدين خوجة» المعروف بـ«جحا».

■ ■ ■

وفي القاهـرة كان المصريـون يسـتقبلون الناجين من أهل الشـام من الجحيم الذي اجتاحهم ويسـتمعون منهـم إلى أنباء الفظائع التي وقعت في حلب وحمص وحماة ودمشـق، والتي أثـارت فزعهم حتى فكر بعضهـم جديًّا في مغادرة مصر فرارًا من هذا الشـيطان الذي قد يداهمهم في أي وقت، ولم تكن أنباء تراجعه عن الشام قد بلغتهم بعد.

وتحت الضغط الشعبي، اضطر السلطان الصغير إلى إعداد حملة لإنقاذ الشام، فنشط في تجهيز جيشه وحشد جنوده لولا أن جاءه الأمير شيخ ـ وكان قد أفلت من الأسر ـ بأنباء انسحاب المغول ورجوعهم من حيث أتوا.

وعاد تيمورلنك يراسل السلطان «فرج»، يطلب منه إطلاق الأمير أطلمش، فلبّى السلطان طلبه أخيرًا، وأطلقه وأرسله إليه.

وتركت حماقات السلطان وخاصته وكارثة الشام أثرها في كل من دوائر الحكم وعموم الشعب، فتهاوت شعبيته بين الفئتين.

والمفارقة، أن السلطان فرج الذي كان قد غادر دمشق في خضم الأزمة خوفًا على ملكه، قد فقد مُلكه هذا بعد سنوات بل وحياته نفسها في دمشق ذاتها؛ حين خلعه أمراء الشام وعلى رأسهم الأمير شيخ، ثم أسروه في قلعة دمشق ليُدَبَّر قتله بخناجر بعض قتلة «الحشاشين»،

ليخلفه الأمير شيخ على عرش الدولة المملوكية باسم «المؤيد بالله شيخ المحمودي».

أما المغول، فقد كانت هذه هي المواجهة الأخيرة بينهم وبين المماليك، بعد نحو قرن ونصف من الحروب المتواصلة منذ عهد هولاكو وخلفائه.

■ ■ ■

أعيد قولي وأؤكد عليه: لم تكن مشكلة المغول ـ منذ غزاتهم الأوائل وحتى النهاية ـ مع المسلمين بصفتهم الدينية، بل كانت مع كل ما هو ليس مغوليًّا. وكنت في البيت الملكي المغولي وحاشيته وقادته وجيشه تجد المسلم السني والشيعي، والمسيحيين واليهود، والبوذيين والكنفوشيين، ومن يقدسون أرواح الأسلاف ومن يعبدون آلهة متعددة. لهذا يقول بعض المؤرخين ـ وأجدني متفقًا معهم ـ أن الخطر المغولي كان أقل من الخطر الصليبي (الفرنجي)؛ لأن هذا الأخير كان مدعومًا بخلفية فكرية عقائدية، بينما كان المغول قوم نهب وغزو وفرض سطوة، دون أن تكون لهم «قاعدة فكرية» يقوم عليها غزوهم لغيرهم من الشعوب.

والدليل على ذلك أنهم كما غزوا بلاد المسلمين وارتكبوا فيها الفظائع، فقد استمروا في فعل ذلك حتى بعد انتشار الإسلام بينهم، بل وبعد قيام بعضهم باعتماده «الدين الرسمي» للدولة.

جدير بالذكر كذلك أن المغول لم يكونوا في ذلك الوقت كتلة واحدة، فقد انقسموا إلى دول وممالك أشهرها «مغول القبيلة الذهبية»، الذين حالفوا المماليك، وتزوج السلطان بيبرس ابنة ملكهم بركة خان، ومغول فارس الذين بقوا على عدائهم للمماليك، ومغول الهند الذين أقاموا حضارتها العظيمة، وغيرهم. ولكن سوء الطالع شاء أن تكون السطوة

فيهم في عصر تيمورلنك لتلك الفئة التي تلحق بركب الحضارة، فاستمرت على اتخاذ نهج القتل والتدمير.

ولم يقتصر أثر غزو المغول المتكرر للشام وما صحبه من فظائع على السياسة والحرب، بل تعداه لمجال الدين والفقه؛ حيث أثار مسائل خطيرة مثل «شرعية قتال المسلم لمسلم مثله»، أو «حكم طاعة الحاكم المسلم الذي يعتدي على المقدسات»، أو «هل ما يقع تحت حكم هذا الحاكم هو دار حرب أم دار إسلام؟»، أو «حكم مقاتلة حاكم اتخذ من المسلمين في بلد دروعًا بشرية»، وغيرها من التساؤلات التي نشط الفقهاء يحللونها ويجتهدون في إجابتها، والتي -للأسف- استغل البعض في عصرنا الحالي بعض إجاباتها كذريعة لممارسة القتل والإرهاب، وهو بالتأكيد ما لم يقصده أو يتوقعه هؤلاء الفقهاء، الذين كانت فتاواهم تنصَب على حالات تاريخية معاصرة لهم فحسب.

على أي حال فإن قصة غزو تيمورلنك الشام ليست مجرد «حدث تاريخي عابر» من أحداث العنف التي تزدحم بها كتب التاريخ، بل هو حالة كاملة تستحق أن تُقرأ وأن تُدرَس كنموذج للحرب الـ«إسلامية- إسلامية».

مصادر:

١- عصر سلاطين المماليك: أ. د. قاسم عبده قاسم
٢- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي
٣- بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس
٤- السلوك لمعرفة دول الملوك: المقريزي
٥- مصر المملوكية: د. هاني حمزة
٦- تاريخ المماليك: أ. د. محمد سهيل طقوش
٧- تاريخ المغول العظام والإليخانيين: أ. د. محمد سهيل طقوش
٨- تاريخ مغول الهند والقبيلة الذهبية: أ. د. محمد سهيل طقوش
٩- تيمورلنك: العقيد محمد أسد الله صفا
١٠- أطلس تاريخ الإسلام: د. حسين مؤنس

ملاحظات: أنصح القارئ بمراجعة فصل «السلطان فرج»، في كتابي «دم المماليك».

X

مذبحة المماليك.. حفل الدم
في قلعة الجبل



مصر، القاهرة، قلعة الجبل، ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م

انطلقت الرصاصة الأولى، فهب الباشا من مقعده، وقد علت وجهه الأحمر صفرة، وراحت عضلات فكه ترتجف، وأذناه تتلقيان أصوات زخّات رصاص الغدارات والقرابينات (المسدسات والبنادق)، الذي راح يحصد بمنجل الموت أنفسًا باغتها الغدر. تعالت صرخات الاستغاثة والاستعطاف تمتزج بأصوات محاولات يائسة للنجاة. ارتجت جدران القلعة بصرخات جنونية وحشية لحملة نصال وأسنّة راحت تكمل عمل أسلحة النار.

تشاغل محمد علي باشا بالدوران في قاعته وقد شرد بصره فلم يعد يرى جلساءه، حتى أخرجته عن شروده يد التقطت يمينه فراحت تهزها في مصافحة تهنئة حارة، ومن خلفها صوت طبيبه الإيطالي يصيح متهللاً بصوت رنان: «لقد قُضي الأمر يا باشا واليوم يوم سعيد!».

جذب كفه وتراجع وقد علت وجهه علامات امتعاض. متى كان الموت حدثًا سعيدًا؟ حتى إن كانت زيارته لغرض حصد أعدائه

الألداء. لم يكن سـعيدًا بما «اضطر» إليه، ولكن آخر العلاج الكيّ، ثم البتر!

أشـار إلى بعض خدمه، فهرع يناوله كأس ماء بارد رفعها لشـفتيه بيـد جاهـد ليخفي رجفتهـا المنفعلـة، وراح يشرب بتـؤدة ثم وضع الـكأس أمامـه وجلس متشـاغلاً عن الأصـوات المفزعـة الآتية من الخارج، بتأمل قطرة تكاثفت على حافة الكأس وبدت له لسـبب غير مفهوم قانية كقطرة دم طازج.

■ ■ ■

لم يكن الدم غريبًا عنه، فلطالما كان رفيق رحلته منذ كان جنديًّا في بعض الكتائب الألبانية العاملة بخدمة الدولة العليّة العثمانية، وحتى صار عزيز مصر وصاحب عرشها. رافقه خلال معارك طرد الفرنسيين من مصر، ثم صراعات القوى الداخلية المختلفة على التربع على كرسي السلطة. نشأ مع الوقت تصالح بينهما بلغ حد الصداقة.

كان التوفيق حليفه دومًا على كل من وقفوا في وجهه، منافسوه من القادة العثمانيين وعلى رأسهم خسرو باشا الوزير، خورشيد باشا والي مصر المعزول، حتى الزعامات الشعبية التي حملته على أعناقها إلى قلعة الحكم تغلب عليها. لم يبق أمامه سوى المماليك ليخلو له وجه مصر الجميل. وإن كان قد أزاح كل من واجهوه بالحيلة والخداع والمكر، فإن هؤلاء المماليك كانوا دائمًا يحصرونه في مربع الدم والعنف.

كان بالنسبة إليهم دخيلاً غريبًا عن الأوساط الحاكمة المصرية من ناحية، و«محدَث نعمة» أو «ابن الأمس» من جانب آخر، رغم أن الألباني ابن بلدة «قَوَلة» (كافالا) أثبت خلال سنوات قليلة أنه لا يقل عنهم

دراية بدواخل مصر، وأنه يبزهم حنكة في ميادين السياسة والحكم. وإن كانوا بعد احتلاله كرسي الولاية في قلعة الجبل قد انسحبوا إلى صعيد مصر فإنهم قد التفوا حول زعاماتهم، وبقوا شوكة في جنبه توجعه وتنغص عيشه.

حاول أن يستقطبهم لكنهم التفوا حول زعاماتهم، إبراهيم بك المملوك العتيد الذي عركته السنون، وشاهين بك الألفي المتلون دومًا، ومن ورائهما ألف وخمسمئة مقاتل مملوكي يرى في نفسه سلطانًا مختصرًا، ويتحين الفرصة لبلوغ عش النسر وذروة الحكم.

بذل محاولة أخيرة لاسترضائهم، فاستقدم شاهين بك ليعيش بالجيزة ويكون له إيراد إقليم الفيوم وثلاث وثلاثين قرية في البهنسا (في المنيا) وعشر قرى من الجيزة، كما عين له كشوفية قرى الجيزة بأكلها كاملة. ففرح بها شاهين وراح يدعو زملاءه المماليك للدخول في طاعة الباشا الذي حاول إرضاء إبراهيم بك كذلك، فعين ابنه مرزوق بك حاكمًا لجرجا الغنية.

ولأنهم «جنس نمرود» ـ هكذا دار بذهنه ـ فقد خامروا عليه ولم يؤدوا ما عليهم من الأموال الأميرية إلى الدولة، ولما هددهم بإرسال تجريدة لمعاقبتهم، تحدوه فاضطر إلى الدفاع عن عيبته بإرسال جيش يضرب على أيديهم الجاحدة!

تحصنوا بجبال أسيوط، فبعث إليهم ستة آلاف مقاتل، فلما عاينوا قبضته، تكاد تخنقهم، مالوا للمسالمة وطلبوا الصفح، فاشترط أن يقيموا في القاهرة تحت عينيه على أن يصلهم خراج النواحي الصعيدية المخصصة لهم، شريطة أن يدفعوا ضرائبها وخراجها، وبالفعل تحرك ركبهم إلى العاصمة بقيادة إبراهيم بك العجوز، حتى إذا وصلوا الجيزة عسكروا وبان

منهم الغدر، بل وراسلوا شاهين بك يحرضونه على المخامرة والعصيان، وكان هذا الأخير من الخرق بحيث إنه قد وافقهم فتسلل من القاهرة ولاقاهم لينسحبوا جميعًا عائدين إلى الصعيد.

فعاد الباشا يرسل جيشه لردع هؤلاء المتمردين، فلاقاهم في عدة معارك ضارية وكسرهم ليلملم إبراهيم بك شعثهم وينسحب إلى أسوان، بينما هرع شاهين بك إلى قدمي الباشا يقبلهما ويسأل العفو الجميل. فعفا الباشا عنه وأسكنه دارًا فاخرة بالأزبكية، ما شجعه أن يستقدم زملاءه المارقين ليطلبوا العفو بدورهم ويسكنوا القاهرة تحت الأمان.

وهكذا اطمأن محمد علي باشا إلى استقرار ملكه، إلى حين.

■ ■ ■

القاهرة، قلعة الجبل، ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م

غادر الخدم القاعة وأغلقوا بابها لتخلو على الرجال الثلاثة وسيدهم الجليل.

بقي الباشا يتشاغل بأنفاس أرجيلته الفاخرة وهو يرمق من طرف خفي رجاله المقربين. حسن باشا قائد الجند الأرناؤود (الألبان)، الكتخدا محمد لاظ أوغلي بك وزيره الأول ويده الضاربة، صالح قوش من قادة الجند.

كانوا يختلسون النظر بدورهم إلى عينيه صاحبتي النظرة الشهيرة

التي تجمع بين الوداعة والتفرُّس، ووجهه الناطق بعافية رجل حديث عهد بأربعينات عمره، وشفتيه المزمومتين في إطباق محكم على مبسم الأرجيلة.

«الحملة صارت جاهزة للتوجه إلى الحجاز».

كان يعني تلك الحملة التي طالما ألح الباب العالي على واليه بمصر أن يرسلها لقمع الوهابيين، الذين فرضوا سيطرتهم على الأراضي المقدسة وهددوا أطراف الشام والعراق.

غمغموا بكلمات مبهمة تحمل الدعاء بالنصر، فأردف بصوته الذي ميزته نبرة حلقية عميقة طالما أرهبت من يستمع إليها: «ولكن». وضع المبسم جانبًا وتناول علبة نشوقه قائلاً وهو يداعب قفلها: «هل من الحكمة أن نرسل الجيش إلى مهمة خارج القُطر بينما الثعالب تربض في دارنا؟».

كعادته يطرح أسئلة تحمل في طياتها الإجابات المعدة سلفًا، لم تثر كلمة «الثعالب» حيرة جلسائه، خاصة لاظ أوغلي الذي اكتسب عبر الوقت مهارة فهم بواطن كلمات سيده.

«الثعالب تنشط إذا ما نامت النواطير» (الحراس)، قالها لاظ أوغلي متلقفًا كرة الحديث من الباشا بمهارة، فنظر هذا إليه مثبتًا عينيه على الشارب الكث لصاحب دولته ورفع بأنامله بعض النشوق إلى أحد منخريه فاستنشقه بعمق، ثم قال دون أن يحوّل عينيه عن لاظ أوغلي «إذًا؟».

حاول حسن باشا أن يكسب إعجاب السيد، فتدخل قائلاً بتذاكٍ

مكشــوف: «الثعالب تحاصر في أوجارها حتــى تموت جوعًا أو تخرج فتصاد».

انشقت الأسارير القاسية عن ابتسامة بزاوية الفم وقال الباشا لقائد أرناؤوده: «هل جربت صيد الثعالب من قبل يا باشا؟».

اعتدل وراح يستطرد بحماس من يصف لعبة ممتعة: «قبل أن تصاد الثعالب تُضرَب حلقة واسعة من معاوني الصيادين حول أماكن سكنها. ولا يداهم الثعلب في وجره فهو مكار كما يقولون، فيجعل لأوجاره مدخلين إذا دوهم أحدهما فر من الآخر. ثم تستفز الثعالب بفريسة مغرية لتغادر بيوتها طامعة في نيلها، فيهاجمها القوم بكلابهم ويطاردونها على صهوات الخيل وهم يصوبون عليها أسلحتهم، وهي تفر أمامهم وقد حسبت أن الأرض أمامها واسعة، فتفاجأ بأنها محاصرة. هنا على الصياد أن يسرع بالإجهاز على طريدته أو شل حركتها، فأخطر شيء هو طريدة أدركت أنها قد حوصرت من كل جانب».

تبادل الرجال النظرات، ثم سأل صالح قوش الباشا بحيرة: «هلا يفسر لنا الباشا مغزى كلامه؟»، فمط هذا شفتيه مجيبًا ببساطة: «لا شيء، فقط تذكرت أمرًا رأيته طريفًا فقصصته عليكم»، ثم غابت ابتسامته فجأة كما وُجِدَت فجأة، وأضاف بصرامة شديدة: «على أي حال، فقد جمعتكم هنا للحديث عن صيد الرجال لا الثعالب»، فعاد لاظ أوغلي يلتقط طرف الحوار قائلاً: «المماليك».

هز الوالي رأسه بالإيجاب، فقال حسن باشا بتسرعه المعتاد: «يكفي أن يأمرنا الباشا لنأتيه برؤوسهم على أسنة الحراب!».

ابتسم لاظ أوغلي بسخرية، وقلب محمد علي كفه قائلاً بلهجة المسلم

بالأمر الواقع: «ها أنت تعيدني للحديث عن الثعالب، حسنًا، قلت لك إن صيدها مهمة يقوم بها كل من الصيادين والكلاب، وأنا لا أريدك صيادًا يا باشا. أريدك كلبًا يتلقى الأمر فينفذه فحسب».

بصعوبة بالغة حبس لاظ أوغلي ضحكته، وهو يرمق وجه حسن باشا الذي احمر لإحساسه بالإهانة الخبيثة. أسرع يقول لولي نعمته: «هلا يفسر الباشا ما قد غمض علينا؟».

عاد الباشا يلتقط مبسم أرجيلته، سحب نفسًا طويلاً منها وأطلقه، ومن وراء سحابة الدخان الكثيفة التي راحت تنقشع ببطء راح يشرح خطته.

■ ■ ■

المماليك المماليك! ويحه لو أرسل جيشه في مهمة خارج البلاد وترك نفسه وعرشه دون حماية من تآمرهم. هكذا فكر.

لطالما خرجوا على أمره وعاهدوا فغدروا، هذا وهو في كامل قوته وجنده تحت يده بكامل الجهوزية، فكيف إذا صار بينه وبين جيشه بحر وصحراء؟

أعطاه رجاله انتباههم فراح -بنفس هدوئه وهو يحدثهم عن صيد الثعالب- يشرح لهم خطته الرهيبة.

انتهى من حديثه، فتراجع الرجال في مقاعدهم وهم يحاولون أن يجدوا أي أثر للانفعال في ملامحه التي حملت وداعة واسترخاء، بديا مخيفين بالنسبة إلى ما أسمعهم لتوه. بقي الباشا صامتًا وهو ينفث سحابات الدخان، فاختلف تفسيرهم صمته، فهمه كل من حسن باشا وصالح قوش -بطبيعتهما المعتادة على تلقي الأوامر وتنفيذها

فحسب- أنه حسم للأمر ينتظر فقط الإذعان، فقاما وقدما التحية بأدب ثم انسحبا من المجلس، بينما قرأ فيه لاظ أوغلي الأريب رغبة من الوالي في سماع رأيه وحده دون صاحبيه، فبقي جالسًا وقد صمت تأدبًا لحين يعطيه الباشا -من جديد- طرف الحديث.

لم يستغرق النقاش كثيرًا، فبعد أقل من ساعة انفتح باب القاعة وغادرها لاظ أوغلي بك.

ومن قلعة الجبل، خرج في ذلك اليوم رسل الوالي يحملون دعوته لبكوات المماليك أن يطلعوا للقلعة في الجمعة المقبلة، لحضور حفل تنصيب طوسون ابن محمد علي باشا، قائدًا للحملة المتوجهة -بأمر الباب العالي- إلى الحجاز للقضاء على الوهابيين.

■ ■ ■

تزينت شوارع القاهرة وارتفعت بها السناجق والرايات، وراح الناس المتعطشون لأي فرصة للمرح -أيًا كان سببها- يحتفلون في الطرق لخروج حملة طوسون ابن الباشا إلى الحجاز.

سرعان ما راحت مواكب المماليك تشق الطريق الصاعد إلى قلعة الجبل في تجمل زائل، وقد تنافس البكوات ورجالهم في التأنق وامتطاء أجمل الخيول. حرص كل منهم على اصطحاب حاشية مرتجلة من الأعوان، وحتى من بعض المصريين من أولاد البلد. وراح بعضهم يتباطأ في المسير عند التقاء الحشود؛ في محاولة لعيش لحظات يؤكدون فيها لأنفسهم أنهم ما زالوا سادة البلد.

وعند باب العَزَب المُطِل على ميدان الرميلة من القلعة، وقف القائمون على الخدمة يستقبلون الضيوف، فيأخذ بعضهم الخيل

إلى الإسطبلات، بينما يقودهم آخرون بتهذيب مبالغ فيه إلى القاعة الكبرى حيث ينتظرهم الباشا.

توافدوا على القلعة حتى تكامل جمعهم إلا من قلة، بين من أقعدهم المرض ومن كانوا لا يزالون بالصعيد ممن لم يعطوا الطاعة بعد. وبأريحيته المعتادة راح محمد علي باشا يستقبلهم ويأمر بتقديم القهوة لهم وهو يتلطف بهم ويضاحكهم في مرح، كأنما لم يقتتلوا في الأمس القَريب. راح يتنقل بينهم وهو يمازح هذا ويضاحك ذاك، خاصة شاهين بك، الذي كاد من فرط اهتمام الباشا به يحسبه ينوي رفعه لبعض المناصب.

ثم أشار الباشا إلى خدم فأخذوا يقودون الضيوف إلى مجالسهم لتبدأ مراسم التنصيب. سرعان ما دقت الطبول ونفخت الأبواق وتقدم طوسون باشا فقرئ أمامه أمر توليته الحملة، ثم أُلبِسَ خلعة قيادتها وعُقِدَ له لواؤها، وعادت الطبول والأبواق يعلو صوتها معلنة انتهاء الحفل الحاشد.

ورمق الوالي وزيره لاظ أوغلي بطرف عينه فأومأ هذا برأسه سريعًا، ليتأكد سيده أن إبراهيم أغا حارس البوابة قد تلقى الأوامر واستعد لتنفيذها. فبدا على وجه محمد علي الارتياح وراح يودع ضيوفه في مرح شديد.

وكما تقضي قواعد المراسم، فقد كان الترتيب أن يتحرك موكب طوسون باشا من القلعة، وقد ضم المماليك وكبار رجال الدولة، فيخرج من باب العزب إلى ميدان الرميلة ومنه إلى شارع المعز لدين الله، ثم يخرج من باب الفتوح.

امتطى البكوات ورجال المماليك خيلهم وانضموا إلى الموكب الحاشد، سائرين في الطريق الداخلي الضيق المنحدر، المؤدي إلى باب العزب الذي عبرته أولاً الطليعة، ثم صاحب الشرطة، ثم محافظ العاصمة ورجاله، تلتهم فرقة «الوجاقلية» (الجند العثماني).

وعندما جاء دور المماليك للمرور، فوجئ أصحاب الصفوف الأولى بالباب الثقيل ينغلق في وجوههم. ولما كان الطريق ضيقًا بحيث لا يسع إلا ثلاثة فرسان متجاورين، فقد استمر من هم في الوراء يتقدمون على نحو طبيعي حتى يجدوا البوابة الموصدة فيشاركوا رفقاءهم دهشتهم.

ران الصمت عليهم لحيظات وقد حاروا في تفسير ما جرى. حتى وجدوا بعض الجند الأرناؤود يحتشدون من ورائهم مشهرين السلاح، بينما تسلق البعض الآخر الجدران والصخور المحيطة.

وعندما أطلق صالح قوش من غدارته طلقة في الهواء بدأ الحفل الحقيقي!

■ ■ ■

كزخات مطر كثيف انهالت الطلقات تطيح بهم وتمزق أجسادهم. حاول بعضهم تسلق الباب أو الحائط، فسارع الرماة بقنصهم ليهووا جثثًا هامدة. تدافعوا وقد ألقوا عن أجسادهم معاطفهم الأنيقة الثقيلة، وأجفلت الخيل التي لم تعتد أصوات الحرب منذ مدة لا بأس بها، فراحت تلقي ركابها عن ظهورها تعيث فيهم وتدوسهم بسنابكها. صار المشهد لوحة دموية مرعبة. حاول بعضهم التمترس خلف أكوام جثث رفاقه لكن طلقات الأرناؤود كانت تعرف طريقها عبر الزوايا الصعبة والفتحات الضيقة. ترجل شاهين بك عن فرسه وبمعجزة استطاع أن

يتسلق الحائط قاصدًا الاختباء في بعض قصور القلعة. اشتد في العدو بساقين مرتجفتين وقد كاد قلبه يقفز عبر حلقه، لكن رصاصة تعرف طريقها جيدًا اخترقت هذا القلب فأسقطته على باب القصر.

روعت النساء في سراي الحرم صرخة من رجل راح يزحف إلى السراي وهو يتعثر في دماء. «في عرض الحرم!» صرخ بها عالمًا أن التقاليد تقول بإجارة من استجار بالحريم، لكن الجند أحاطوا به فذبحوه وعالجوا رأسه بالنصل حتى انتزعوه وجروا جثته بعيدًا.

وعند قوائم فرس طوسون باشا ارتمى بعض من أفلتوا من الرصاص في ممر الموت، يتوسلون رحمته، فبقي ينظر إليهم صامتًا بعينين لا تطرفان حتى بادر إليهم الجنود فمزقوهم بالسيوف، والباشا الشاب يتراجع بفرسه متأففًا من الدم الذي كاد يلوث ملابسه.

وطال القتل حتى بعض أولاد البلد ممن رافقوا سادة الأمس، فراحوا يصيحون بالجند «لسنا منهم»، إلا أن هؤلاء كان قد أصابهم السعار من الدم المسفوح، فأذاقوهم ما أذاقوا سادتهم المقتولين.

واستمر الحفل الدامي طوال النهار حتى الثلث الأول من الليل، ومن لم تقتله الرصاصات والسيوف حمله الأرناؤود إلى لاظ أوغلي ليضرب عنقه، حتى ازدحم فناء القلعة بتلال من الجثث، بلغ ارتفاع بعضها بضعة أمتار. وراحت رحى الدم تطحن أربعمئة وسبعين رجلاً دخلوا القلعة صباح الجمعة، فلم يغادروها أحياء، عدا واحدًا منهم - أمين بك - استطاع بمعجزة أن يقفز بحصانه من علو شاهق ليتلقى الحصان قوة السقطة فيهلك، بينما ينجو هو ويفر إلى الصحراء متوجهًا إلى الشام، وليبقى أثر حافر فرسه في السور حاملاً اسم «نطة المملوك».

وراح الجند يقطعون رؤوس القتلى ويكومونها، ثم قطعوا رأس شاهين بك عن جسده الصريع الذي ربطوه من قدميه بحبل، وراحوا يجرونه على سبيل المرح، وهو يرسم وراءه خيطًا داميًا عريضًا.

وطلع لاظ أوغلي بك إلى مولاه يبشره بانتهاء الأمر. ولكن الباشا يوجه إليه أمرًا لا يقل فظاعة عمّا جرى في الساعات الماضية، فإن كانت القلعة قد احتفلت فإن للقاهرة نصيبًا من حفل الدم البهيج!

■ ■ ■

عندما سمع الجمع المحتشد في ميدان الرميلة أصوات الرصاص أخذتهم الدهشة التي سرعان ما استحالت ذعرًا، حين صاح صائح مجهول: «قُتِلَ شاهين بك!»، فراح الناس يتدافعون ويهرعون إلى بيوتهم ومحالهم يغلقونها عليهم وقد استحالت الطرق التي كانت مزدحمة إلى طرق أشباح.

بقوا ينظرون من خصاص نوافذهم وأصوات الرصاص تأتيهم من بعيد، ثم بعد سويعات رأوا جحافل من الجند يغزون الشوارع، مسرعين بتصميم من تلقى أمرًا محددًا يريد الإسراع في تنفيذه.

سرعان ما انتشرت الأنباء: الأرناؤود يداهمون بيوت المماليك مفتشين عمن لم يطلع منهم للقلعة.

وراح الجند يكسرون الأبواب على من وراءها، مطيحين بمن يقف في طريقهم يفتشون عن المملوك ويهتكون حرمه، ومنتزعين ما عليهم من كسوة وحلي. ومن وجدوه من طرائدهم ساقوه إلى القلعة، حيث يقطع كتخدا لاظ أوغلي رأسه ويضعه في كومة الرؤوس التي راحت ترتفع بسرعة رهيبة.

وكعادتهم، استغل الأرناؤود الواقعة فلم يكتفوا باقتحام بيوت المقصودين، وإنما جاوزوا ذلك لاجتياح البيوت المجاورة وكل ما يصادفون في طريقهم من محال، ويذيقون أهلها النهب والضرب بل والقتل، حتى بلغ خبر ذلك الباشا فنزل من قلعته مسرعًا وراح يطوف بالشوارع ليمنع بنفسه تلك الانتهاكات. وفي الطريق أوقفه رجل وصرخ بوجهه: «إيش لنا علاقة لينهبنا العساكر ونحن قوم تجار، لا مماليك ولا أجناد؟!»، فترجل الباشا عن فرسه وتوجه إلى بيت الرجل ليجد بعض الجند ينهبه، فأمر بإعدامهم فورًا، ثم نزل طوسون باشا يمر بالطرق مطمئنًا الناس، ومعلنًا أمر محمد علي باشا بقتل من يتعرض للناس من الجنود فارتدع هؤلاء، ولولا ذلك لخربت القاهرة.

ولم يكتف الوالي بما نال المماليك في قلعة الجبل والقاهرة، فأرسل إلى مديريات مصر أوامره باعتقال وقتل من بها من المماليك. فكان مجموع المقتولين في تلك الحركة نحو ألف مملوك. أما القلة القليلة ممن كانوا بالصعيد ونجوا من الملاحقة والقبض -ومنهم إبراهيم بك الذي قُتِلَ ابنه مرزوق بك في القلعة- فقد انسحبوا إلى الجنوب، وتسلل بعضهم إلى السودان ليذوبوا للأبد.

وأرسل الباشا رؤوس بعض المقتولين وآذانهم إلى الباب العالي، مع البشارة بالقضاء التام على العصاة الذين طالما شقوا عصا الطاعة وأفسدوا بلاد السلطان.

ويُعجَب السلطان العثماني محمود الثاني من تدبير واليه الفذ، فيتعلم من تلك التجربة ويقوم بمثلها بعد نحو خمسة عشر عامًا بحق الجند الإنكشارية، الذين طالما كانوا شوكة في ظهره.

أما الأجانب الزائرون لمصر، فيرتاعون مما جرى ويشيرون بأصابع الإدانة متهمين محمد علي باشا بأنه سفاح قاتل، فيجيب بهدوء أن عليهم رسم لوحة لتلك المذبحة وبجوارها لوحة للمحاكمة الهزلية التي أقامها نابليون للدوق دانجان، والتي قتله بعدها متهمًا إياه ظلمًا بالخيانة؛ ليقارن المنتقدون بين الحادثتين.

■ ■ ■

تبقى «مذبحة المماليك» مسألة محل جدل تاريخي ساخن. فبينما دافع البعض عنها على اعتبارها «حلاً حاسمًا صارمًا» لمشكلة المماليك وفسادهم الذي استمر عقودًا كثيرة، هاجمها آخرون على اعتبار أنها عمل إجرامي ليس له مبرر مقبول.

على رأس المدافعين عنها كان المؤرخ والسياسي المصري محمد فريد بك ـالمعروف بميوله العثمانيةـ حتى إنه قال إنه لو لم يكن لمحمد علي باشا من عمل سوى قتله المماليك، لعد ذلك من أياديه البيضاء. وعلى رأس من هاجموها كان المؤرخ عبد الرحمن الرافعي الذي اعتبرها وصمة في تاريخ محمد علي، مؤكدًا أن المماليك الذين عاصروه لم يكونوا بتلك الخطورة على الدولة لتوقع بحقهم تلك المذبحة.

ولستُ هنا في موضع تقييم أخلاقي لمذبحة المماليك، ولكن ما يهمني هو تفسيرها، أو بمعنى أدق فهم ما الذي كان يدور في رأس محمد علي باشا حين اتخذ هذا القرار الصعب.

يمكنني أن أجتهد في تفسير ـوليس تبريرـ الأمر في عدة نقاط:

ـ الأولى أن محمد علي لم يكن ينظر إلى المماليك على اعتبارهم «من رعاياه»، بل على اعتبارهم «فئة دخيلة على النسيج المصري»، فعلى

الرغم من كونه هو نفسه أجنبيًا فإنه قد غرس لنفسه جذورًا في مصر، وتعمد ربط نفسه بها وربطها به، فعلى الرغم مما قد يستشفه القارئ لتاريخه من سخط الباشا على طبائع ومستوى فكر المصريين -بلغ حد الاحتقار أحيانًا- فإن هذا لم يحل دون محاولته خدمتهم فكريًا واجتماعيًا، حتى إن كان ذلك في سبيل تحقيق مجد دولته بدافع شخصي. فنستطيع أن نقول إنه قد تمصّر بينما بقي المماليك في العصر العثماني ينظرون إلى فئتهم على اعتبارها «وطنًا داخل الوطن»، وأن مصر مجرد بلد يعيشون به ويستغلونه لصالحهم فحسب؛ بمعنى مختصر كان محمد علي يعتبر مصر «وطنًا يبنيه»، بينما كان المماليك ينظرون إليها على اعتبارها «غنيمة ينتهبونها». (وأنا هنا أعني مماليك فترة الاحتلال العثماني الذين يختلفون عن مماليك الدولة المملوكية البائدة).

- الثانية هي أن الباشا كان قد استنفد المحاولات لضم المماليك إلى جانبه، أو على الأقل لتحييدهم، لكنهم رغم ذلك استمروا في تدبيرهم ضده، حتى يقال إنهم دبروا اغتياله خلال رجوعه من بعض مهامه في السويس، وإن كانت هذه رواية غير مؤكدة. ولكنه على أي حال كان قد فقد الأمل في أن يأمن جانبهم. والقارئ لشخصية محمد علي يدرك بسهولة أنه كان يتمتع بقدر لا بأس به من الارتياب وسوء الظن، لدرجة بلغت حدًا مَرَضيًا في أواخر أيامه، حتى إنه شكك في ولاء ابنه إبراهيم باشا شخصيًا. ومن أبرز مساوئ المرتاب أنه مسارع لإيقاع الأذى بمن يرتاب في أمره.

- ثالثًا فإن محمد علي كان مخادعًا مراوغًا، ولطالما استغل بعض القوى حتى حقق استفادته منها، ثم أطاح بها، فقد تلاعب بالولاة بين خروج الحملة الفرنسية واجتماع المصريين على توليته، واستغل

الزعامة الوطنية وعلى رأسها عمر مكرم، ثم دبر لهذا الأخير الخلع من نقابة الأشراف والنفي، وبدأ حياته واليًا عثمانيًّا في طاعة السلطان ثم تمرد على الدولة. و«لعنة» المخادع أنه لا يثق بأحد.

- رابعًا فقد كان للإجراء العنيف القاسي الذي اتخذه محمد علي «ظهير» شعبي وسياسي، فالظهير الشعبي تمثل في سخط العامة على المماليك الذين ساموهم الظلم والفساد والنهب طوال العصر العثماني، والظهير السياسي تمثل في السلطة العثمانية التي لطالما عدت المماليك عصاة مارقين، وشاع ذلك حتى استغله نابليون بونابارت مبرّرًا علنيًّا لحملته على مصر. وعبر التاريخ الطويل لمختلف الأمم، قلما حظي حاكم بالدعمين في مواجهة فئة أكسبت نفسها بأفعالها عداء الجميع، ولم يستغل ذلك لسحقها.

- أخيرًا فإن محمد علي باشا كان «ابن عصره»، وفي هذا العصر -في الشرق بالذات- لم تكن فكرة المذبحة مستنكرة إلى الحد الذي بلغته في الفترات اللاحقة، بل كانت تعتبر بمثابة «قرار سياسي» كقرارات الحروب والمعاهدات والتحالفات. ومذبحة المماليك لم تكن بدعة في الدولة العثمانية، فقبل وقوعها بنحو سبع سنوات دبر العثمانيون مذبحة لبعض المماليك، حين دعوهم لمأدبة على بعض السفن العثمانية وقتل بعضهم خلالها. وكما أقول دومًا فإن على من يقيّم موقفًا أو واقعة تاريخية أن يقيمها في ضوء ظروف عصرها لا ظروف عصره.

▪ ▪ ▪

نهايةً، فإن يوم المذبحة المذكورة كان -كما يقول العرب في أمثالهم- «يومًا له ما بعده»، فبنهايته لم تنته حيوات بعض الناس فحسب، بل

انتهت حقبة بأكملها، لعبت خلالها تلك الفئة دورًا بارزًا في السياسة والحياة، سواء كانت في كراسي الحكم أو باعتبارها فئة معارضة. ودعونا نقل إنه بصرف النظر عن التقييم الأخلاقي -الذي لسنا في سياقه- لمذبحة المماليك، فإنها كقرار وخطة وتنفيذ قد أثبتت نجاحها فيما يتعلق بعهد محمد علي باشا، فأستطيع أن أجزم بثقة بأنه منذ وقوعها بدأ الحكم الحقيقي، وصفة «الانفراد» التي ميزت عهد محمد علي باشا، بلا منافسين داخليين أو مزاحمين له على كرسي الحكم.

مصادر:

١- كل رجال الباشا: د. خالد فهمي
٢- مذكرات نوبار باشا: نوبار باشا نوباريان
٣- الدولة العلية العثمانية: محمد فريد بك
٤- المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية: د. حسن حلاق، ود. عباس صباغ
٥- مصر في عهد محمد علي: د. عفاف لطفي السيد مارسو
٦- الفرعون الأخير محمد علي: جيلبرت سينويه
٧- العرب من الفتوحات العثمانية إلى العصر الحديث: يوجين روجان
٨- محمد علي وأولاده: جمال بدوي
٩- عجائب الآثار في التاريخ والأخبار: الجبرتي
١٠- عصر محمد علي: عبد الرحمن الرافعي
١١- أطلس تاريخ الإسلام: د. حسين مؤنس
١٢- أطلس تاريخ القاهرة: أحمد عادل كمال

خاتمة

كانت هذه بعض قصص «القتل الجماعي» في التاريخ الإسلامي.

ليست الوحيدة بالتأكيد، ولكنها -في رأيي المتواضع- أقوى وأبرز النماذج لهذا النوع من القتل والعنف، بين طرفين كليهما مسلم. وكتب التاريخ الإسلامي -تراثية وحديثة- تزدحم بالكثير من مثيلاتها.

وقبل أن يسيء البعض الفهم فيعتبر أنها «دليل إدانة» للتاريخ الإسلامي، وأنه -على حد اتهامهم- تاريخ دموي عنيف، دعوني أقل لكم إن هذا التاريخ يضم أكثر من ١٨٠ أسرة حاكمة، (أحصاها كليفورد إدموند بوزورث، في كتابه: السلالات الإسلامية الحاكمة)، منذ نهاية عصر الخلفاء الراشدين حتى وقتنا الحالي، فلو حاولنا -فرضًا- حساب وقائع القتل الجماعي والعنف واسع النطاق مقابل فترات السلم وأوقات الاستقرار، فسنجد أن نصيبنا من تلك الوقائع معقول ومفهوم، بل مقبول قياسًا بتواريخ أمم وشعوب ودول أخرى.

ثم إن المسلمين لم يبتدعوا هذا الصنف من القتل، وبشكل عام فإنهم ليسوا «بدعة» بين شعوب الأرض، فهم بشر كغيرهم، يجري عليهم، ومنهم، ما يجري على، ومن، كل بني الإنسان.

واختياري موضوع «القتل الجماعي» أو «المَقاتِل والمذابح» موضوعًا للعرض، ليس دافعه مجرد سرد «أحداث مثيرة»، أو وقائع صادمة،

لمجرد التسلية، وإنما هو بمثابة محاولة للتتبع التاريخي لتلك الحالات ومحاولة قراءة ما وراءها. وهو موضوع قلما تم تناوله -إن كان قد تم تناوله أصلاً- في كتاباتنا العربية. فلا بأس إذًا في محاولة استكشاف بعض المناطق المعتمة من تاريخنا الثري بالتفاصيل والموضوعات والقضايا التي تستحق القراءة والتحليل والدراسة.

فقط علينا عندما نتناول مثل تلك الموضوعات أن نتحرر من القراءة الماضوية، القائمة على البكاء على الأطلال أو مصمصة الشفاه على ما مضى من أحداث، بل تلك القراءة المستقبلية التي تعنى بإجابة أسئلة: ماذا حدث؟ - لماذا حدث؟ - ما الذي يحدث الآن؟ - ماذا سيحدث مستقبلاً؟

فهكذا يُقرأ التاريخ، بحلوه ومُرّه.

- تم بحمد الله -

الإسكندرية، ٢٣ أكتوبر ٢٠١٨

المحتويات

أيام من دم

"المقتلة" في المعجم هي "المعركة"..

أما في كتب التاريخ فهي تعني عادة القتل الجماعي، سواء في معركة أو غيرها..

وهذه قصص عشر مقاتل في التاريخ الإسلامي، من أشهرها وأعظمها أثرا.. وقعت في فترات وعصور وعهود مختلفة لأسباب متنوعة.. بعضها اشتهرت اسما، بينما غابت تفاصيلها وملابساتها وعواقبها عن الكثيرين..

عشر وقائع، كُتبت أيامها بالدم لا بحبر الكتابة..

ولم يكن أصدق من الدم حبرا يُكتب به التاريخ..



وليد فكري

باحث حر في مجال التاريخ، يمارس الكتابة التاريخية منذ العام 2009، ويكتب في عدد من المواقع الصحفية العربية، وله فيها عدد كبير من المقالات في تخصصه.

صدر للكاتب











